ولا أطيب صوتاً ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا أبدع أدبا ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع والتشريح وغير ذلك، مما يقصر عنه علماء الزمان ، وكانت محسنة فى صناعة الثقاف ، والمجادلة بالتراس ، واللعب بالرماح والسيوف أو الخناجر المرهفة ، لم يسمع لها فى ذلك بنظير »(١) ، وكان هذيل يقتنى أروع مجموعة فى عصره من الجوارى والقينات البارعات فى الحسن ، وفى الغناء والموسيقى ، وكانت « ستارته » أعنى جلساته الفنية أشهر ستائر ملوك الأندلس . وقيل عنه اجتمعت لديه منهن مائة وخمسون، وكان لديه من الوصفاء الصقالبة ستون وصيفاً ، لم تجتمع عند أحد من نظائره . وكان إلى جانب ذلك ، وافر الجود والكرم ، فسيح الجناب للقصاد ، وعلى الجملة فقد كان هذيل من أحب أمراء عصره إلى شعبه ، وقد استمر فى حكم إمارته الصغيرة ثلاثة وثلاثين عاماً ، مرت كلها فى أمن وسلام ورخاء ، وتوفى بالسهلة فى سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٥ م)(٢) .

فخلفه فى الإمارة ولده أبو مروان عبدالملك بن هذيل بن رزين ، وكان فى حياة أبيه يسمى حسام الدولة ، وتلقب عند ولايته بذى الرياستين الحاجب جبر الدولة . وقد حكم أبومروان مملكة شنتمرية الشرق زهاء ستين عاماً ، وشهد طائفة كبيرة من الأحداث تجتاح هذه المنطقة ، ولاسيما فى الثغر الأعلى وفى مملكة بلنسية ، وشاء حسن الطالع أن يصمد للأحداث ، وأن يبقى فى رياسته ، بل أن يوسع نطاقها . وقد اختلف الرأى فى تصوير أبى مروان وخلاله ، فنرى معاصره ابن حيان ، يحمل عليه بشدة ، وفى عبارات لاذعة ، ويقول لنا إنه « كان سيئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلا لامتجاهلا ، وخاملا لامتخاملا ، قليل النباهة ، شديد الإعجاب بنفسه ، بعيد الذهبة بأمره ، زاريا على أهل عصره ، إن ذكرت الحيل فزيدها ، أوالدهاة فسعدها وسعيدها ، أو الشعراء

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٢١ أ و ب و ٢٢ أ و ب . ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٤ .

(٢) راجع فى أخبار هذيل بن رزين : الحلة السيراء (دوزى) ص١٧٩—١٨٢، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٣ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٥ و ٢٠٦ . وكلها مشتقة من أقوال ابن حيان على اختلاف فى النقل والتلخيص .

فجريرها وأسيدها ، أو الأمراء فزيادها ويزيدها ، أو الكتاب فيه فبديع همذان ، أو الخطابة فقس سحبان ، أو النقد فقدامة العلم ، أو العلم فليس منه ولا كرامة ، خلى من المعارف ، وشعره أهتف من كل هاتف»(١) . هذا بينما يقدم لنا عنه ابن الأبار صورة أفضل ، مما سمعه من الرواة ، فيقول لنا « إن أبا مروان هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام ، قرب جنده من نفسه ، وتحبب إليهم ، واختلط بهم ، حتى كان لايمتاز عنهم فى مركب ولاملبس ، ووقائعه فى الثغر مشهورة »(٢) .

ويغرق الفتح بن خاقان كعادته فى مديحه ومديح دولته ، ويقول لنا إنه كان منتهى فخار قومه ، وقطب مدارهم ، وإنه رجل « اتخذته البسالة قلباً ، وضمت عليه شغافاً وخلباً ، لايعرف جبناً ولاخوراً ، ولايتلو غير سور الندى سوراً . وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان ، ترتضع فيه المكارم أخلاف ، وتدار بها للأمانى سلاف » . إلى غير ذلك من العبارات الرنانة(٣) . ويشاطره ابن بسام بعض هذا المديح فيقول لنا إن أبا مروان « كان له طبع يدعوه فيجيب ، ويرمى بغرة الصواب عن قوسه فيصيب ، على ازدراء كان منه بالأمة ، وقلة إستجداء لمن عنى بالأخذ عنه من الأئمة » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه كان شاعراً مجيداً(٤) .

ولم نعثر فى مختلف المصادر ، على كثير من التفاصيل ، المتعلقة بأخبار عبد الملك بن هذيل وأعماله ، خلال حكمه الطويل ، وكل ما وقفنا عليه من ذلك يتلخص فى أنه استمر فى حكم مملكته ، بعيداً عن الأحداث والعواصف التى هزت ممالك الطوائف الأخرى . بيد أنه اضطر عقب سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس فى سنة ٤٧٨ هـ ، أن يؤدى له الجزية أسوة بسائر ممالك الطوائف فلما وقعت الهزيمة الساحقة على ألفونسو فى الزلاّقة ، فى العام التالى ، وهيض جناحه نوعاً ، نكل عبد الملك عن دفع الجزية . وفى تلك الأثناء كانت أعمال السيد إلكمبيادور ومغامراته فى منطقة بلنسية ، تزعج سائر الإمارات الإسلامية

(١) نقله ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٩ .
(٢) الحلة السيراء ص ١٨٥ .
(٣) قلائد العقيان ص ٥١ .
(٤) الذخيرة ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ .

المجاورة . ونحن نعرف أن السيد سار إلى قشتالة ليسوى شئونه مع الملك ألفونسو السادس ، وليحصل منه على حق فتح بلنسية ، وأنه خرج من قشتالة فى ربيع سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ، عائداً إلى شرق الأندلس ، ومعه سبعة آلاف مقاتل واخترق فى طريقه أراضى السهلة (شنتمرية) ، وعسكر فى « كالاموشا » فى شمالها الشرقى ، ولبث حيناً فى تلك الوديان النضرة ، يجمع محاصيلها ، وأقواتها . ولما شعر أبو مروان بما يهدد مملكته من الخراب والإمحال ، قصد بنفسه إلى معسكر السيد ، واتفق معه على أن يتركه فى سلام ، على أن يؤدى الجزية للملك ألفونسو كما كان الشأن قبل موقعة الزلاّقة ، وأن يدفع فى الحال إلى السيد بصفته نائباً عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . وعندئذ رفع السيد معسكره ، وغادر أراضى السهة إلى بلنسية[١] .

ولما اشتدت وطأة السيد على بلنسية والأنحاء المجاورة لها ، شعر القائد أبو عيسى بن لبّون صاحب مربيطر (ساجنتو) ، أنه لا يستطيع الصمود لهذا الإرهاق ، وأنف من مفاوضة السيد ، وآثر أن ينتمى إلى حماية أبى مروان عبد الملك ، وأن يسلمه حصنه ، فقبل عبد الملك هذا العرض ، وتعهد لابن لبون ، بحمايته ورعايته وأن يجرى عليه رزقاً كافياً ، وتسلم منه حصن مربيطر فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ م (أواخر ٤٨٦ هـ) ، ثم سار إلى السيد ، وفاوضه فى عقد المودة والإبقاء على الحصن ، على أن تكون سائر الحصون الواقعة فى أراضيه مفتوحة للبيع والشراء ، وأن تقدم إلى جنود السيد ما يحتاجونه من المؤن . وسار ابن لبون بعد ذلك فى أهله وأمواله صحبة عبد الملك إلى عاصمته ونزل فى كنفه . بيد أنه لم يمض سوى قليل حتى تنكر له عبد الملك ، وأخذ فى مضايقته والتقتير عليه ، وقاسى ابن لبون من ذلك حتى كره البقاء ، ومما نظمه يومئذ فى محنته :

نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها ... إليك عنى فما فى الحق أغتبن
من كسر بيتى لى روض ومن كتبى ... جليس صدق على الأسرار مؤتمن
أدرى به ما جرى فى الدهر من خبر ... فعنده الحق مسطور ومختزن
وما مصابى سوى موتى ويدفننى ... قوم وما لهم علم بمن دفنوا

ولما استولى عبد الملك على مربيطر ، ورأى اضطراب الأحوال فى بلنسية ،

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 357—359

ثابت له فكرة فى محاولة الاستيلاء عليها ، فنكل عن أداء الجزية المتفق عليها إلى السيد ، وفاوض پيدرو (بطره) ملك أراجون فى معاونته على تحقيق مشروعه، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال ، فلما وقف السيد على هذه التطورات انقض بقواته على أرض السهلة ، وعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وسبى جموعاً كبيرة ، وبعث الجميع إلى « جُبالة » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسى ، وعندئذ اضطر عبد الملك مرة أخرى إلى الخضوع اجتناباً لهذا السيل المدمر ، وصوناً لأراضيه ورعيته (١٠٩٣ م — ٤٨٦ هـ)(١) .

وفى أواخر حكمه ، وقد شاخ يومئذ ، وقع عليه حادث اغتيال كاد يودى بحياته . وذلك أن صهره ، زوج أخته ، عبيد الله حاكم إذكون الواقعة شمال شرقى العاصمة ، كان يضمر له الشر ، ويود إزالته ليحكم مكانه ، فدعاه ذات يوم إلى حفل عقده بحصنه ، فحضر ومعه جماعة منهم ابن لبون ، فلما تمكن الشراب من عبد الملك ، وثب به عبيد الله وصحبه فطعنوه بسيوفهم ، واتفق أن كانت أخته حاضرة ، وهى زوج عبيد الله القاتل ، فصعدت إلى شرفة عالية ، وصاحت واقتيلاه ، فهرع الناس إلى مكان الجريمة ، وألفوا عبد الملك وقد أثخن جراحاً ، وبه رمق ، فأرادوا الفتك بقاتله ، فأمرهم بالقبض فقط على عبيد الله وابنه ، ثم برىء عبد الملك من جراحه ، وخرج دميماً مشوهاً ، فأمر بصهره فقطعت يداه ورجلاه ، وسملت عيناه ، ثم صلب ، وقطعت رجل ابنه . وتوفى عبد الملك بعد ذلك بقليل فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) بعد أن حكم نحو ستين عاماً(٢) .

وكان عبد الملك بن رزّين ينظم الشعر ، وكان حسبما يصفه ابن بسام شاعراً مجيداً ، وهو وصف يأباه عليه ابن حيان، إذ يصف شعره بأنه « أهتف من كل هاتف » . ويقول لنا ابن الأبار « إن ضعيف منظومه أكثر من قويه » . وكان على الرغم من أدبه وشعره ، متعسفاً مع الشعراء مقصراً فى إجازتهم . ومن نظمه فى الفخر وهو ما يصفه ابن حيان بالسخف :

أنا ملك تجمع فىّ خمس   هى للأنام محيٍ مميت
هى ذهن وحكمة ومضاء   وكلام فى وقته وسكوت

---

(١) R. M. Pidl; ibid; p. 453—455

(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٥ و ١٨٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٤ و ١١٥ .

وقوله :

يارب ليل أطال الهجر مدته   فأيأس القلب عن إدراك منتصفه
ليل تطاول حتى قد تبين لى   عند التأمل أن الدهر من سدفه

وقوله فى الغزل :

أترى الزمان يسرنا بتلاقى   ويضم مشتاقاً إلى مشـتاق
وتعض تفاح الخدود شفاهنا   ونرى منى الإحداق بالأحداق
وتعود أنفسنا إلى أجسامها   فلطالما شردت على الآفاق[١]

وخلف عبد الملك بن رزين ولده يحي الملقب بحسام الدولة ، وكان أميراً عاجزاً ضعيف العقل ، مدمنا للشراب ، وكان يسعى إلى مصانعة ملك قشتالة ألفونسو السادس ، والتماس مودته ، واجتناب سطوته ، فبعث إليه بهدية حافلة من الحلى والخيل والبغال ، ومختلف التحف النادرة ، فكافأه عنها ألفونسو بأن بعث إليه قرداً هدية منه إليه . فكان يحي لسخفه وسقم عقله ، يفخر باقتناء هذا القرد ، ويفخر بأن هاداه ملك قشتالة[٢] . والواقع أن مُلك بنى رزين كان يدنو عندئذ من نهايته بسرعة . ذلك أن المرابطين كانوا قد اجتاحوا يومئذ شرق الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم فى تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية فى شعبان سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) ، وأخذوا يضعون خططهم للاستيلاء على قواعد الثغر الأعلى . وكان عبد الملك بن رزين ، قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[٣] ، ولكن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتحقيق خطة المرابطين فى القضاء على سائر دول الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفى اليوم الثامن من رجب سنة ٤٩٧هـ (إبريل ١١٠٤ م) دخل المرابطون مدينة شنتمرية ، وخلعوا أميرها يحي بن عبدالملك بن رزين ، وانتهت بذلك دولة بنى رزين الصغيرة بعد أن عاشت زهاء تسعين عاماً ، ولم يبق من بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة ، وقد كانت هى الأخرى تدنو سراعاً من الخاتمة المحتومة .

---

(١) راجع الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ٢١ أ و ب ، والحلة السيراء ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ و ٣٠٩ و ٣١٠ ، وقلائد العقيان ص ٥٣ — ٥٦ ، وقد وردبها الكثير من شعر ابن رزين .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١١ . وينسب دوزى هذه الواقعة إلى عبدالملك بن هذيل ، ويقول لنا إنه حمل هديته بنفسه إلى ألفونسو وهو مشرف على أخذ طليطلة : Hist. V. III. p. 121

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٢ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٠ .

الفصل الرابع

إمارة ألبونت

ألبونت وموقعها . قيام عبد الله بن قاسم بها . انضواؤه تحت لواء الخلافة الأموية . إيواؤه المرتضى وأخيه المعتد بالله قبل توليهما الخلافة . وفاة عبد الله وقيام ولده محمد مكانه . تلقبه بيمن الدولة . ولده أحمد بن محمد الملقب بعز الدولة . وفاته وولاية ولده الطفل . خلع الأمير الطفل وولاية عمه عبد الله بن محمد . حكمه الطويل . زحف السيد على ألبونت . خضوع عبد الله واعترافه بطاعة ملك قشتالة وأداؤه الجزية . استيلاء المرابطين على ألبونت. عبد الله بن محمد ومواهبه الأدبية والشعرية .

على مقربة من شنتمرية الشرق ، وإلى الجنوب الشرقى منها، كانت تقع إمارة صغيرة أخرى من إمارات الطوائف ، هى إمارة ألبونت أو ألبنت . وتقع مدينة ألبونت[1] هذه ، فى وسط الطريق بين قسطلونة وقونقة ، على مقربة من نهر طورية فى حمى الجبال . وقد قام بها منذ بداية الفتنة عبد الله بن قاسم الفهرى ، وهو من زعماء البيوت العربية فى تلك المنطقة ، فحكمها واستقل بها وبما حولها من الأراضى . وقد كان بنو قاسم هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى ولى إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء ، ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقى ، وذلك فى أواخر سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م)[2] . ولم يشترك عبد الله فى شىء من الحوادث ، التى كانت تجرى يومئذ ، فى شرقى الأندلس أو جنوبه ، نظراً لبعد إمارته عن مسرح الحوادث . بيد أنه كان من أنصار الخلافة الأموية ، يعترف بطاعتها ويدعو لها ، مع طائفة الفتيان العامريين. وكانت بلدة ألبونت منزل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وأخيه هشام ، يعيشان فى كنفه ، وتحت رعايته ، ومن ألبونت خرج عبد الرحمن حينما رشحه خيران وزملاؤه الفتيان العامريون للخلافة ، باسم المرتضى . ولما قتل المرتضى فى المعركة التى نشبت بين أنصاره ، وبين البربر أمام غرناطة ، فى سنة ٤٠٩ هـ ، لجأ أخوه هشام إلى حماية عبد الله بن قاسم ، ولبث فى ألبونت

---

(١) وهى بالإسبانية Alpuente

(٢) المقرى نقلا عن الحجارى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ .

حتى اختاره أهل قرطبة للخلافة ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وعندئذ تلقب بالمعتد بالله ، ولبث مقيما فى ألبونت مدة عامين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له فى قرطبة . ثم سار بعدئذ إلى قرطبة ، ودخلها فى ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ ، حيث جددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين(١) .

واستمر عبد الله بن قاسم فى حكم إمارته الصغيرة ، حتى توفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) ، فخلفه ولده محمد بن عبد الله الملقب بيمن الدولة ، وحكم ألبونت زهاء اثنتى عشرة عاما . ولم تدون لنا الرواية أية حوادث وقعت فى عهده . ولما توفى فى سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، خلفه فى الحكم ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة ، وحكم حتى وفاته فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ، فأقام بعض أصحابه للحكم مكانه ولده الطفل محمداً ، وكان فى نحو السابعة من عمره ، وقام بالوصاية عليه جده لأمه المدعو قاسم ، وهو الذى دبر ولاية الأمير الطفل . ولكن هذا العمل لم يرق فى نظر عبد الله بن محمد عم الأمير الطفل ، وأخى والده أحمد ، وكان يرى نفسه أحق بالولاية ، وتؤازره فى ذلك جماعة قوية من الأنصار ، فدبروا أمرهم ووثبوا بالوصى قاسم واعتقلوه ، وصرف الأمير الصبى إلى حجر أمه ، ولما يمض على حكمه بضعة أشهر ، وتسلم عبد الله مقاليد الحكم وتلقب بجناح الدولة ، أو نظام الدولة وفقاً لرواية أخرى ، وتزوج من والدة الصبى أرملة أخيه اتقاء لأطماعها ودسائسها ، وسار فى حكم الإمارة دون منازع .

واستمر عبد الله بن محمد فى حكم إمارة البونت أكثر من أربعين عاماً ، ولم تقع فى عهده الطويل حوادث ذات شأن ، إلا حينما غدت هذه المنطقة كلها فريسة لعدوان السيد إلكمبيادور ومغامراته ، حسبما فصلنا ذلك من قبل فى تاريخ مملكة بلنسية . فنى سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) زحف السيد بقواته على إمارة ألبونت وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها عبد الله بن محمد إلى الاعتراف بطاعة ملك قشتالة ، وإلى أن يؤدى جزية قدرها عشرة آلاف دينار ، وذلك أسوة بما فرض على جاره أبى مروان بن زرين صاحب شنتمرية الشرق . ولما استولى المرابطون على بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، استولوا

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ .

بسرعة على معظم القواعد والحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ومنها ألبونت . وفى رواية أخرى أن آل قاسم أصحاب ألبونت استمروا فى حكمها حتى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)(١) . ولكن الرواية الأولى أرجح فيما يبدو ، لأن المرابطين استولوا على شنتمرية الشرق فى سنة ٤٩٧ هـ ، وأغلب الظن أنهم استولوا قبل ذلك على ألبونت الواقعة فى جنوبها ، وذلك فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م)(٢) .

وكان الأمير عبد الله بن محمد قاسم أديباً شاعراً جيد النثر والنظم ، وقد أورد له الحجارى صاحب « المسهب » هذه الأبيات :

خلعت عن الملك لكننى ... عن الصبر والمجد لا أخلع
رمانى الزمـــان بأرزائه ... وغيرى من خطبه يجزع
فليس فؤادى بالملتظى ... ولا مقلتى حسرة تدمع
ولى أمل ليتـــه لم يكن ... فكم ذا يغر وكم يخـــدع

ومن قوله من قصيدة :

أما لكل نبيه فى العلا حيل ... تفضى الحقوق بها والمرء منقبض
كن كيف شئت فمن دأبى محافظة ... على الذمام وعهد ليس ينتقض
وهمة لم تضق ذرعاً بحادثة ... إن الكريم على العلات ينتهض
والحر حر وصنع الله منتظر ... والذكر يبقى وعمر المرء ينقرض(٣)

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٥ .

(٢) راجع فى أخبار إمارة ألبونت : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ و ٢١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٠٨ . وكذلك : R. M. Pidal; ibid. p.360 & 448

(٣) راجع فى رسائل عبد الله وقصائده : قلائد العقيان ص ١٢٧ — ١٣٢ ؛ والمغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٣٩٦ — ٣٩٨ .

الكتاب الخامس

دول الطوائف في الثغر الأعلى

الفصل الأول

مملكة سرقسطة

حتى نهاية عصر المقتدر بن هود

١ – عهد بنى تجيب

مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى . بنو تجيب وتغلبهم عليه . مؤامرة عبد الرحمن التجيبى ضد المنصور وفشلها . ولده يحيى . المنذر بن يحيى وإمارته الثغر . تأييده الخلافة الأموية . محاربته مع الفتيان العامريين . تدخله فى حوادث بلنسية . مسالمته الملوك النصارى . بذخه وأبهته . مديح ابن دراج له . ولده يحيى . منذر بن يحيى الحاجب . مصرعه على يد سليمان بن حكيم . الفتنة فى سرقسطة . سليمان بن هود . استيلاؤه على سرقسطة وبداية عهد بنى هود. تلقبه بالمستعين. حروبه مع المأمون بن ذى النون. استغاثته بملك قشتالة . استعانة المأمون بملك نافار . تفاقم العدوان بين الفريقين . وفاة المستعين . تقسيمه لمملكته بين أولاده . الحرب الأهلية بينهم . أحمد بن هود المقتدر . الصراع بينه وبين أخيه المظفر . كيده لقوات أخيه وفتكه بها . إستيلاء المقتدر على طرطوشة . طرطوشة تحت حكم الفتيان العامريين. غزوة النورمانيين لبربشتر . أصل هذه الحملة وظروفها. صفتها الصليبية. حصار النورمانيين لبربشتر واقتحامهم لها . فظائع النورمانيين وفتكهم بأهلها. رواية ابن حيان. فداحة الغنائم والسبايا . تأملات ابن حيان عن الحادث . نظراته وتكهناته البعيدة . صدى النكبة فى الأندلس . نهوض المقتدر لاسترداد بربشتر وتقاطر المجاهدين إليها . استيلاء المقتدر على المدينة . الفتك بالنصارى وإبادتهم . إعتداء فرناندو ملك قشتالة على أعمال سرقسطة . خضوع المقتدر لأداء الجزية . المقتدر وعلاقته بالملوك النصارى. استعانته بهم . مشاريعه العسكرية . المقتدر وأخوه يوسف المظفر . السيد إلكمبيادور فى خدمة المقتدر . استيلاء المقتدر على مملكة دانية . وفاة المقتدر . تقسيمه المملكة بين ولديه . صفات المقتدر بن هود وخلاله . شغفه بالعلوم الرياضية . فخامة بلاطه . إنشاؤه لقصر الجعفرية ومجلس الذهب .

كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمها ، ليس فقط بضخامة رقعتها ، ولكن كذلك بموقعها الدقيق الخطر ، بين الدول الإسبانية النصرانية ، بين قطلونية من الشرق ، ونافارا أو نبرّه من الشمال الغربى ، وقشتالة من الجنوب والغرب ، وكانت فى الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة ، وأرسخها جذوراً فى الاستقلال . ذلك أنها كانت بموقعها المنعزل النائى فى شمال شرق الجزيرة ، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية

الأخرى ، تضطر دائماً إلى مضاعفة الجهود للذود عن حياتها ، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطرمة من حولها .

وكانت مملكة سرقسطة ، قبل اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، وقبل أن تنتظم فى سلك ممالك الطوائف ، تعرف بولاية الثغر الأعلى ، وهو يشمل فى الجغرافية الأندلسية ، مدينة سرقسطة وأعمالها ، تطيلة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولاردة ، وأفراغة ، وطرّكونة ، وطرطوشة ، ويشغل المنطقة الواسعة الخصبة التى يخترقها نهر إيبرو (إبرُه) من مصبه عند مدينة طرطوشة، حتى مدخله عند مدينة قلهرّة فى ولاية نافار ، ويخترقها فرعه الشمالى الكبير نهر سجرى والأفرع الصغيرة الممتدة منه نحو بربشتر ووشقة، وفرعه الجنوبى خالون حتى قلعة أيوب ودَروقة : ففى هذه المنطقة الشاسعة التى تكثر فيها الوديان اليانعة والمواقع الاستراتيجية ، كانت تقوم مملكة سرقسطة مكان ولاية الثغر الأعلى القديمة ، مشتملة على سائر نواحيها .

وقد لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مسرحاً لمغامرات بنى قسىّ زعماء الثغر المولدين ، حسبما فصلنا ذلك فى مواضعه من العصر الأول[١] .

وفى أواخر هذا القرن ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، استطاع بنو تجيب أصحاب دروقة وقلعة أيوب من أعمال الثغر الجنوبية ، الاستيلاء على مدينة سرقسطة ، وذلك على يد زعيمهم أبى يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى المعروف بالأنقر . وأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها اكتساباً لولائه ، وكان بنو تجيب هؤلاء من زعماء البيوتات العربية العريقة فى الثغر ، واستمر بنو تجيب فى سرقسطة ، والمنتزون من زعماء المولدين فى باقى قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة ، أحياناً على ولائهم لحكومة قرطبة ، وأحياناً يخرجون على طاعتها ، حتى استطاع الناصر أن يقضى على ثوراتهم ، وأن يرغمهم على الخضوع والطاعة ، بيد أنه عفا عن بنى تجيب ، ورد زعيمهم محمد ابن هشام التجيبى إلى منصبه حاكما لسرقسطة ، لما كان يتمتع به من مقدرة إدارية ، ولما كان لبنى تجيب فى الشمال من العصبة والأنصار.

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » (العصر الأول) .

وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، شعر بنو تجيب بما يهدد سيادتهم فى الثغر من اتجاه المنصور إلى القضاء على سلطان الأسر العربية ، وزعامتها المحلية ، فحاول زعيمهم يومئذ وهو عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، صاحب سرقسطة أن يسعى إلى إزالة المنصور بالتآمر مع ولده عبد الله . وقد فصلنا أخبار هذه المؤامرة فيما تقدم من أخبار الدولة العامرية[1] ، وبينا كيف استطاع المنصور أن يقبض على عبد الرحمن التجيبى ، وعلى عبد الله ، ثم قضى بإعدامهما ، بيد أنه مع ذلك ندب لحكم سرقسطة ، يحيى بن عبد الرحمن التجيبى استبقاء لولاء الأسرة جرياً على سياسة أسلافه ، وذلك فى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩م) .

واستمر يحيى التجيبى فى حكم سرقسطة وأعمالها حتى وفاته فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م)، وشهد قبل وفاته اضطرام الفتنة ، وانهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس، وكان جل عنايته فى تلك الآونة العصيبة أن يحافظ على بلاده من عدوان النصارى ، وأن يوطد سلطانه فى مملكته النائية المنعزلة عن مسرح الحوادث . ولما توفى ، خلفه ولده المنذر بن يحيى التجيبى .

ويمكننا أن نعتبر المنذر بن يحيى التجيبى أول أمير للثغر فى عهد الطوائف. فحكم سرقسطة وأعمالها ، وتسمى بالحاجب ذى الرياستين ، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمنصور ، ولما تطورت الحوادث فى قرطبة ودخلها على بن حمود بحجة إنقاذ الخليفة هشام المؤيد ، ودعا لنفسه بالخلافة ، كان المنذر بن يحيى إلى جانب خيران وزملائه الفتيان العامريين فى معارضته ومقاومته . ولما رشح هؤلاء للخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمرتضى ، وساروا معه هم وأنصارهم فى قواتهم لمقاتلة البربر ، وخلع على بن حمود ، سار معهم المنذر بن يحيى فى بعض قواته ، ومعه فرقة من المرتزقة النصارى بقيادة حليفه الكونت رامون أمير برشلونة ، وكان من ضباطه فى تلك الحملة رجل كان له فيما بعد أكبر شأن فى تطور الحوادث فى الثغر الأعلى هو سليمان بن هود. ونحن نعرف ما أسفرت عنه المعركة التى اضطرمت يومئذ فى ظاهر غرناطة بين القوات الأندلسية ، وجيش البربر بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، وكيف

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » (العصر الأول) .

انتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل مرشحهم الخليفة المرتضى (٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م)[١] .

وعاد المنذر وحلفاؤه النصارى إلى الشمال ، وقد أيقن أنه يؤازر قضية خاسرة ، وكانت حوادث بلنسية تؤذن يومئذ بأن تفتح ميداناً جديداً لنشاط المنذر . ذلك أنه لما توفى أميرها الفتى مبارك فى أواخر سنة ٤٠٨ هـ ، وخلفه فى حكمها الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بدعوة من أهلها ، ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى صاحب دانية حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، عاد أهل بلنسية فسخطوا على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة الكونت رامون برنجير ، وإفساحه له مجال التدخل فى شئونها بصورة ظاهرة ، وثاروا عليه ، ففر لبيب إلى طرطوشة ، واستمر مجاهد فى حكم المدينة بالإضافة لحكم دانية . ولكن أهل بلنسية لم يقنعوا بذلك ، واستدعوا لحكم المدينة المنذر بن يحيى ، فسار فى بعض قواته صوب بلنسية ، واستعد مجاهد للقائه ، ووقعت بينهما بعض معارك خشى الناس عواقبها ، ولم ينقذ ذلك الموقف إلا ما عمد إليه الفتيان العامريون من الاجتماع ، وعقد البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن المنصور ، وتعيينه أميراً لبلنسية ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) وعندئذ انسحب مجاهد إلى دانية ، وعاد المنذر إلى سرقسطة[٢] .

واستمر المنذر فى حكم مملكة سرقسطة ثلاثة أعوام أخر حتى توفى فى سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) . وكانت تربط المنذر بجيرانه الأمراء النصارى ، ولاسيما رامون بوريل أمير برشلونة علائق مودة وثيقة ، وكذلك كانت تربطه مثل هذه العلائق بسانشو الكبير (شانجه) ملك نافار وولده فرناندو الأول ملك قشتالة ، وألفونسو الخامس ملك ليون . وقد بالغ المنذر فيما يبدو فى صداقته لأولئك الملوك النصارى ، حتى أنه نظم فى قصره بسرقسطة ، حفلا لعقد المصاهرة بين أميرين من أولئك الأمراء ، هما سانشو ملك نافار ورامون بوريل أمير برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين ، فسخط عليه الناس من أجل ذلك ، ورموه بألسنة حداد ، بيد أنه قد حقق بهذه السياسة لنفسه مسالمة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٦ و ١٢٧ . وراجع Dozy : Hist. V. II. p 315—318

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٣ و ١٦٤ .

أولئك الملوك النصارى ، وكف عاديتهم عن بلاده ، بل لقد استطاع أن يحملهم على اتباع سياسة الموادعة والسلم مع جيرانهم من الملوك المسلمين . ومن ثم فقد تمتعت سرقسطة فى عهده القصير بفترة من الدعة والرخاء، وغدت باتساع عمرانها وتقدم أحوالها، شبيهة بحضرة قرطبة الكبرى أيام الجماعة، وأدرك الناس بعد وفاته، بعد نظره وحسن تقديره للعواقب[1] .

وكان المنذر فوق ذلك يعشق الأبهة والبذخ ، فملأ قصره الفخم بالجوارى والغلمان والحشم ، ونفيس الذخائر والتحف ، وكان يتحف أصدقاءه ملوك النصارى بالهدايا الفاخرة ، ويؤكد بذلك مودتهم ورضاهم وكان بين وزرائه بعض أكابر كتاب العصر ، مثل أبى العباس بن مروس من تدمير ، وأبى عامر ابن أزرق ، وابن واجب وغيرهم .

وأنشأ شاعر العصر أبو عمر بن دراج القسطلى فى مديح المنذر حينما وفد عليه قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسُّرى ... صبح بروح السَّفر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذى حجب الدجى ... فجرا بأنهار الندى متفجرا

ومنهـــا :

فلئن تركت الليل فوقى داجياً ... فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
وحللت أرضاً بُدلت حصباؤها ... ذهباً يرف لناظرىّ وجوهرا
ضربوا قِداحهم علىّ ففاز بى ... من كان بالقِدْح المعلّى أجدرا[2]

ولما توفى المنذر ، خلفه ولده يحيى ، وتلقب بالمظفر ، وحكم سرقسطة وأعمالها بضعة أعوام أخرى ، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) . والظاهر أنه لم يحكم سياسة الصداقة التى كان يتبعها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن ينزل له عن بعض القلاع والحصون .

وخلفه فى الملك ولده المنذر بن يحيى ، وتلقب بالحاجب معز الدولة . ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال هذا الأمير فى المدة التى حكمها ، وهى نحو عشرة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع دوزى Recherches, V. I. App. XIV & XVII

(٢) وهى قصيدة طويلة رائعة . وقد وردت فى ديوان ابن دراج الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٤ — ١٣٠ . وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة منها مقتطفات طويلة (الذخيرة – القسم الأول المجلد الأول – ص ٥٦ – ٥٨) .

أعوام . بيد أن لدينا تفاصيل مقتله ، وذهاب ملك بنى تجيب على يده . وكان ذلك فى غرة ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ (أغسطس ١٠٣٩ م) حينما نفذ إلى قصره فى ذلك اليوم رجل من بنى عمومته وقواده يدعى عبد الله بن حكيم ، جاء بزعم السلام عليه ، وكان يضمر له السوء منذ بعيد . وكان المنذر يجلس بين نفر قليل من خدمه الصقالبة ، وليس عليه إلا غلالة ، وهو يقرأ فى كتاب فى يده ، فانقض عليه وطعنه فى عنقه بسكين كان قد أعده ، فقطع أوداجه ، وفر الخدم فى الحال ولم يبق منهم إلا خادم واحد شهم حاول الدفاع عن سيده ، فصرعه عبد الله بخنجره ثم أجهز على منذر ، واحتز رأسه ، وأبرزها من شرفة فى القصر مرفوعة على عصا ، وهو يصيح هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاماً ، يريد بذلك الدّعى الذى نصبه القاضى ابن عباد فى إشبيلية ، وزعم أنه الخليفة هشاماً المؤيد ، وذلك فى سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٥ م) ، واعترف بخلافته عدد من أمراء الطوائف ، ورفض يحيي التجيبي يومئذ الاعتراف به ، وتابعه فى ذلك ولده المنذر . ولما شهد الناس رأس منذر بهتوا وعقد الذعر ألسنتهم ، وأرسل القاتل فى الحال إلى القاضى والأعيان ، فحضروا إلى القصر والقاتل جالس على فراش قتيله ، وجثة منذر مضرجة بدمائها ملقاة إلى جانبه ، فأعلن لهم أنه فعل ما فعل فى سبيل الإصلاح العام ، ودعا بالحكم لسليمان بن هود ، وقيل بل دعا لنفسه واختاره بنو عمه للولاية فانصرف الناس ، وقد بيتوا القضاء عليه .

وفى تلك الأثناء كان نبأ مصرع المنذر بن يحيي التجيبي قد ذاع فى كل مكان ، وهرع خاله إسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة إلى سرقسطة لتدارك الأمر ، واشتد الهرج فى سرقسطة ، وكادت تعصف بها الفتنة ، وهجم الناس على القصر لانتزاع القاتل ومعاقبته ، فتحصن بالقصبة ، وصمم على الدفاع عن نفسه ، بيد أنه لما أيقن أنه سوف يقع فى أيدى مهاجميه لامحالة ، جمع ما استطاع من ذخائر القصر وتحفه ، وخرج هارباً من باب خلفى فى القصر ، ولحق بقلعة روطة أحد معاقل سرقسطة المنيعة ، وكان قد أعدها لذلك بمعاونة نفر من صحبه ، وحمل معه فى نفس الوقت أخوين للمنذر ، وبعض أعيان منهم وزيره أبو المغيرة بن حزم ، فى الأصفهاد ليكونوا رهائن لديه ، واقتحم العامة قصر سرقسطة ونهبوه وخربوه ، وعم الهرج والفوضى .

وفى تلك الآونة ظهر فى الميدان رجل ، كانت تدخره الأقدار ليقمع الفتنة، وينتزع مقاليد الحكم . ذلك الرجل هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى ، وهو كبنى تجيب ينتمى إلى بيت عربى عريق ، وجدهم الأعلى هو هود وهو الداخل إلى الأندلس وينتسب إلى الأزد . وكان سليمان وقت وقوع الفتنة من كبار الجند بالثغر الأعلى ، فغلب على مدينة لاردة ، وقتل صاحبها يومئذ ، وهو أبو المطرِّف التجيبى ، ثم غلب على تُطيلة من أطراف الثغر ، وكان بها فى جمع من صحبه وقت مقتل المنذر التجيبى ، فلما وقف على ما حدث بسرقسطة ، هرع إليها فى صحبه ، وقيل بل كان وقت وقوع الحادث بمدينة لاردة ، وأن أهل سرقسطة هم الذين استدعوه للحضور . ويقدم لنا ابن خلدون رواية أخرى خلاصتها أن سليمان بن هود هو الذى ارتكب جريمة سرقسطة ، وأن الملك القتيل لم يكن هو المنذر معز الدولة ، وإنما كان أبوه يحيى المظفر ، وهو الذى كان يحكم يومئذ ، ويضع تاريخ هذا الحادث فى سنة ٤٣١ هـ[١] .

ولم يذكر ابن الخطيب واقعة القتل ، ويقول لنا إن أهل سرقسطة هم الذين ثاروا بيحيى بن المنذر بن يحيى ، وصرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود[٢] . بيد أن هاتين الروايتين تنقضهما رواية ابن حيان المعاصرة ، وهى التى اتبعناها فيما تقدم ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب[٣] .

وعلى أى حال فقد هرع سليمان بن هود فى صحبه إلى سرقسطة ، واستولى عليها فى غرة المحرم سنة ٤٣١هـ (٢٣سبتمبر سنة ١٠٣٩ م) وسواء أكان استيلاؤه عليها نتيجة لدعوة أهلها ، واختيارهم إياه لولايتها ، أم كان عملا من أعمال القوة وهو الأرجح ، فإن الواقع أنه استولى على مقاليد الحكم دون منازع ، وبذلك انتهت رياسة التجيبيين للثغر الأعلى ، بعد أن لبثت زهاء قرن ونصف ، وبدأت فى سرقسطة والثغر الأعلى رياسة أسرة جديدة هى أسرة بنى هود ، التى يخصها ابن الأبار دون غيرها من أسر الطوائف ، بغلبة الشجاعة والشهامة عليها[٤]

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.

(٢) أعمال الأعلام ص ١٧٠ .

(٣) راجع رواية ابن حيان مفصلة فى البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٨ — ١٨١ ، وقد عاد صاحب البيان فأورد رواية مماثلة : ج ٣ ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

(٤) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٤ . والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٦ .

والتى لعبت فى عصر الطوائف ، ولاسيما فى حوادث الثغر الأعلى وشرقى الأندلس ، أعظم دور .

٢ — عهد بنى هود

جلس سليمان بن محمد بن هود على عرش سرقسطة فى غرة المحرم سنة ٤٣١ هـ وحكم الثغر الأعلى ما عدا طرطوشة ، التى كانت بيد بعض الفتيان العامريين ، واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المستعين بالله ، وظهر منذ البداية بقوة عزمه وشدة بأسه ، فاشتهر أمره ، وتوطد ملكه بسرعة ، واستمر فى حكم مملكته الجديدة ثمانية أعوام . وكان أهم ما وقع فيها حروبه مع المأمون بن ذى النون . وكانت المنطقة الواقعة بين المملكتين ، من ناحية الجنوب الغربى من مملكة سرقسطة وناحية الشمال الشرقى من مملكة طليطلة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن بنى ذى النون كانوا خؤولة للمنذر بن يحيى آخر أمراء سرقسطة من بنى تجيب ،وهو الذى احتل سليمان بن هود عرشه، فكان ذلك عاملا آخر فى اشتداد هذه الخصومة . ووقعت المعارك بين الطرفين أولا حول مدينة وادى الحجارة ، وقد كانت من أعمال طليطلة، فبعث إليها سليمان بن هود ولده أحمد فى جيش قوى فنازلها واحتلها ، وذلك فى سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) ، وهرع إليها المأمون بن ذى النون فى قواته،ونشبت بين الجيشين معارك هزم فيها ابن ذى النون ، فارتد فى قواته إلى طلبيرة ، وابن هود يطارده، ويشدد الضغط عليه ، ولم ينج المأمون من هذا المأزق إلا حينما أمر سليمان ولده أحمد بتركه وشأنه .

وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار مملكة طليطلة حوادث هذا النزاع ، وبينا كيف لجأ المأمون على أثر هزيمته إلى فرناندو الأول ملك قشتالة ، فاستغاث به واعترف بطاعته، وكيف أمده فرناندو بجنده ، فعاثت فى أراضى مملكة سرقسطة وخربتها ، وعندئذ التجأ ابن هود بدوره إلى الاستعانة بملك قشتالة ، وبذل له أموالا وتحفاً جليلة ، فبعث فرناندو جنوده فعاثت فى أراضى طليطلة حتى وادى الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس) . ورد المأمون على ذلك بأن التجأ إلى غرسية ملك نافار واستماله بالأموال الجليلة، فأغار على أراضى مملكة سرقسطة المجاورة له ورد ملك قشتالة على ذلك بالإغارة على أراضى طليطلة مرة أخرى . وهكذا تفاقمت هذه الحرب الأهلية المدمرة بين ابن هود والمأمون « الأميرين المشئومين

على المسلمين » وفقاً لقول ابن حيان ، وضج لها سائر أهل الأندلس . واستمر ملكا قشتالة ، ونافار ، يعملان بكل ما وسعا على إذكاء هذه الفتنة ، فيغير الأول على أراضى طليطلة لحساب ابن هود ، ويغير الثانى على أراضى سرقسطة لحساب ابن ذى النون ، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين إلا بوفاة ابن هود وذلك فى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل[١] .

وقسم سليمان بن هود قبيل وفاته أعمال مملكته بين أولاده الخمسة ، فاختص أحمد بولاية سرقسطة عاصمة المملكة ، ويوسف بولاية لاردة ، ولب بولاية وشقة ، والمنذر بولاية تُطيلة ، ومحمد بولاية قلعة أيوب[٢] ، واستقل كل بحكم مدينته ، وأعمالها . بيد أن تقسيم المملكة على هذا النحو لم يكن عملا سليما ، وكان بالعكس نذيراً بالخلاف والحرب الأهلية . وكان أحمد صاحب سرقسطة وهو الملقب بالمقتدر من بين إخوته الخمسة أشدهم أطماعاً ، وأنشطهم سعياً إلى انتزاع ما فى أيديهم . وقد استطاع بالفعل أن يحتال على ثلاثة من أخوته بالوعيد والختل ، وهم لب صاحب وشقة ، والمنذر صاحب تطيلة ، ومحمد صاحب قلعة أيوب ، وأن يستولى على مدنهم ، ثم سجنهم ، وبلغت به القسوة أن سمل أعينهم . بيد أن أخاه يوسف صاحب لاردة ، وهو الملقب بحسام الدولة وبالمظفر ، كان له نداً ، وكان بطلا شهما ، وهو الذى استطاع وحده أن يقف فى سبيل أطماعه ، وأن يحبط محاولاته ودسائسه .

وهنا وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، وكان أهل الثغر حينما رأوا ما صنعه أحمد بأخوته ، وما لجأ إليه من الوسائل الغاشمة فى اغتصاب ولاياتهم ، قد سخطوا عليه ونادوا بخلعه ، وخرجت معظم القواعد عن طاعته ، وانضمت إلى أخيه ، ولم يتبق له سوى سرقسطة . فأخذ يرقب فرصة للتنكيل بأخيه ، وسنحت هذه الفرصة غير بعيد . ذلك أن مدينة تطيلة ، وهى من القواعد التى انضمت إلى يوسف المظفر ، دهمتها المجاعة والغلاء ، فاستغاث به أهلها ، فدعا أهل الثغور إلى جمع الأطعمة والمؤن ، فاجتمع منها قدر عظيم ، ورأى يوسف

(١) راجع فى أدوار تلك المعركة البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٧ — ٢٨٣ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٨ . وكذلك Dozy : Histoire V III., p. 74 & 75

(٢) تسمى وشقة بالإسبانية Huesca ، وتطيلة Tudela ، وقلعة أيوب Calatayud

أنه لايستطيع إرسال هذه الأمداد إلى تطيلة عن طريق سرقسطة خوفاً من غدر أخيه ، ففاوض غرسية ملك نافار ، وبعث إليه مالا لكى يسمح بمرور هذه المؤن عبر أراضيه إلى تطيلة، فأجابه إلى طلبه . وعلم أحمد بذلك فبعث سراً إلى غرسية ، يبذل له ضعف الأموال التى بعثها إليه أخوه، على أن يمكنه من الفتك بقافلة المؤن حين مرورها داخل أرضه ، فاستجاب الملك النصرانى إلى ذلك الإغراء الدنىء ، وتم ما دبره أحمد . ذلك أن قافلة المؤن ، وكانت تتكون من بضع آلاف من الجند ، وعدد كبير من الخيل والدواب ، ماكادت تجوز أراضى نافار ، شمالى شرقى تطيلة ، حتى دهمتها قوات أحمد المقتدر التى رتبها بممالأة غرسية ، وفتكت بها ، وأبيد معظم رجالها قتلا وأسراً ، واستولى النصارى على أسلابهم ، وماكان معهم من المؤن ، ولم ينج منهم سوى القليل ، وكانت واقعة شنيعة تنبئ عما كانت تنطوى عليه طبيعة أحمد المقتدر من صفات الغدر والاستهتار . وكان من أثرها ، أن ضعف أمر يوسف ، وتوطد سلطان أحمد ، واشتد بأسه ، وهابه الناس ، واسترد القواعد التى كانت تحت يده[1] .

وكانت ضربة المقتدر التالية ، استيلاؤه على ثغر طرطوشة . وكان هذا الثغر الذى يعتبر مخرج سرقسطة إلى البحر ، إذا استثنينا ثغر طرّكونة الواقع على حدود إمارة برشلونة ، والذى كان من أعمال لاردة ، كان منذ عهد الفتنة بيد بعض الفتيان العامريين. وكان أول من استولى عليها منهم وحكمها لبيب العامرى ، وكان حازماً قوى البأس ، وحاول المنذر بن يحيى التجيبى أن ينتزعها منه فاستغاث بمبارك صاحب بلنسية فأمده بجنده ، وردعنها المنذر ، ولما توفى مبارك فى سنة ٤٠٨ هـ ، خلفه لبيب فى حكم بلنسية بدعوة من أهلها ، ولما اختلف على ذلك مع زميله مجاهد العامرى ، عاد إلى طرطوشة واستمر فى حكمها حتى توفى فى ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) ، فخلفه فى الحكم فتى آخر من الصقالبة العامريين يدعى مقاتل ، وتلقب بسيف الملك ، واستمر فى حكمها حتى وفاته فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) . فخلفه الفتى يعلى من موالى العامريين أيضاً ، ثم حكمها من بعده الفتى نبيل . وكان المقتدر بن هود أثناء ذلك ينظر إلى سيطرة أولئك الفتيان الصقالبة على طرطوشة بعين السخط ، ويتحين الفرص لانتزاع هذا الثغر

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

الهام من أعمال مملكته . وأخيراً سنحت هذه الفرصة ، حينما اضطرمت طرطوشة ضد الفتى نبيل بالثورة وزحف عليها المقتدر فى قواته فسلمها إليه نبيل فى الحال وخرج عنها ، وانتهت بذلك دولة الفتيان الصقالبة بها (٤٥٢ هـ — ١٠٦٠ م)[١].

* * *

على أن أعظمَ حادث أوبعبارة أخرى أعظم محنة نزلت بالمسلمين فى عهد المقتدر بن هود ، هو غزو النورمانيين لمدينة بربشتر[٢] ، وفتكهم بأهلها بأشنع وأفظع ما سجلت صحف التاريخ . وقد دون لنا ابن حيان ، وكان يعيش فى قرطبة وقت وقوع هذه المحنة ، تفاصيلها بإسهاب ، وبعبارات مؤثرة مبكية . ذلك أن حملة كبيرة من النورمانيين (أو الأردمانيين فى الرواية العربية) تقدرها الرواية بعشرة آلاف فارس، بقيادة جيوم دى مونرى ، نزلت بشاطىء قطلونية وسارت نحو الشرق مخترقة أراضى مملكة سرقسطة الشمالية . وقد اختلفت الرواية فى تكييف ظروف هذه الحملة وفى مصدر قدومها ، وفيمن نظمها وقادها . بيد أنه يستخلص من مختلف الروايات الخاصة بها ، أنها حشدت فى ولاية نورمانديا الفرنسية، حيث كان النورمان قد استقروا بها قبل ذلك العصر بموافقة ملك فرنسا، وأن أولئك النورمان خرجوا عندئذ فى طلب المغامرة والكسب ومعهم جموع كبيرة من الفرسان الفرنسيين . أما قائد الحملة فهو الفارس جيوم دى مونرى . وكان جيوم دى مونرى هذا من أكابر فرسان عصره ، وقد وفد قبل ذلك على إيطاليا فى أواسط القرن الحادى عشر ، وخدم الكرسى الرسولى حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية . أما بواعث قيادته لهذه الحملة ، ولماذا قصدت إلى شاطىء قطلونية ، فما يحيط به الغموض . على أنه يبدو من جميع الظروف أنها كانت من الحملات الناهبة التى تستتر بالصفة الصليبية ، والتى تقصد العيث والنكاية ، والغنم والسبى فى أراضى المسلمين أينما كانت . ويؤيد البحث الحديث هذه الصفة الصليبية للحملة ، ويقول لنا إن الذى دفع إلى إعدادها هو البابا اسكندر الثانى[٣]. والرواية الإسلامية صريحة واضحة فى أن هذه الحملة قد قدمت

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ و ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 38 & 39

(٢) هى بالإسبانية : Berbastro

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes p. 453

من فرنسا . فهى تقول لنا « إن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) إلى الأندلس فى جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد إلا الله ، وانتشروا على ثغور سرقسطة »(١) . ثم إنه ليس من الواضح أيضاً ما إذا كانت هذه الحملة قد عبرت إلى اسبانيا من طريق جبال البرنيه ، أم جازت إلى قطلونية بطريق البحر . وعلى أى حال فقد نزل أولئك النورمان فى قطلونية واجتازوا إلى أراضى مملكة سرقسطة ، إذ كانت تحمى مؤخرتها أرض نصرانية هى مملكة برشلونة . وقصدوا أولا إلى مدينة وشقة إحدى قواعد سرقسطة الرئيسية ، فنازلوها أياماً ، ولما لم ينالوا منها مأرباً غادروها وساروا شرقاً حتى مدينة بربشتر ، وهى لا تقل عن وشقة أهمية وحصانة .

وتقع مدينة بربشتر على فرع صغير من أفرع نهر إبره بين مدينتى لاردة ووشقة ، فى الشمال الشرقى لسرقسطة ، وكانت يومئذ من أمتع القواعد الإسلامية الشمالية . فنزل عليها النورمان ، وضربوا حولها الحصار ، وذلك فى أوائل سنة ٤٥٦ هـ (ربيع سنة ١٠٦٤ م) . ولم يبادر المقتدر لإنجاد المدينة المحصورة ، إذ كانت من أعمال أخيه يوسف المظفر ، فكان ذلك منه جبناً ونذالة ، أدرك عواقبهما فيما بعد ، ولم يستطع يوسف نفسه إنجادها ، فتركها لمصيرها . واستمر الحصار أربعين يوماً ، والمسلمون صامدون داخل مدينتهم الحصينة ، وكانت حاميتها تخرج من آن لآخر ، وتخوض مع الأعداء معارك شديدة ، ثم ترتد إلى الداخل . ولما اشتد الضيق بالمدينة المحصورة ، وعزت الأقوات ، وقع الهرج والتنازع بين أهلها ، وعلم النورمان بذلك ، فشددوا قبضتهم وضاعفوا جهودهم ، واستطاعوا بعد قتال عنيف أن يقتحموا المدينة الخارجية ، واحتلها منهم نحو خمسة آلاف دارع ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة ، ثم تحصنوا بالقصبة والمدينة الداخلية معولين على الدفاع عن أنفسهم لآخر لحظة ، لولا أن حدث حادث عجل بوقوع الكارثة . ذلك أن القصبة كان يمدها بالماء سرب داخلى تحت الأرض متصل بالنهر ، فوقف النورمان على سره من أحد الخونة فهدموه وألقوا فيه صخرة عظيمة ، وانقطع

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ . وراجع أيضاً الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٤٠ حيث يقول لنا فى كلامه عن بربشتر : « وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة ، أهل غاليش والرودمانون » . وغاليش هى فرنسا ، والرودمانون هم النورمان .

الماء عن المحصورين ، واشتد بهم الظمأ وبدا لهم شبح الموت جاثماً ، فبعثوا إلى النورمان يعرضون التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأولادهم، وأن يخرجوا من المدينة دون مال ، فوافق النورمان على ذلك . وفى رواية أخرى أن النورمان أبوا ذلك ، واضطر المسلمون إلى مدافعتهم ، حتى اقتحموا عليهم المدينة . وعلى أى حال فقد دخل النورمان المدينة دخول الوحوش المفترسة ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وسبياً ، ولم يطلقوا منها غير قائدها ابن الطويل ، وقاضيها ابن عيسى ، ونفر قليل من الأعيان .

وهنا تبسط الرواية الإسلامية القول فيما ارتكبه النورمان من الفظائع ، وتقدر عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة بأربعين ألفاً(١) أو بخمسين ألفاً ، بل بمائة ألف فى رواية أخرى ، وهلك عدد كبير من النساء ، حينما تطارحن على الماء لإرواء ظمئهن، فكبسهم العدو للأذقان موتاً . ولما خرجت الجموع من المدينة فى ظل الأمان المقطوع ، ورأى قائد النصارى كثرتهم، هاله ذلك ، وخشى أن تأخذ الجموع الحمية ، فيهبوا لاستنقاذ أنفسهم ، فأمر ببذل السيف فيهم ليخفف من أعدادهم ، فقتل منهم عندئذ مايزيد على ستة آلاف . ومات خلال الزحام كثير من الشيوخ والأطفال، وتدلى كثير من الأسوار اتقاء الزحمة، وامتنع نحو سبعمائة رجل بالقصبة ، فمات معظمهم عطشاً . على أن ذلك لم يكن أشنع مانزل بالمسلمين بل كانت تنتظرهم فظائع أخرى لايخلق ارتكابها إلا بأخس المحاربين وأنذلهم ، ونحن نترك القول هنا لابن حيان ، يصف لنا بقلمه البليغ طرفاً من تلك المناظر البشعة المؤسية :

« ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل ، وهلك فى الزحمة ، ظلوا قياماً ذاهلين ، منتظرين نزول القضاء فيهم ، نودى فيهم بأن يرجع كل ذى دار إلى داره وموطنه بأهله ، وأزعجوا لذلك ، فنالهم من الازدحام ، قريباً مما نالهم فى الخروج عنها . ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذرياتهم، اقتسمهم المشركون ، فأمر سلطانهم ، فكل من صارت فى حصته دار حازها ، وحازمافيها من أهل وولد ومال . فيحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم ، يأخذ كل ما أظهره إليه ،

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ .

ويقرره عليه فيما أخفى ، وبعذبه أشد العذاب ، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح ، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك . فإن عداة الله يومئذ ، كانوا يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم ، وعلى أعينهم إبلاغاً فى نكايتهم ، يغشون الثيب ، ويفتضون البكر ، وزوج تلك ، وأبو هذه ، موثق بقيد أسره ، ناظر إلى سخنة عينيه ، فعينه تدمع ، ونفسه يتقطع . ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعله ، أعطى من خوله وغلمانه يعبثون فيهم عبثته ، فبلغ الكفرة منهم يومئذ مالاتلحقه الصفة على الحقيقة ، والحول والقوة لله العظيم » .

واستولى النصارى على مقادير هائلة من السبي والغنائم ، ولاسيما النساء والأطفال . يقول ابن حيان « زعموا أنه صار لأكبرهم قائد خيل رومة فى حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة حمل » ثم يقول بعد ذلك « ولما عزم ملك الروم (يريد قائد النورمان) على القفول يومئذ من بربشتر إلى بلده ، تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيب ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الأيفاع ، والخود الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه » . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إنه قد أهدى من أبكار الجوارى المسلمين وأهل الحسن منهن إلى صاحب قسطنطينية خمسة آلاف ، ويقدرهن ياقوت بسبعة آلاف « بكر منتخبة »(١) .

وربما كان فى تلك الأرقام — أرقام القتلى والأسرى والسبايا — مبالغة . ولكنها تدل على أى حال ، مع ما اقترن بها من الأعمال الوحشية المروعة التى وصفها لنا المؤرخ المعاصر ، على فداحة الخطب الذى نزل بأهل بربشتر ، وعلى مبلغ تجرد أولئك الغزاة النورمان من أبسط الصفات الإنسانية ، وهو خطب كان حسبما يصفه ابن حيان « أعظم من أن يوصف أو يتقصى » . ولما وصلت أنباؤه إلى قرطبة فى أوائل رمضان (٤٥٦ هـ) ، حيث كان يقيم المؤرخ ، وذاعت فى مختلف الأنحاء اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وسادها الاشمئزاز والروع لتلك الفظائع والشناعات التى لم يسمع بمثلها .

وقد كانت هذه المحنة مادة خصبة لتأملات ابن حيان ، ونظراته النقدية الصائبة ، وإليك من أقواله تلك الفقرة التى تدلى بالنذير والنبوءة الصادقة ، وتفيض

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤٠ . وراجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة بربشتر .

بالتوجع لأحوال عصره . قال : « قد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لامحالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ماعهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك ماالحق الذى قبله ، فمثل دهرنا هذا — لاقدس — بهيم الشبه ، ما إن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم ، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مذكر لهم أوداع ، فضلا عن نافر إليهم أوماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالقناء ، عجائب فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير »(١) .

ولما غادر الغزاة النورمان بربشتر بعد اقتحامها ، والفتك بأهلها ، والاحتواء على أموالها ، تركوا لحمايتها ألفاً وخمسمائة من الفرسان وألفين من الرجالة ، وقيل بل تركوا ألف فارس وأربعة آلاف راجل ، واستقدموا إليها كثيراً من أهلهم وأقاربهم ومواطنيهم ، وساروا عائدين إلى بلادهم ، وفى ركبهم ألوف من سبى المسلمين نساء ورجالا ، ومقادير هائلة من الأموال والغنائم المختلفة .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى وقعت المعجزة . وكان صدى النكبة قد نفذ

---

(١) نقلنا هذه الفقرة وما قبلها من أقوال ابن حيان وتفاصيل نكبة بربشتر ، عن الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحات ٣٤ ب إلى ٣٦ ب . وراجع فى ذلك أيضاً البيان المغرب ومعظمه أيضاً من أقوال ابن حيان السالفة الذكر ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك Dozy : Histoire V. III. p. 78 & 79 - Recherches; -3eme Ed. V. II. p. 335-353 وهو يترجم أيضاً رواية ابن حيان المشار إليها .

إلى الأعماق ، واهتز لها أمراء الأندلس قاطبة ، وفى مقدمتهم المقتدر بن هود ، وهو الذى شهدها عن كثب ، ولحقه من جرائها أكبر وزر ، واتجه إليه أشد اللوم لتقصيره فى إنجاد المدينة المنكوبة والدفاع عنها ، وهى من أخص قواعد ثغره . واستنفر الناس للجهاد ، واجتمع من مختلف بلاد الأندلس عدد جم من المتطوعة والرماة ، ساروا إلى الثغر جهاداً فى سبيل الله ، وبعث المعتمد بن عباد نجدة من خمسمائة فارس ، وسار المقتدر بن هود فى قواته ، وقوات الأمداد المختلفة إلى بربشتر ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ (ربيع سنة ١٠٦٥ م) وضربوا حولها الحصار ، وامتنع النصارى داخل المدينة ، لما رأوه من كثرة جموع المسلمين ، وعالج المسلمون نقب أسوارها المنيعة العالية تحت حماية الرماة ، ونجحوا فى إحداث ثغرة كبيرة فيها ، ثم اقتحموا المدينة بشدة ، فغادرها النصارى من الناحية الأخرى ، وحملوا على محلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة مزق فيها النصارى وهلك معظمهم ، وأسر من كان بالمدينة من أهلهم وأبنائهم ، وتقدر الرواية من قتل منهم بنحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فى حين أنه لم يقتل من المسلمين وفقاً لتقديرها سوى خمسين رجلا وهى مبالغة واضحة ، بيد أنه لم يكن ثمة شك على ضوء الظروف المتقدمة فى أن خسائر النصارى كانت فادحة ، وأن خسائر المسلمين كانت يسيرة ، وقيل فوق ذلك إنه حمل من سبايا النصارى إلى سرقسطة نحو خمسة آلاف ، كما حمل إليها ألف فرس وعدة وسلاح وأموال كثيرة . وكان استرداد بربشتر فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ ، بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر (١) . وبذلك جبر الصدع ، ورفعت المعرة ، وأثلجت صدور المسلمين . وعلى أثر هذا الفتح الجليل اتخذ بطله ابن هود لقب « المقتدر بالله » (٢) .

* * *

وشغل المقتدر بن هود فى الوقت نفسه بسلسلة من الوقائع التى اضطرمت بينه وبين جيرانه النصارى . وكانت مملكة سرقسطة لوقوعها بين الممالك الإسبانية النصرانية الثلاث ، أراجون ونافار وقشتالة ، هدفاً مستمراً لأطماع الملوك

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤١ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٣٦ ب و ٣٧ أ . والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

النصارى ، يبتزون منها الأموال طوراً باسم الجزية ، وطوراً يقتطعون بعض أطرافها . وفى خلال ذلك ، يعمل بنو هود على الاستعانة من آن لآخر بالجند النصارى ، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال . وكان فرناندو الأول ملك قشتالة فى سنة ١٠٦٠م (٤٥٢ هـ) قد زحف على حدود مملكة سرقسطة الجنوبية الغربية ، واقتطع منها حصن غرماج ، وبعض حصون أخرى ، فاضطر المقتدر أن يذعن لدفع الجزية . ولما توفى فرناندو فى سنة ١٠٦٥ ، وخلفه ولده سانشو فى ملك قشتالة ، وفى حقوق الجزية على سرقسطة ، حاول أن يتدخل فى شئون سرقسطة وبعث إليها بقواته فى سنة ١٠٦٧ فحاصرتها ، اقتضاء للجزية المطلوبة ، وكان يقود الجيش القشتالى يومئذ الفارس ردريجو دياث أو السيد إلكمبيادور ، الذى احتل فيما بعد مكانة بارزة فى حوادث شرقى الأندلس ، فاضطر المقتدر أن يبعث إليه مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والأقمشة الفاخرة ، أداء للجزية المطلوبة ، وأن يبعث برهائنه فى الوقت نفسه ، وبذا رفع الحصار عن سرقسطة(١) .

وكان المقتدر فى الوقت الذى تصفو فيه علائقه مع جيرانه النصارى ، يستمد العون منهم فى مشاريعه العسكرية ، وقد يستمد عون أحدهما على الآخر ، كما حدث فى سنة ١٠٦٣ م حينما غزا راميرو الأول ملك أراجون أراضى مملكة سرقسطة ، فاستغاث المقتدر بفرناندو ملك قشتالة ، فبعث إليه ولده سانشو فى بعض قواته ، ووقعت بين الفريقين تحت أسوار جرادوس موقعة هزم فيها راميرو وقتل ، وكان ردريجو دياث — السيد فيما بعد — يومئذ من ضباط الجيش القشتالى .

ولما خلص عرش قشتالة لألفونسو السادس بعد مقتل أخيه سانشو ، عاد يطالب سرقسطة بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها فى نفس الوقت سانشو راميرز ملك أراجون ونافار ، بعد أن ورث عرش نافار ، وكان المقتدر يؤدى الجزية من قبل إلى سانشو ملك نافار . وكان يستعين فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة بجنود من البشكنس (النافاريين) والقطلان ، واستمرت بينهما المعارك حتى انتهت أخيراً بهزيمة يوسف وأسره .

وقد وقفنا على نص رسالة مخطوطة ، كتب بها المقتدر إلى صديقه المعتمد

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٩ ، وكذلك R. M Pidal : ibid; p. 159 & 160

ابن عباد — وقد كانت بينهما فيما يبدو من لهجة الرسالة صلات ودية وثيقة — يخبره فيها بقصته مع أخيه المظفر ، ويرميه فيها بالظلم والحسد ، ومجانبة العدل والإنصاف ، ويقول إنه حاول أن يسلك معه سبيل المودة والتفاهم ، فأبى ، واضطر إلى مقاتلته حتى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة وألزمه البقاء فى قصبة منتشون . ثم يقول معتذراً عن مسلكه : « وللنفس يعلم الله مما حمانى عليه ارتماض وإشفاق ، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق ، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا ، ولاجعلنى إلى سواه محيلا ، وكان فيما يأتيه أعق ، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق »(١) والظاهر أن الحوادث التى يشير إليها المقتدر فى رسالته قد وقعت فى سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) . وفى بعض الروايات القشتالية ، أن المقتدر بعد أن استولى على أملاك أخيه اعتقله بقلعة روطة ، وهنالك استمر فى اعتقاله حتى توفى بعد ذلك بثلاثة أعوام (٤٧٥ هـ) ، بيد أنه من الواضح أن الصحيح هوما يرويه المقتدر نفسه فى رسالته .

ولما أعيت المقتدر الحيل فى إرضاء أولئك الملوك المطالبين بالجزية ، انتهى رأيه إلى الاستعانة بخدمات ذلك الفارس القشتالى ، الذى عرفه من قبل بين ضباط قشتالة محارباً بارعاً ، وهو ردريجو دياث دى بيبار ، وكان يومئذ قد ساءت علائقه مع مليكه ألفونسو السادس وأقصاه عن بلاطه ، فخرج يبحث عن طالعه ، وهكذا عقدت العلاقة بين « السيد » وبين المقتدر ، وكان المقتدر أول من أولاه رعايته واستخدمه من الملوك المسلمين ، وكان ذلك فى سنة ١٠٨٠ م قبيل وفاة المقتدر بقليل(٢) .

ويجب أن نذكر هنا أيضاً بين أعمال المقتدر العظيمة ، استيلاءه على مملكة دانية من صهره ، زوج ابنته على إقبال الدولة فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى أخبار مملكة دانية . وقد غدت مملكة سرقسطة بهذا الفتح الكبير تمتد إلى شرقى الأندلس ، وغدت من أعظم ممالك الطوائف رقعة ، بل ربما أعظمها جميعاً . وقد مهد لها هذا الامتداد إلى شرقى الأندلس ، سبيل التطاع إلى مملكة بلنسية

---

(١) وردت هذه الرسالة فى المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال (لوحة ١١٨ و ١١٩) .

(٢) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب . وكذلك : R. M. Pidal : ibid ; p. 282 & 283

والتدخل فى شئونها ، حسبما سبق شرحه فى موضعه فى أخبار مملكة بلنسية ، وتوفى أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) من كَلَب شديد أصابه من عضة كلب ، بعد أن حكم مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً ، وكان قبيل وفاته قد ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه أبوه بتقسيم مملكته بين ولديه ، فخص ولده الأكبر وهو يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وخص ولده الأصغر المنذر بلاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة سرقسطة كانت فى ظل بنى هود ، لظروفها المترتبة على وقوعها بين الممالك النصرانية ، واضطرارها إلى مهادنتها ومصانعتها ، تؤثر سياسة التسامح الدينى ، وكان النصارى يعيشون فى ظل بنى هود ، فى ظروف حسنة ، ويتمتعون بسائر الحريات الفكرية والدينية ، وقد شجع هذا التسامح الذى أثر عن بنى هود نحو رعاياهم النصارى ، راهبا فرنسيا ، على أن يكتب إلى المقتدر بن هود رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية ، وبعث رسالته المذكورة مع راهبين من زملائه ليشرحا للمقتدر تعاليم الدين المسيحى ومزاياه(١) ، فاستقبل المقتدر الرسولين برفق وكياسة ، ولم يثر لما تضمنته رسالة الراهب من جرأة وتهجم صارخ ، بل عهد إلى العلامة الفقيه أبى الوليد الباجى ، وكان يومئذ يعيش فى سرقسطة فى كنفه وتحت رعايته ، بأن يكتب عن لسانه إلى الراهب ردا ، يفند فيه دعاوى الراهب فى رسالته ، ويبين ما تنطوى عليه هذه الدعاوى من بطلان وتناقض . فكتب الباجى رده المشهور على هذه الرسالة ، وهو رد مسهب ، يفيض منطقاً وبلاغة ، وفيه يفند الباجى مزاعم الدين المسيحى ، وألوهية المسيح وغيرها ، بقوة ، ويشرح تعاليم الإسلام بوضوح ، ويدعو الراهب بالعكس إلى اعتناق الإسلام ، وينوه بمعجزة القرآن وروعته ، ويدلل ببراعة على بطلان التعاليم المسيحية وتناقضها .

وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف . ويصفه الحجارى فى المسهب بأنه « عميد بنى هود وعظيمهم ، ورئيسهم وكريمهم » . وكان فضلا عن

---

(١) وردت رسالة الراهب الفرنسى فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى ، عقب رسالة ابن غرسية والرد عليها ، ودونت من بعدها رسالة أبى الوليد الباجى فى الرد على الراهب المذكور ، وهو رد طويل يملأ خمس عشرة صفحة ، وقد نشر الأستاذ دنلوب D. M. Dunlop نص الرسالتين فى مجلة الأندلس Al-Andalus Vol. XVII, 1952 ، وقرنهما بترجمة انجليزية .

مقدرته السياسية والعسكرية التى رأيناها تبدو فى كثير من أعماله ومشاريعه ، وبالرغم مما كانت تنطوى عليه هذه المشاريع والأعمال أحياناً من صفات سيئة ، يتمتع بكثير من الخلال البديعة ، فقد كان أميراً عظيما يحيط نفسه بجو من المهابة والروعة ، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها ، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب فى عصره ، ومن هؤلاء العلامة الفقيه أبو الوليد الباجى ، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ ، ووزيره الكاتب اليهودى المسلم أبو الفضل ابن حسداى السرقسطى ، وكان كلاهما من أعلام عصره فى البلاغة والأدب . بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره ، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة والفلك ، وقد كتب كتباً فى الفلسفة والرياضة(١) . وكان قصر المقتدر وهو المسمى بقصر « الجعفرية » نسبة إلى كنيته ، وهى « أبو جعفر » ، من أعظم وأفخر القصور الملكية فى تلك العصور ، وقد اشتهر فى تاريخ الفن الإسلامى باسم « دار السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذى زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة ، والذى كان يسمى لذلك بالبهو الذهبى ، أو مجلس الذهب.

وفيه يقول منشؤه المقتدر :

قصر السرور ومجلس الذهب ... بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكى خلافكما ... لكان لدى كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة فى يد الإسبان شوهت معالم هذا القصر البديع ، وأدخلت فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وزخارفه العربية . ومازالت بقاياه الدارسة تقوم حتى اليوم فى قلب مدينة سرقسطة باسم قصر الجعفرية Palacio Aljafería ، وقد شهدناه خلال زيارتنا لسرقسطة ، ولم يبق من بنائه الإسلامى سوى بقية مشوهة من مسجده السابق .

وكان المقتدر ، فوق شغفه بالعلوم ، أديباً ينظم الشعر ، وقد نسب إليه الحجارى صاحب المسهب قوله :

لست لدى خالقى وجيهاً ... هذا مدى دهرى واعتقادى
لو كنت وجْهاً لما برانى ... فى عـالم الكون والفساد (٢)

(١) Dozy : Histoire ; Vol. III. p. 163-R. M. Pidal : ibid, p. 282

(٢) راجع المغرب فى حلى المغرب (القاهرة) ج ١ ص ٤٣٧ .

الفصل الثاني

مملكة سرقسطة

منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها فى أيدى المرابطين

الصراع بين المؤتمن والمنذر . معركة قلعة المنار . حاكم روطة وكينه للنصارى . موقف السيد الكمبيادور . تحالف المنذر وسانشو راميرز . السيد ونفوذه لدى المؤتمن . حملة ابن بسام على بنى هود . وفاة المؤتمن . صفاته العلمية . ولده أحمد المستعين . مسير الفونسو السادس إلى سرقسطة ومحاصرته إياها . يرفع الحصار عند مقدم المرابطين . حروب المستعين . تطلعه إلى امتلاك بلنسية وفشل مشروعه . الخطر على مملكة سرقسطة . استيلاء ملك أراجون على منتشون . تهديده لوشقة . إتجاه المستعين إلى الاستنجاد بالمرابطين . سفارته لأمير المسلمين . استعانته بملك قشتالة . محاصرة سانشو راميرز لوشقة . وفاته ومتابعة ولده بيدرو للحصار . مسير المستعين وحلفاؤه لإنجادها . موقعة الكرازة . هزيمة المستعين وسقوط وشقة . إستيلاء المرابطين على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية . استيلاؤهم على شرق الأندلس . استنصار المستعين بالسيد . انشغال السيد فى بلنسية . إتجاه المستعين إلى المرابطين . سفارته الثانية لأمير المسلمين . وفاة بيدرو ملك أراجون وقيام أخيه ألفونسو مكانه . مسيره إلى تطيلة . مسير المستعين لإنجادها . سقوط تطيلة ومقتل المستعين . ولده عبد الملك عماد الدولة . دعوة أهل سرقسطة أمير المسلمين لخلع بنى هود . استصراخ عماد الدولة لأمير المسلمين . زحف المرابطين على سرقسطة واستيلاؤهم عليها . انتهاء حكم بنى هود . التجاء عماد الدولة إلى حصن روطة . خضوعه لحماية ملك أراجون . ولده سيف الدولة . نزوله عن روطة لألفونسو ريمونديز . سرقسطة أيام بنى هود . اشتهارها بالدراسات الرياضية والفلسفية . ابن باجة وحياته العلمية . أبو بكر الطرطوشى وكتابه سراج الملوك . نظريته فى عصبية الدولة ورد ابن خلدون عليها . سرقسطة ومساهمتها فى الحركة الأدبية . دورها فى التبادل الحضارى والثقافى . دورها فى التبادل التجارى .

عادت الحرب الأهلية القديمة التى اضطرمت من قبل بين المقتدر وإخوته الأربعة من جراء تقسيم المملكة ، تضطرم من جديد بين يوسف المؤتمن صاحب سرقسطة ، وأخيه الحاجب المنذر صاحب لاردة .

وقد استعان كلا الأخوين فى تلك الحرب الانتحارية بالنصارى ، فكان المؤتمن يستعين بصديق أبيه وحليفه من قبل « السيد » وجيشه من المرتزقة القشتاليين وكان المنذر وهو منذ البداية من ألد أعداء السيد ، يستعين بسانشو راميرز ملك أراجون ، ورامون برنجير أمير برشلونة .

ووقعت أول معركة بين قوات الأخوين عند قلعة المنار على مقربة من لاردة، وكان المؤتمن قد حصن هذه القلعة ، وشحنها بالمقاتلة ، ولما شعر أخوه المنذر بخطرها على أملاكه سار فى قوة مشتركة من حلفائه ، أمير برشلونة وبعض صغار الأمراء الإفرنج فى شمال قطلونية ، وحاصر هذه القلعة ، فسار المؤتمن والسيد فى قواتهما لإنجادها ، ووقعت بين الفريقين معركة هزم فيها المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون برنجير (١٠٨٢ م) .

ووقع فى ذلك الحين حادث كاد يقطع السيد من جرائه علائقه ببلاط سرقسطة. ذلك أن حاكم قلعة روطة التى كان معتقلا بها المظفر ، اعتزم الخروج والثورة بالتفاهم مع سجينه ، وأرسل إلى ألفونسو ملك قشتالة يطالب عونه ويعده بتسليم القلعة ، فسار ألفونسو إلى روطة فى بعض قواته ، وكان المظفر قد توفى عندئذ فجأة ، فعدل الحاكم عن مشروعه واعتزم أمراً آخر ، وبعث ألفونسو بعض أكابر ضباطه ، وعلى رأسهم الإنفانت راميرو أمير نافار لتسلم القلعة ، وما كادوا يجوزون إلى الداخل، حتى انهال عليهم وابل من الصخور ، فقتلوا جميعاً (١٠٨٢م) وعاد ألفونسو ، وهو يضطرم أسى وتحرقاً إلى الانتقام .

وكان السيد عندئذ فى تطيلة ، فلما وقف على هذا الحادث المحزن ، هرع فى صحبه إلى ألفونسو يقدم عزاءه، ويلتمس العفو ، والإذن بالعود ، فعفا عنه الملك وصحبه معه إلى قشتالة . ولكن مقامه بها لم يطل . ذلك أن ألفونسو عادت إليه هواجسه القديمة نحو السيد ، وشعر السيد بتغيره عليه ، فغادر قشتالة وعاد إلى سرقسطة ، واستقبله المؤتمن بترحاب ومودة . ويحاول الأستاذ بيدال أن يستدل بتصرف السيد فى هذا الحادث على أنه لم يكن فى خدماته لبلاط سرقسطة جندياً أجيراً ، وإنما كانت هذه الخدمات بالعكس نوعاً من السياسة والتدخل على الطريقة القشتالية(١) .

وعاد السيد إلى مهمته القديمة فى محاربة أعداء المؤتمن ، وخرج مع المؤتمن فى قواته ، وعاثا فى أراضى أراجون ، ثم عادا إلى حصن مونتشون . ورد سانشو راميرز ملك أراجون على ذلك بالاستيلاء على جرادوس. وغيرها من حصون الحدود (ابريل ١٠٨٣ م) . ثم تحالف المنذر أخو المؤتمن مع سانشو راميرز ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid; p. 290

وسارا فى قواتهما لمحاربة السيد ، والتقى الفريقان فى أحواز موريلا على مقربة من طرطوشة ؛ فهزم المنذر وحليفه، واستولى السيد على معسكرهما، وعلى كثير من الأسرى . واستقبل السيد عند عوده المظفر إلى سرقسطة أحفل استقبال .

وعلا شأن السيد فى بلاط سرقسطة،وتوطدت مكانته ، واشتد نفوذه على المؤتمن . فكان لايبرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته ؛ وغدا بجيشه الصغير قوة يحسب حسابها ،بل غدا كأنه يفرض بحلفه ومعاونته على سرقسطة نوعاً من الحماية . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار مملكة بلنسية إلى هذه المكانةالممتازة التى أحرزها السيد فى بلاط سرقسطة ، وإلى الحملة اللاذعة التى شهرها ابن بسام من أجل ذلك على بنى هود[(١)] ، كما أشرنا إلى ماكان يجيش به المؤتمن من الأطماع نحو مملكة بلنسية، وما قدمه من المال إلى ملك قشتالة لأجل معاونته فى هذا المشروع وكيف استطاع أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية بلباقته أن يحبط هذا المشروع وأن يعقد صلات الود والمصاهرة مع المؤتمن بتزويج ابنته من ولد المؤتمن ، أحمد المستعين .

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وكانت وفاته السريعة ضربة قاضية لمشاريعه ، فخلفه فى حكم سرقسطة وأعمالها ، ولده أحمد ، وتلقب بالمستعين ، وبقى الشق الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمه المنذر .

وقد اشتهر يوسف المؤتمن بصفاته العلمية ، أكثر من اشتهاره بصفاته الملوكية فكان مثل أبيه المقتدر عالماً رياضياً، وفلكياً ممتازاً، وكتب فى العلوم الرياضية ، رسالته المسماة « الإستكمال »[(٢)] ، التى ترجمت إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى، والتى توصف بأنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجسطى. بيد أن هذه الرسالة الملوكية لم تصل إلينا مع الأسف بأصلها العربى.

خلف المؤتمن ولده أحمد المستعين ،ويعرف بالمستعين الأصغر . وما كاد يبدأ حكمه حتى ألفى نفسه أمام حدث خطير . ذلك أن ألفونسو السادس ماكاد ينتهى من الاستيلاء على طليطلة وتنظيم شئونها، وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥م)

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ١٨ ب .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ .

حتى اعتزم العمل لانتزاع سرقسطة ، فسار إليها فى قواته ، وضرب حولها الحصار ، وأقسم أنه لن يبرحها حتى تؤول إليه أو يموت .وحاول المستعين أن يرده عن عزمه ، وأن يقنعه برفع الحصار ، فعرض عليه أموالا جليلة فرفض ألفونسو ، وأصر على أخذ المدينة(١) ، وأذاع عماله فى سكان الأراضى المجاورة أنه سوف يطبق أحكام القرآن ، ولن يقتضى منهم من الضرائب إلا ما يجيزه الشرع ،وأنهم سوف يكونون مثل إخوانهم مسلمى طليطلة موضع عنايته ورعايته. واستمر ألفونسو على حصار سرقسطة حتى جاءته الأنباء فى أواخر صيف ١٠٨٦م (أوائل ٤٧٩ هـ) بمقدم المرابطين ، وأنهم عبروا إلى الأندلس ،فحاول عندئذ خديعة المستعين ، معتقداً أنه لم يعلم بالنبأ العظيم ، وبعث إليه يقول إنه يقبل الجزية التى عرضها ، فأجاب المستعين ، وكان على علم به ، أنه لن يدفع إليه درهما واحداً (٢) .

وعندئذ اضطر ألفونسو أن يرفع الحصار ، وأن يهرع فى قواته إلى الجنوب، بعد أن بعث بصريخه إلى أمراء الثغر النصارى ليلحقوا به فى قواتهم .

ثم كانت واقعة الزلاّقة ، وهزيمة ألفونسو الساحقة ، أمام القوات المرابطية والأندلسية المتحدة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ (أكتوبر ١٠٨٦) ، فضعف أمر قشتالة والملوك النصارى ، وانصرف المستعين حينا إلى محاربة عمه المنذر صاحب لاردة ودانية طوراً ، ومحاربة ملك أراجون طورا آخر . بيد أنه لم يظفر من وراء هذه المعارك بطائل ، وكانت الهزيمة نصيبه فى معظم الأحيان .

وأخذ المستعين بعد ذلك يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية ، منافساً فى ذلك لعمه المنذر . وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار بلنسية مشاريع المستعين ومحاولاته فى هذا السبيل ، ومغامرات حليفه « السيد » ، وكيف تظاهر فى البداية بمعاونته على تحقيق مشروعه ، ثم أضناه بعد ذلك بمخادعاته وأساليب غدره ، وكيف حاول بعد ذلك أن يستعين بمحالفة برنجير كونت برشلونة على محاصرة بلنسية وأخذها ، وقد فشلت أيضاً هذه المحاولة ، وانتهى الأمر بأن غدا السيد وحده هو المسيطر على هذا الميدان، وهو المستأثر بتتبع الحوادث فى بلنسية ، وترقب فرص الاستيلاء عليها ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً .

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ .

(٢) R. M. Pidal : ibid; p. 331

وماكاد المستعين ينتهى من هذه المشاريع الفاشلة ، حتى بدا الخطر على مملكة سرقسطة داهماً من ناحيتين : ناحية جيرانها النصارى من الشمال، وناحية المرابطين من الجنوب . فأما عن الشمال ، فقد بدأ سانشو راميرز ملك أراجون بالاستيلاء على منتشون فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، واضطر المستعين عندئذ أن ينضوى تحت حماية ألفونسو ملك قشتالة ، وأن يتعهد بأداء الجزية التى أباها من قبل . ولم تمض بضعة أعوام على ذلك حتى بدت مشاريع ملك أراجون أكثر خطورة . وذلك أنه قصد إلى مدينة وشقة ، وهى ثانى مدينة فى مملكة سرقسطة ، وابتنى إزاءها حصناً ، وكان من الواضح أنه يبغى الاستيلاء على هذه المدينة الهامة . والظاهر أن المستعين قد أدرك عندئذ أن الاعتماد على معاونة النصارى لايحقق له ما يطمح إليه من السلامة ، ورأى أن الاتجاه إلى معاونة المرابطين وهم أبناء دينه قد يغدو أنجع ، ولو أنه كان يتوجس من نياتهم ومشاريعهم نحو سرقسطة . ومن ثم فقد أرسل ولده عبد الملك إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمغرب ومعه هدية جليلة ، وبعث إليه يطلب العون والإنجاد على مدافعة النصارى ، وإنقاذ وشقة ، وهى جناح سرقسطة الدفاعى ، ودرعها من الشمال . والظاهر أن أمير المسلمين قد أدرك من جانبه أهمية الاستجابة لصريخ المستعين ، ومنعه بذلك من الارتماء فى أحضان النصارى ومحالفتهم فى النهاية ضد المرابطين ، وأدرك فى نفس الوقت حكمة الإبقاء على سرقسطة وإنجادها لتبقى بذلك حاجزاً بين المرابطين وبين النصارى ، فاستقبل عبد الملك بترحاب ، وصرفه صرفاً جميلا ، ورد على المستعين بخطاب رقيق ، وبعث إلى ولاته فى شرق الأندلس بإرسال المدد المنشود ، وكان يتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل من المرابطين . ولم ير المستعين فى نفس الوقت بأساً من الاستعانة بملك قشتالة ، فأمده بفرقة من جنده بقيادة الكونت غرسية أردونس الذى تجاور ولايته مملكة سرقسطة .

وفى تلك الأثناء كان سانشو راميرز قد سار إلى مدينة وشقة وضرب حولها الحصار ، مصمماً على ألا يبرحها حتى تسقط فى يده . وكانت وشقة من أمنع قلاع الثغر الأعلى ، فصمدت للحصار بعزم وشدة ، ثم توفى سانشو راميرز فجأة، وذلك فى شهر يونيه سنة ١٠٩٤م (جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ) ، فاستمر فى متابعة الحصار ولده بيدرو الأول . وتوالت الأشهر ، ووشقة صامدة كالصخرة .

وبعث أهل وشقة فى نفس الوقت بصريخهم إلى ملكهم أحمد بن هود المستعين ، فجهز حشودا عظيمة ، وأعد لها قوافل المبرة الضخمة ، وأمده حليفه ملك قشتالة بفرقة من الجند النصارى ، وسار المستعين فى قواته حتى اقترب من وشقة ، وكان يظن أن العدو متى رأى حشوده ، وآنس وفرتها وحسن استعدادها ، يعمد إلى المهادنة ويترك المدينة المحصورة وشأنها ، ولكن پيدرو عول بالعكس على خوض المعركة ، فترك الحصار ، وسار فى قواته لملاقاة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، فى « الكرازة » الواقعة على مقربة من وشقة ، استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها ، واشتد فيها الطعان من الجانبين ، وكثر القتل بين المسلمين وحلفائهم ، وهزم المستعين فى النهاية هزيمة شديدة ، وقتل من المسلمين عدد جم تقدره الرواية باثنتى عشر ألفا أو نحوها ، وكان بين القتلى غرسية أردونس قائد جند قشتالة ، وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه المعركة فى يوم الأربعاء أواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٦ م ، وهو يوافق بالفعل شهر ذى القعدة ، الذى تحدده الرواية الإسلامية . وتقول الرواية الإسلامية ، إن أهل وشقة لما عاينوا هزيمة المسلمين ، يئسوا من النصرة ، والإنقاذ ، ولم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان . وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهراً ، ودخلها پيدرو فى موكبه الظافر ، وفى الحال صير مسجدها الجامع كنيسة ، وجعلها عاصمة لمملكة أراجون(١)

هذا عن حوادث الشمال ، وأما عن حوادث الجنوب ، فقد عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وقام بالاشتراك مع قوات الأندلس بمحاصرة حصن لييط ، وانتهى بالاستيلاء عليه . ثم عاد فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وفى تلك المرة استولى على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية ، غرناطة ، وإشبيلية ، والمرية ، ثم

---

(١) نقلنا أقوال الرواية الإسلامية عن معركة وشقه من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس . وراجع فى حوادث سقوط وشقة وما تقدمها : أعمال الأعلام ص ١٧٣ ، والحلل الموشية ص ٥٣ — ٥٥ ، وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبد الله عنان (ص ١٠٤ و ١٠٥) وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع أيضاً : P. y Vives Los Reyes de Taifas p. 49 و R. M. Pidal : ibid, p. 526 & 527

بطليوس ، واستولت الجنود المرابطية كذلك على مرسية ، وأوريولة . كل ذلك فيما بين سنتى ٤٨٤ و٤٨٨ هـ . وفى أثناء ذلك كان المنذر بن هود صاحب لاردة ودانية ، قد توفى فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وخلفه فى الملك ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، تحت وصاية بنى بيطر وهى أسرة قوية ذات نفوذ . وفى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) سار جيش مرابطى بقيادة الأمير ابن عائشة ، واستولى على دانية . وشاطبة وشقورة . والظاهر أنه استولى أيضاً على طرطوشة ولاردة بعد ذلك بقليل .

وهنا شعر المستعين بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، فاتجه إلى حليفه القديم السيد إلكمبيادور ، واستغاث به ، وكان السيد قد غدا يومئذ قوة يحسب حسابها فى شرقى الأندلس ، وأضحى من جانبه يشعر بنفس الخطر : أى خطر المرابطين على مركزه فى تلك المنطقة . فاستجاب إلى دعوة المستعين ، وعقد بينهما حلف جديد ، وسار السيد بقواته إلى سرقسطة ، وعسكر على ضفة النهر الأخرى ، وهنالك عقد حلفاً آخر مع ملكى أراجون وناڤار . وكان الغرض من عقد هذه المحالفات كلها ، التعاون لدفع خطر المرابطين عن هذا الركن من شبه الجزيرة .

ونحن نعرف أن السيد قد عاد بعد ذلك إلى الجنوب ، واستمر فى مغامراته فى منطقة بلنسية ، حتى تم له الاستيلاء عليها فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيه ١٠٩٤ م) ، وأن الجيوش المرابطية لبثت تتحين الفرص لاسترداد هذا الثغر الإسلامى العظيم ، حتى تم لها تحقيق مشروعها ، ودخلت بلنسية بقيادة الأمير أبى محمد المزدلى فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) .

وكانت حوادث الشمال قد تطورت فى تلك الأثناء ، وظهرت نيات سانشو راميرز ملك أراجون واضحة نحو القضاء على مملكة سرقسطة ، وبدأ حصاره لمدينة وشقة ، وكان المستعين من جهة أخرى قد أدرك أنه لا يستطيع الاعتماد على محالفة السيد وعونه ، ولاسيما بعد استيلائه على بلنسية ، وانشغاله بالمحافظة عليها ، والدفاع عنها ، فاتجه إلى المرابطين : وبعث ولده عبد الملك إلى المغرب يطلب العون من أمير المسلمين ، حسبما فصلنا من قبل . وقد رأينا كيف هزم المستعين وسقطت وشقة بالرغم مما تلقاه المستعين من عون حلفائه .

يقول ابن عذارى ، إنه على أثر سقوط مدينة وشقة « سما بصر العدو إلى منازلة سرقسطة ، حضرة ابن هود ، فخاطب الطاغية ، أذفونش بن فرذلند

(ألفونسو السادس) فواطأه على منازلتها ، فنزل عليها فى جموع لا ترام، فجعل صاحبها يصعد ويصوب فى إعمال الحيلة ، وتجنيب تلك الجماعة ، ورام تخذيل الأذفونش، فأرغبه فى المال فأبى وأقسم ألا يبرح عنها حتى يدخلها »(١) . ولكنا لم نجد فى الرواية النصرانية مايؤيد أن ملك قشتالة قام فى هذا التاريخ (سنة ١٠٩٧ م — ٤٩٠ ﻫ) بمهاجمة سرقسطة أو حصارها .

والواقع أن المستعين أخذ يشعر من ذلك الحين بأن مصير سرقسطة قد أضحى رهناً بخطط المرابطين وغاياتهم ، ولاسيما بعد أن أصبحوا على مقربة من أراضيه ، ومن ثم فقد رأى فى النهاية أن يستبقى مودتهم ، وأن يستمر فى التقرب منهم ، والتماس عونهم وحمايتهم .وفى سبيل هذه الغاية بعث ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين مرة أخرى (٤٩٦ ﻫ) ، ومعه هدية جليلة من جملتها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة . وكان أمير المسلمين يومئذ بقرطبة ، يعد العدة لإعلان البيعة لولده على بولاية عهده . فقبل الهدية، وأمر بأن تضرب هذه الآنية الفضية قراريط مرابطية، فرقت فى أطباق على رؤساء قومه ليلة عيد الأضحى ، وحضر عبد الملك حفل البيعة ، ثم عاد إلى سرقسطة(٢) .

وشعر المستعين بشىء من الطمأنينة ، واعتزم أن يخصص جهوده لمقارعة ملك أراجون ومشاريعه العدوانية ، وكان پيدور ملك أراجون قد توفى يومئذ وخلفه فى الملك أخوه ألفونسو الذى عرف فيما بعد بالمحارب . وهو الذى تسميه الرواية الإسلامية «بابن ردمير» . وكان أميراً مقداما شديد البأس. ولم يكن قد بقى من قواعد مملكة سرقسطة الهامة بعد وشقة ، سوى مدينة تطيلة ، فسار إليها فى قواته، وخف المستعين لإنجادها . ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلد تدعى بلتيرة (ڤالتيرا) ، فهزم المسلمون ، وقتل المستعين ، وذلك فى رجب سنة ٥٠٣ ﻫ (يناير سنة ١١١٠ م)(٣) .

---

(١) هذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة من البيان المغرب التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٥ ، والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٤٠ ؛ وكذلك P. y Vives : Los Reyes de Taifas p. 49 . ويورد ابن الخطيب هذه الواقعة بصورة أخرى فيقول لنا إن المستعين خرج إلى الجهاد فى سنة ٥٠١ ﻫ ، وتوغل حتى تطيلة وأرنيط (أرنيدو) وافتتحها ، ثم أدركه النصارى عند العودة وهاجموه بشدة ، فهزم وقتل (أعمال الأعلام ص ١٧٤) .

فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وبايعه أهل سرقسطة على شرط أن يترك محالفة النصارى ، وأن يخرجهم من جيشه ، وتعهد لهم عبد الملك بتحقيق رغبتهم ، ولكنه لم ينفذ وعده . وكانت الحوادث تسير عندئذ بسرعة ، وحسن الطالع يؤاتى المرابطين تباعاً ، ولاسيما مذ أحرزوا نصرهم الحاسم بقيادة الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين على جيوش قشتالة فى موقعة إقليش فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) ، وهى الموقعة التى أبيدت فيها القوات القشتالية ، وقتل الإنفانت الطفل سانشو ولد ألفونسو السادس من حظيته زائدة الأندلسية . ولما رأى أهل سرقسطة أن أميرهم عماد الدولة لايستجيب إلى شروطهم بتسريح قواته من النصارى ، كتبوا إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، وهو فى مراكش ، يناشدونه خلع بنى هود ، وتسلم سرقسطة ، فاستفتى على فقهاءه ، فأفتوه بوجوب تحقيق هذه الرغبة ، وبعث إلى قائده محمد بن الحاج والى بلنسية ، أن يسير إلى سرقسطة. ولما علم عماد الدولة بذلك ، أرسل إلى أمير المسلمين خطاباً مؤثراً يستصرخه فيه ، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة ، وأنه لم يصدر منه فى حقه أية إساءة ، وأنه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجراً بينه وبين النصارى ، فرق على لملتمسه ، وكتب إلى قائده أن يكف عنه[١] . ولكن الأمر كان قد قضى عندئذ . ذلك أن عماد الدولة لما شعر بمقدم المرابطين ، غادر سرقسطة فى أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع ، واستقر به ينتظر الحوادث[٢] . وفى رواية أخرى أن ابن الحاج حينما زحف على سرقسطة ، تأهب عبد الملك لمقاومته ، واستنصر بألفونسو ملك أراجون ، وأنه وقع بين الفريقين قتال هزم فيه ابن الحاج وقتل ، ثم إن أهل سرقسطة أخرجوا عبد الملك ، واستدعوا عامل أمير المسلمين ، فاستولى على سرقسطة وذلك فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ[٣] . وفى روض القرطاس أن ابن الحاج سار من بلنسية إلى سرقسطة ، ودخلها فى سنة ٥٠٢ هـ ، وأخرج منها بنى هود وملكها[٤] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٢ .

(٢) راجع : Dozy : Histoire, Vol. III. p. 154

(٣) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٧٥ .

(٤) روض القرطاس ص ١٠٤ .

وهكذا انتهى حكم بنى هود فى سرقسطة ، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عاماً ، منذ انتزع عميدهم ومؤسس دولتهم سليمان بن هود الحكم من آل تجيب فى سنة ٤٣٠ هـ . وقد عاشت ولاية سرقسطة أو الثغر الأعلى فى الواقع ، كوحدة سياسية وعسكرية مستقلة عن الحكومة المركزية أكثر من قرنين ، إذا احتسبنا عهد بنى تجيب بها . وهكذا كانت سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين . وتاريخها فى الأعوام القليلة القادمة حتى سقوطها فى يد ألفونسو الأول ملك أراجون فى سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) يرتبط بتاريخ المرابطين.

على أن سقوط سرقسطة، لم يكن آخر العهد ببنى هود . ذلك أن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين ، استقر بقاعدة روطة الحصينة(١) ، الواقعة على نهر خالون أحد أفرع إبرُه « الإيبرو » الجنوبية . وكان بنو هود قد أعدوا هذه القاعدة وحصنوها ، وزودوها بالأبنية الفخمة ، لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى، كلما نزلت بهم نازلة . واستمر عماد الدولة مقيما بروطة ، وهو يشهد الصراع المضطرم بين المرابطين والنصارى حول امتلاك سرقسطة . فلما سقطت فى يد النصارى وضع نفسه تحت حماية سيدها الجديد ألفونسو ملك أراجون (ابن رذمير) واستمر على حاله ، حتى توفى بروطة فى شعبان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠ م) . فخلفه فى الإمارة ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الملك وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله، وكذلك بالمستعين بالله ، واستدر فى حكمه لروطة ، وما حولها من الحصون والأراضى ، حتى جمله ألفونسو ريموندیز ملك قشتالة ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بأدفونش بن رمند وبالسليطين ، على التنازل عنها ، وعوضه عنها بقسم من مدينة طليطلة ، نزل فيه بأهله وأمواله ، أوببعض أملاك بجوار طليطلة أقطعه إياها ، وذلك فى سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م)(٢) ، وهى حوادث نستوفيها فيما بعد فى تاريخ المرابطين فى شبه الجزيره.

* * *

(١) هى بالإسبانية Rueda

(٢) هذه هى رواية ابن الأبار فى الحلة السيراء ، ص ٢٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وروايته مضطربة تنقصها الدقة سواء فى الوقائع أو التواريخ . ويضع ابن الأثير تاريخ تسليم المستنصر بالله حصن روطة فى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) (ج ١١ ص ١٣) . راجع كذلك : P. y Vives : ibid; p. 50

وقد كانت سرقسطة فى عهد بنى هود، كما كانت إشبيلية فى عهد بنى عباد، مركزاً لحركة علمية وأدبية زاهرة، وكان بنو هود من حماة العلوم والآداب، وقد نبغ بعضهم فى ميدان التفكير، ولاسيما أبو جعفر المقتدر، وولده يوسف المؤتمن، وقد كان كلاهما من أكابر علماء عصره، فى الفلسفة والرياضة والفلك، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد اشتهرت سرقسطة فى هذا العصر بنوع خاص، أعنى فى القرن الحادى عشر الميلادى بالدراسات الفلسفية والرياضية. وكان من أعلام أبنائها فى هذا العصر، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام وعلمائه، هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة، والذى يعرف فى الغرب باسمه اللاتينى Avempace. وقد نشأ ابن باجة فى أواخر القرن الحادى عشر بسرقسطة ودرس بها، وعاش فيها حتى مطلع شبابه قبل أن تسقط فى أيدى الإسبان ونبغ فى الرياضة و الفلك و الطبيعة و الفلسفة، هذا فضلا عن براعته فى الشعر و الأدب. ولما ولى الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى حكم سرقسطة من قبل المرابطين، ندب ابن باجة لوزارته، واختص به، وأغدق عليه عطفه ورعايته، بالرغم مما كان يرمى به الفيلسوف من الميول والآراء الإلحادية. ولما سقطت سرقسطة فى أيدى الإسبان (١١١٨ م) غادرها ابن باجة إلى إشبيلية، ثم إلى شاطبة، ثم نزح من الأندلس إلى المغرب، وعاش هناك حتى توفى فى سنة ١١٣٨ م. وقد كتب ابن باجة زهاء خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل، وترك لنا عدداً من القصائد الرصينة الجزلة التى تنم عن روعة خياله ورائق نظمه. وهو يعتبر على العموم من أعظم المفكرين والفلاسفة الأندلسيين، وقد كان لآرائه ونظرياته تأثير كبير فى تفكير الفيلسوف أبى الوليد بن رشد الحفيد[١].

ونبغ فى سرقسطة أيام بنى هود فى عهد المستعين بن المؤتمن، المفكر والفيلسوف السياسى أبو بكر الطرطوشى، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك» الذى يعتبر بموضوعه ونظرياته المبتكرة، من الكتب التى وضعت أسس السياسة الملوكية فى التفكير الإسلامى. ويشير ابن خلدون إلى هذا الكتاب فى مقدمته ويعتبره من الكتب التى سبقته فى موضوعه[٢]. وقد وضع الطرطوشى كتابه أثناء إقامته بمصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، وأهداه

(١) راجع الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٤١٤ – ٤١٦.

(٢) ابن خلدون فى المقدمة (بولاق) ص ٣٣.

فى مقدمته إلى خلفه المأمون البطائحى ، وتأثر فى كتابته بتفكير فيلسوف العصر ، العلامة ابن حزم القرطبي ، وتوفى الطرطوشى بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .

وقد أوحت ظروف مملكة سرقسطة وأحوالها السياسية والاجتماعية يومئذ ، إلى الطرطوشى بكثير من نظرياته الاجتماعية ، ومنها نظرية عصبية الدولة ، فإن الطرطوشى يرى أن عصبية الدولة أو قوتها الحامية، إنما تقوم « على الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة » أى الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر. ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ، ويقول إنها لاتنطبق على الدول فى أولها ، وإنما تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد واستقرار الملك ، واستحكام الصبغة لأهله ، وأن الطرطوشى قد أدرك الدولة الهودية عند هرمها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة، وأدرك دول الطوائف ، وذلك عند اختلال الدولة الأموية ، وانقراض عصبيتها من العرب ، واستبداد كل أمير بقطره ، وعاش فى ظل المستعين بن هود بسرقسطة ، ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شىء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره ، وقد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة ، وبقية العصبية ، فهو يستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة(١) . والظاهر أن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً بما شهده من اعتماد بنى هود فى حماية ملكهم على معاونة الجند النصارى ، ولاسيما أيام السيد إلكمبيادور ، وسعيهم إلى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها . وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن كثير من ملوك الطوائف الآخرين ، حسبما ذكرنا فى أخبارهم .

وكانت سرقسطة إلى جانب كونها مركزاً للعلوم الرياضية والفلسفية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، كباقى عواصم الطوائف الأخرى ، مركزاً لحركة أدبية قوية ، وقد نبغ بها فى ذلك العصر كثير من الأدباء والشعراء مثل ابن الدباغ ، وابن حسداى ، وأبى عمر بن القلاس ، وغيرهم ، ممن ذكرهم صاحب الذخيرة ، وأورد لنا الكثير من نظمهم ورسائلهم .

---

(١) راجع سراج الملوك للطرطوشى (القاهرة ١٩٣٥) ص ٢٢٩ و ٢٣١ ، ومقدمة ابن خلدون (بولاق) ص ١٣٠ و ١٣١ . وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 284 & 285

ولعبت سرقسطة بالأخص دوراً كبيراً فى التبادل الثقافى والحضارى بين الأندلس وبين الدول الإسبانية المجاورة ، والدول الفرنجية الشمالية ، وقد هيأ لها موقعها بين الممالك الإسبانية على مقربة من جبال البرنيه ، أن تضطلع بهذا الدور الحضارى الخطير . ومما هو جدير بالذكر أنها كانت فى ذلك العصر ، مهبط الفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون فى بنى هود وفى بلاطها الباذخ ، ساحة رحبة ، وكانت مركزاً لأشعار الفروسية والشعر الغنائى ، الذى كان ينتشر يومئذ فى أرجاء قطلونية وأراجون ونافار ، ومنها كانت تنقل المقطوعات الغنائية الأندلسية إلى المجتمعات النصرانية المجاورة ، فتؤثر فى الملاحم والأناشيد القومية . وقد انتقلت هذه المؤثرات ، فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنيه إلى جنوبى فرنسا ، ثم إلى غيرها من المجتمعات النصرانية .

ويجب أخيراً ألا ننسى دور سرقسطة المسلمة ، فى ترويج التبادل التجارى والمهنى بين الشرق والغرب ، فقد كانت مملكة سرقسطة بسيطرتها على جزء كبير من البحر المتوسط ، وثغريها الكبيرين طركونة ، وطرطوشة ، تستقبل شطراً كبيراً من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب ، وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوربية عن طريق ثغور فرنسا الجنوبية ، وثغور إيطاليا . وكان بنوهود يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، سواء من المكوس أو الوساطة التجارية ،وقد كانوا فى الواقع من أغنى ملوك عصرهم ، وكان بلاطهم من أفخم قصور الطوائف ، وأكثرها روعة وبذخاً ، وإن لم تكن لهم شهرة فى الجود والبذل ، وقد استطاعوا بهذا الغنى الطائل ، أن يجتذبوا الفرسان والمرتزقة النصارى لخدمة سياستهم ، واستطاعوا بدفع الإتاوات الوفيرة للملوك النصارى ، أن يتقوا عدوانهم أطول وقت ممكن ، ومن ثم فقد لبثت سرقسطة عصراً طويلا بمنجاة من تلك الغزوات المخربة ، التى كانت تنكب بها دول الطوائف الأخرى .

الكتاب السادس

موقعة الزلاّقة والفتح المرابطي

الفصل الأول

نشـــأة المرابطين

وقيام الدولة المرابطيـــة بالمغرب

أصل المرابطين . قبيلة لمتونة وحياتها فى القفر . دخولها فى الإسلام . أول ملوكها . افتراق كلمتها . الأمير ابن تيفاوت اللمتونى . مصرعه وقيام الأمير يحيى الجدالى مكانه . رحيله إلى المشرق . لقاؤه بالفقيه أبى عمران الفاسى . عبد الله بن ياسين . رحيله مع الأمير إلى الصحراء . بثه لتعاليم الإسلام بين أهلها . صرامته وانصرافهم عنه . مغادرته لهم مع أصحابه وانقطاعه للعبادة . وفود أعيان صنهاجة إليه . قيام جماعة المرابطين . أطماع عبد الله الدفينة . تكاثر تلاميذه . يدعوهم إلى الجهاد . دعوته إلى اتباع أحكام الدين . مقاتلته لقبائل صنهاجة وإخضاعها . سلطانه الروحى على القبائل . يحيى بن ابراهيم الكدالى يتولى السلطة الزمنية . وفاته وقيام يحيى بن عمر اللمتونى مكانه . ورعه وفتوحه فى الصحراء . صدى حركة المرابطين فى المغرب . أحوال المغرب فى ذلك العهد . استدعاء فقهاء درعة وسجلماسة للمرابطين . مسير المرابطين إلى درعة والاستيلاء عليها . استيلاؤهم على سجلماسة . عبد الله بن ياسين يأمر بازالة المنكرات . وفاة الأمير يحيى وقيام أخيه أبى بكر مكانه . مسير المرابطين إلى بلاد السوس . يوسف بن تاشفين يقود الجيش . افتتاحه لقواعد السوس . الطائفة البجلية وسحقها . مسير المرابطين إلى الأطلس . افتتاحهم لأغمات . استيلاؤهم على تادلا . قبائل برغواطة ومذهبها الوثنى . مطاردتهم ومحاربتهم على يد بلكين بن زيرى والفتى واضح . مسير المرابطين لقتالهم . إصابة عبد الله بن ياسين ووفاته . قيام أبى بكر اللمتونى مكانه . بدء الدولة المرابطية . متابعة حرب برغواطة . افتتاح مكناسة ولواتة . أنباء الخلاف فى الصحراء . أبو بكر يندب يوسف بن تاشفين للرياسة ويسير إلى الصحراء . تقسيم القوات المرابطية بين الزعيمين . أبو بكر يصلح شئون الصحراء . يوسف بن تاشفين ينظم افتتاح باقى المغرب . نجاحه واشتداد بأسه . اختطاطه لمدينة مراكش حاضرة المغرب . تنظيم يوسف للجيش . افتتاحه لمدينة فاس . مسيره إلى بلاد غمارة . فقد فاس واستردادها . عود أبى بكر من الصحراء إلى المغرب . تأثره بعظمة شأن يوسف وضخامة ملكه . لقاء الرجلين . زينب زوجة يوسف ودورها فى ذلك . انصراف أبى بكر إلى الصحراء . يوسف يتم فتح المغرب . افتتاحه لطنجة . افتتاحه للمغرب الأوسط . قيام الدولة المرابطية الكبرى . يوسف بن تاشفين . نشأته وخلاله . يحكم أعظم إمبراطورية إسلامية فى الغرب . ألقابه وانضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يوسف وشئون الأندلس . صريخ ملوك الطوائف إليه . ظروف هذا الصريخ واختلاف الرواية فى شأنه . أصل الفكرة ومبعثها . الإعتراض عليها . سقوط طليطلة وأثره فى إذكائها . سفارة الأندلس إلى يوسف . العهود المتبادلة . مطالبة يوسف بثغر الجزيرة . يوسف يلبى نداء الطوائف . مسير الجيوش المرابطية إلى سبتة . جوازها إلى شبه الجزيرة . دعاء يوسف خلال الجواز .

يجدر بنا أن نقف الآن قليلا لنلقى بعض الضوء على أصل أولئك المرابطين، الذين شملت دولتهم الكبرى، فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، سائر أنحاء المغرب من لوبية إلى المحيط غرباً، وإلى السودان جنوباً، والذين استجابوا إلى صريخ ملوك الطوائف، وعبروا البحر إلى شبه الجزيرة الإسبانية نصرة للإسلام وبنيه.

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة، أعظم القبائل البربرية، وهى بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى. وينتمى إلى صنهاجة، عدا لمتونة، عدد كبير من القبائل البربرية مثل مسوفة، ومسراتة، ومداسة، وكدالة، ووتريكة، ولمطة وغيرها. وقد لعب الكثير منها فى تاريخ المغرب أدواراً ملحوظة. وفى بعض الروايات أن صنهاجة، وهى الأم الكبرى لهذه القبائل ترجع نسبتها إلى العرب اليمانية، وأنها فخذ من ولد عبدشمس ابن وائل بن حمير، وهى كسائر الروايات المماثلة فى أنساب البطون البربرية رواية ضعيفة، تقوم على القصص والأسطورة(١).

وكانت لمتونة تسكن منذ عصور بعيدة قبل الإسلام فى قلب الصحراء، ما بين جنوبى المغرب والسودان، فى تلك المنطقة التى كانت تسمى منذ أيام الرومان إقليم «موريتانيا». وكانت تؤثر حياة القفر على أية حياة أخرى «انتباذاً عن العمران، واستئناساً بالانفراد، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر»، وكانوا يعتمدون فى قوتهم على لحم الإبل ولبنها، ولايعرفون حرثاً ولاثماراً، ولا يأكلون الخبز(٢). وكان شعارهم «اللثام» ومن ثم فقد عرفوا «بالملثمين». وقيل فى سبب ذلك إنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال(٣)، وقيل بل كانوا يقلدون فى ذلك قبيلة حمير التى يدعون الانتساب إليها.

وذكر لنا أبوعبيد البكرى، فى معجمه «المسالك والممالك»، فيما يتعلق بأمر اللثام الذى يلتزمه المرابطون، أن جميع قبائل الصحراء يلتزمون، النقاب، وهو

(١) راجع روض القرطاس ص ٧٥.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١، وروض القرطاس ص ٧٦.

(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (١٣٠٦هـ) ج ١ ص ٩٨ و ٩٩.

فوق اللثام ، حتى لايبدو منه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك فى حال من الأحوال ، ولا يميز رجل من وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب . وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل ، ونزل قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم ،وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم(١)

وكانت لمتونة ، كسائر القبائل البربرية ، تدين بالمجوسية ، واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس ، وبدأت رياستهم من ذلك الحين تتخذ نوعاً من الملك . وفى أيام عبد الرحمن الداخل ، أعنى فى أواسط القرن الثانى الهجرى ، كان ملكهم يدعى تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى اللمتونى ، فبسط سلطانه على سائر نواحى الصحراء ، وحارب القبائل الوثنية ، ونشر الإسلام بين كثير منها ، وفرض الجزية على سائر ملوك السودان المجاورين ، وكانت مملكته بالصحراء مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها .ولما توفى فى سنة ٢٢٢ هـ ، خلفه فى الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان(٢) ، واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاماً ، حتى وفاته فى سنة ٢٨٧ هـ ، فخلفه ولده تميم ، واستمر فى الحكم إلى أن ثار عليه فى سنة ٣٠٦ هـ أشياخ قبيلة صنهاجة وقتلوه . وعندئذ افترقت كلمة الجماعة ، وانقسموا شيعاً ، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاماً ، إلى أن قام فيهم الأمير أبوعبد الله محمد بن تيفاوت اللمتونى المعروف بتارسنا ، فالتفوا حوله ، واجتمعوا على رياسته . وكان أميراً فاضلا ورعاً ، شغوفاً بالجهاد ، فلم يطل أمد حكمه سوى ثلاثة أعوام ، إذ استشهد فى غزوة من غزواته ضد بعض قبائل السودان الوثنية . فولى من بعده صهره الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، زعيم قبيلة جدالة أوكدالة ، وهى شقيقة لمتونة يجمعهما أب واحد ، واستمر على رياسته لصنهاجة ، وقيادتها فى حروبها ضد أعدائها ، حتى سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٥ م)(٣)، ثم استخلف فى الرياسة ولده إبراهيم

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٧٠ .

(٢) وردت هذه التسمية فى روض القرطاس ص ٧٦ . ولكن ابن خلدون يسميه يلتان (ج ٦ ص ١٨٢) .

(٣) هذه رواية ابن أبى زرع (ص ٧٧) ، ويوافقه صاحب الاستقصاء (ج ١ ص ٩٩) ، ولكن ابن خلدون يضع نهاية رياسة يحيى فى سنة ٤٤٠ هـ (ج ٦ ص ١٨٢) .

ابن يحيي ، ورحل إلى المشرق مع طائفة من زعماء قومه، ليقضي فريضة الحج .

والظاهر أيضاً أن يحيي الكدالى كانت تحدوه فى تلك الرحلة مُثُل أخرى، فهو قد رأى ماكان عليه قومه من التأخر والجهل بتعاليم الإسلام وأصوله ، فرحل إلى المشرق يطلب العلم إلى جانب قضاء الفريضة . ولما عاد من المشرق ، عرج فى طريقه على مدينة القيروان ، وهنالك التقى وصحبه بالفقيه أبي عمران الفاسى شيخ المذهب المالكي يومئذ ، وتأثروا بوعظه وعلمه . وشكا إليه يحيي من جهل قومه ، وطلب إليه أن يختار له فقيهاً من تلاميذه ، يتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم الإسلام الصحيحة ، ولما لم يجد أبو عمران من تلاميذه بالقيروان من يقبل تلبية هذه الدعوة ، بعث معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى يدعى أبو محمد واجاج بن زلوا اللمطى ، وكان فقيهاً ورعاً يدرس العلم لتلاميذه فى رباط خاص أنشأه لذلك ، فلما مثل لديه يحيي قرأ خطاب الشيخ أبي عمران على تلاميذه ، فاستجاب للدعوة منهم رجل يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى، وكان من أنبه تلاميذه وأكثرهم علما وورعاً . وكان قد رحل إلى الأندلس ، وأنفق فيها بضع سنين يدرس فى ظل الطوائف ، فزاد علما وتجربة . فسار مع يحيي إلى الصحراء، فاغتبطت بمقدمه لمتونة وكدالة، واستقبلوه بمنتهى الحفاوة والتكريم[1] .

— ١ —

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع ، والغيرة على تعاليم الإسلام ، وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فأخذ يبث تعاليم الدين بين أولئك البدو الصحريين ، ويبصرهم بأحكام الإسلام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . بيد أنه اشتد فى مؤاخذتهم، ومطالبتهم بالإقلاع عن تقاليدهم المنافية للإسلام مثل الزواج بأكثر من أربع ، وكان من الأمور الشائعة بينهم ، وغير ذلك من التقاليد المغرقة ، فأخذوا ينصرفون عنه ، ويعرضون عن تعاليمه ، لما رأوا من صرامته ، وما تكبدهم تعاليمه من المشقة والضيق . وعندئذ عول عبد الله ، وتلميذه وصديقه الوفى يحيي بن ابراهيم ، على انتباذ أولئك البدو الجهلة ، والانقطاع إلى العبادة والزهد ، فى أحد المواضع النائية ، وانضم إليه فى ذلك سبعة نفر من كدالة

(١) روض القرطاس ص ٧٧ و ٧٨ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ . وراجع الحلل الموشية ص ٩ .

ويحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة . ويقول لنا ابن خلدون إن عبد الله ابن ياسين وأصحابه انقطعوا للعبادة فى جزيرة يحيط بها بحر النيل من سائر جهاتها ، وهو قول لا يمكن أن ينصرف إلى نهر النيل المعروف لنا ، لبعد النيل عن صحراء المغرب الجنوبية بمسافات شاسعة ، ولكن تفسير هذا الغموض يرجع إلى أن « نهر النيجر » كان يظن يومئذ أنه امتداد أو فرع لنهر النيل العظيم ، يخترق الأقطار السودانية الغربية . ومن ثم فقد كان نهر النيجر يعرف يومئذ بنهر النيل أو النهر الأعظم ، وبهذا الاسم يسميه الرحالة ابن بطوطة فى أقواله عن رحلته فى مملكة مالى السوداء(١) . وإذاً فإن الموضع الذى انقطع فيه عبدالله بن ياسين وأصحابه للعبادة كان فيما يرجح جزيرة تقع فى منحنى نهر « النيجر » ، على مقربة من تنبكتو ، وهذا ما يؤيده وصف صاحب روض القرطاس(٢) .

وعلى أى حال فقد انقطع عبد الله وصحبه للعبادة فى هذا الموضع ، وابتنوا به رابطة للصلاة والعبادة ، وما لبث أن اشتهر أمره ، ووفد عليه كثير من أشراف صنهاجة ممن آثروا الزهد والعبادة ، فعكف عبد الله على تثقيفهم ووعظهم ، وسماهم « بالمرابطين » للزومهم رابطته ، وأخذ يعلمهم أحكام الكتاب والسنة والصلاة والزكاة ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويشوقهم إلى الجنة ، ويحذرهم عذاب النار ، ويلهب حماستهم للجهاد فى سبيل الله ، ومقاتلة المخالفين لأحكام كتابه . وكان عبد الله بن ياسين ، حسبما أسلفنا واعظاً موهوباً ، وخطيباً ذلقاً مؤثراً ، وكان هذا الفقيه الورع ، يضطرم فى أعماق نفسه بمشاريع وأطماع دفينة أخرى ، غير تلقين أحكام الدين ، وبث الورع والخشوع فى نفوس أصحابه . ذلك أنه ماكاد يرى كثرة تلاميذه — فقد بلغوا الألف عندئذ — ويوقن بولائهم ، وانقيادهم لأوامره ، حتى دعاهم إلى الجهاد بصورة عملية ، وبعثهم إلى أقوامهم ، لينذروهم ، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات ، واتباع أحكام الدين الصحيح ، ففعلوا ما أمروا به ، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ، ومجانبة التقاليد المنافية للدين ، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم ، فخرج إليهم عبد الله ابن ياسين بنفسه ، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم ، وحذرهم عقاب الله ،

(١) راجع رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٧٩ .

ونصحهم باتباع أحكامه ، فلم يلق منهم سوى الإعراض والتحدى، فعندئذ قرر عبد الله وصحبه إعلان الحرب على أولئك المخالفين ، وكان صحبه يزداد عديدهم كل يوم ، حتى بلغوا بضعة آلاف .

وخرج عبدالله بن ياسين لقتال كدالة ، فغزاهم فى نحو ثلاثة آلاف، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسلم الباقون من جديد إسلاماً صحيحاً (٤٣٤ هـ — ١٠٤٢م). ثم سار لقتال لمتونة، وضيق عليهم حتى أذعنوا للطاعة، وبايعوه على الكتاب والسنة . وسار بعد ذلك لقتال مسوفة فحذوا فى الطاعة والبيعة حذو لمتونة. وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجة واحدة بعد الأخرى ، حتى خضعوا جميعاً . وكان من تعاليمه أن يضرب التائب مائة سوط حتى يطهر ، ثم يلقن تعاليم القرآن وأحكام الشرع . وبسط عبد الله بن ياسين سلطانه الروحى على سائر قبائل تلك الصحارى ، وجعل السلطة الزمنية ليحيى بن ابراهيم الكدالى ، وإن كان هو المستأثر فى الواقع بكل سلطة وإليه الأمر والنهى ، وجبى عبد الله الأموال من الزكاة والعشور والفىء ، واقتنى الخيل والسلاح ، واشتد بأسه ، واشتهر أمره فى سائر جنبات الصحراء ، وفى المغرب والسودان . ولما توفى الأمير يحيى بن إبراهيم ، ندب عبد الله مكانه للرياسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد(١) .

وكان يحيى بن عمر اللمتونى أميراً ورعاً زاهداً ، وكان كثير الولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين . ومما يروى فى ذلك أن عبدالله ضربه ذات يوم عشرين سوطاً لأنه باشر القتال بنفسه مع جنده ، ولأن الأمير يجب ألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يقتصر على حث جنده وتقوية نفوسهم ، وحياة الأمير هى حياة عسكره وفى موته فناء جيوشه . وقاد الأمير يحيى عدة حملات ، وافتتح جميع جهات الصحراء، وغزا بلاد السودان وافتتح كثيراً من أنحائها . وكانت حركة المرابطين وأعمال زعيمهم عبد الله بن ياسين قد أخذت تحدث صداها فى قواعد المغرب . وكان المغرب يومئذ ، قد انقسم بعد انقضاء أمر الأدارسة، وبعد أن لبث منذ منتصف القرن الرابع مسرحاً لحروب الشيعة وخلفاء قرطبة الأمويين ، إلى ممالك

(١) روض القرطاس ص ٨٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠١ .

وإمارات عدة ، تسودها مختلف القبائل البربرية ، ولاسيما صنهاجة وزناته ومغراوة ، وكانت أعظم ممالكهم مملكة زيرى بن عطية الزناتيين وبنيه بعده ، وقد استطالت منذ أيام المنصور بفاس ، ومعظم أعمال المغرب الشمالى، حتى أوائل القرن الخامس ، واستقر بنو يفرن بأعمال الشاطىء فى سلا وما يليها ، واستقر بنو خزرون المغراويون بدرعة وسجلماسة وأعمالها ، وبأنحاء أخرى فى أواسط المغرب . واستقرت برغواطة جنوباً بشاطىء المحيط . وهكذا كان المغرب يقدم يومئذ بظروفه وإماراته الصغيرة المتفرقة، فرصة طيبة للطامعين والمتوثبين. وكانت العناصر الناقمة فى تلك الإمارات المستبدة ، تتطلع إلى أولئك القوم الجدد ، الذين يضطرمون بالحماسة الدينية وينادون بالإصلاح ، والتزام أحكام القرآن والسنة . فى سنة ٤٤٤ هـ بعث فقهاء درعة وفقهاء سجلماسة بكتبهم إلى عبد الله ابن ياسين ، وإلى الأمير يحيى اللمتونى وأشياخ المرابطين، يشكون مما يقع فى بلادهم من ضروب الظلم والعسف ، والخروج على أحكام الدين، ويدعونهم إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المرهق . وكانت درعة وسجلماسة يومئذ تحت حكم بنى وانودين من زعماء مغراوة ، وأميرهم يومئذ هو مسعود بن وانودين ،فجمع عبد الله بن ياسين أشياخ المرابطين وشاورهم فى الأمر ، فرأوا وجوب قبول الدعوة والسير إلى غوث أهل المدينتين . فى سنة ٤٤٥ هـ خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم فى حشد ضخم ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتونى ، وقصدوا أولا إلى مدينة درعة فأخرجوا عنها عاملها ، واستولوا عليها واستولوا فى أرباضها على خمسين ألف من الإبل من أموال أميرها مسعود، ونهض مسعود بن وانودين لرد الغزاة والدفاع عن أراضيه ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قتل فيها مسعود ، وأبيد معظم جنده ،واستولى المرابطون على دوابهم وأسلابهم . ثم ساروا إلى سجلماسة ، فاقتحموها ، وقتل من كان بها من جند مغراوة . وأمر عبد الله بن ياسين بإزالة المنكرات ورفع المكوس الجائرة ، وتفريق الأخماس على المرابطين وفقهاء البلدين ، وتطبيق أحكام الدين ،وندب لحكم سجلماسة عاملا من اللمتونيين ، وكانت هذه بداية الفتح المرابطى للمغرب[١] .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ . ويضع ابن أبى زرع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٤٧ هـ (روض القرطاس ص ٨١) . وراجع السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٠٢ .

وهنا يذكر لنا أبو عبيد البكرى ، ان عبد الله بن ياسين بعد أن أتم فتح سجلماسة ، سار جنوبا وغزا فى سنة ٤٤٦ هـ ، مدينة أودغست ، وهى من أعمال مملكة غانة السوداء ، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين ، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمسة عشر يوما . وكان يسكن هذه المدينة خليط من زناتة والعرب ، فدخلها المرابطون واستباحوها ، وجعلوا جميع ماأصابوا فيها فيئاً(١) .

وفى سنة ٤٤٧ هـ توفى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، فعين عبد الله بن ياسين مكانه للقيادة أخاه أبا بكر بن عمر .وكانت الخطوة الثانية فى افتتاح المغرب ، هى غزو بلاد السوس ، ففى ربيع الثانى سنة ٤٤٨ هـ ، سار المرابطون نحو جنوب غربى المغرب قاصدين بلاد السوس ، وجعل الأمير أبوبكر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وهى أول مرة تقدم إلينا الرواية فيها ، عاهل المرابطين العظيم فيما بعد . وبدأ بغزو بلاد جزولة ثم فتح ماسة ، ثم سار إلى مدينة تارودنت قاعدة بلاد السوس فافتتحها . وكان بتارودنت طائفة من الرافضة تسمى البجلية نسبة إلى مؤسسها ، على بن عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قد قدم إلى تلك الأنحاء أيام عبد الله الشيعى (أواخر القرن الثالث الهجرى) ، ونشر بها مذهبه ، وهو يتضمن كثيراً من التعاليم المثيرة ، فقتل المرابطون أولئك الروافض وارتد من بقى منهم إلى السنة ، ودوخ المرابطون بلاد السوس ، واستولوا على سائر نواحيها ، وعين عبد الله بن ياسين لها عمالا من المرابطين ، وأمرهم باتباع العدل والسنة ، والاكتفاء بتحصيل الزكاة والأعشار ، وإسقاط ما عدا ذلك من المغارم الجائرة .

وعبر المرابطون بعد ذلك جبال الأطلس ، وقصدوا إلى بلاد المصامدة ، وتوغلوا فى جبال درن ، وفتحوا وردة وشفشاوة ونفيس ، وسائر بلاد منطقة جدميوه ، وبايعتهم قبائل تلك الناحية . ثم ساروا إلى مدينة أغمات ، وكانت يومئذ لمغراوة ، وأميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى ، فضربوا حولها الحصار ، ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع ،ولكنه لما رأى عبث المقاومة ، فر منها فى أهله وحشمه تحت جنح الظلام ، والتجأ إلى حماية بنى يفرن أمراء تادلا . ودخل عبد الله بن ياسين وجنده المرابطون أغمات فى سنة ٤٤٩هـ ، وأقام

---

(١) كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج منه كتاب « المسالك والممالك » والمنشور بعناية البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٦٨ .

بها نحو شهرين حتى استراح جنده . ثم قصد إلى بلاد بنى يفرن وهاجم قاعدتهم تادلا واقتحمها ، وقتل من بها من بنى يفرن ، وظفر بلقوط المغراوى فقتله ، وكانت زوجه زينب بنت إسحاق النفزاوية قد اشتهرت بحسنها ونبلها ، فتزوجها الأمير أبوبكر اللمتونى . وبعد أن نظم عبد الله بن ياسين شئون هذه المنطقة سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة .

وكانت هذه القبائل تدين بمذهب تنافى تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام ، أسسه رجل يهودى الأصل يدعى صالح بن طريف البرناطى نسبة إلى برناط ، وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس ، ووفد على منطقة تامسنا منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة ونشر مذهبه بين أهلها ، وهم قوم تسودهم البداوة والجهالة المطلقة ، فادعى النبوة وأنه قد نزل عليه قرآن جديد ، كان يتلو بعض سوره ، وزعم أنه المهدى الذى يخرج فى آخر الزمان ، وجعل الصلوات خمساً فى النهار وخمساً فى الليل ، والصوم فى شهر رجب ، وأباح لهم الزواج بأى عدد من النساء إلى غير ذلك . وكثر عدد أنصاره بمضى الزمن حتى أصبحوا أمة كبيرة يطلق عليها برغواطة . وفى بعض الروايات أن برغواطة تنتمى إلى قبيلة زناتة الشهيرة . ويقول ابن خلدون إنهم من المصامدة من حيث الموطن والجوار ، وهم قبائل شتى لا يجمعهم أصل واحد ، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى مذهب صالح بن طريف[1] . وأقام هذا الدعى صالح بن طريف لنفسه رياسة وملكاً فى تلك المنطقة ، منطقة تامسنا ، وشاطىء المحيط الممتد من شمالى أزمور جنوباً حتى آسفى ، وتوارث أعقابه وقرابته الملك من بعده . واشتهر منهم فى أواخر القرن الثالث أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح ، واشتدت شوكته وعظم أمره ، وكانت له فى البربر وقائع مشهوره . وحارب ملوك العدوتين المغرب والأندلس ، من الأدارسة وبنى أمية والشيعة ، قبائل برغواطة ، وحاربهم بلكين بن زيرى زعيم صنهاجة ، حينما غزا المغرب سنة ٣٦٨ هـ ، ولقيه أميرهم أبو منصور عيسى بن أبى الأنصارى فى قومه ، فهزم وقتل ، وأمعن بلكين فيهم تقتيلا . ثم حاربهم المنصور بن أبى عامر ، وبعث لقتالهم الفتى واضح ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٣ .

فأثخن فيهم . وحاربهم بنو يفرن . وهكذا استمرت قبائل برغواطة ، هدفاً للعداء والنقمة ، حتى كان ظهور المرابطين فى أوائل القرن الخامس .

وكان من الطبيعي أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء الأقوام الكفرة الوثنيين . ومن ثم فقد سار عبد الله بن ياسين ، وقائده أبوبكر اللمتونى فى جموع المرابطين إلى أرض برغواطه ، وكان الأمير عليهم يومئذ أبوحفص بن عبد الله بن أبى غفير ابن محمد بن معاذ ، المتقدم الذكر . ونشبت بين المرابطين وبين البرغواطيين وقائع شديدة ، أصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى إمام المرابطين ، ومنشىء طائفتهم ، بجراح بالغة توفى منها فى نفس اليوم . وجمع قبيل وفاته أشياخ المرابطين وحثهم على الثبات فى القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة . وكان مصرعه فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ودفن فى مكان يعرف بكريفلة أو كريفلت على مقربة من تامسنا ، وأقيم على قبره فيما بعد مسجد ، وما يزال مزاره قائماً معروفاً حتى اليوم . وفى الحال اتفق رأى المرابطين على اختيار قائدهم أبى بكر بن عمر اللمتونى للرياسة مكان إمامهم المتوفى ، وهو اختيار أوصى به عبد الله قبل أن يلفظ النفس الأخير (١)

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع والتقشف ، ولكن شديد الحمية والتعصب لمذهبه ، وقد ألفى فى تلك القبائل الصحرية الساذجة ، مادة طيبة لبث تعاليمه ، واستطاع أن يذكى فى نفوس أولئك المرابطين — أتباعه — تلك الحماسة الدينية البالغة ، التى حملتهم من الصحراء إلى ربوع المغرب ، وعاونتهم على انتزاعها تباعاً من أيدى القبائل الخصيمة . بيد أن عبد الله كان مع شديد ورعه ، مشغوفاً بالنساء ، يتزوج فى كل شهر عدداً منهن ويطلقهن ، ويسعى إلى خطبة الحسان أينما وجدن . وكان يأخذ ثلث الأموال المختلفة ، وهو إجراء يصفه المؤرخ بالشذوذ(٢) .

وقد ذكر لنا أبوعبيد البكرى فى معجمه « المسالك والممالك » بعض الأحكام الشاذة التى كان يطبقها عبد الله بن ياسين على المرابطين المنضوين

---

(١) روض القرطاس ص ٨٤ . ويضع ابن خلدون تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين فى سنة ٤٥٠ هـ (ج ٦ ص ٢٠٩) .

(٢) روض القرطاس ص ٨٤ .

تحت إمامته، وفى مقدمتها أخذه الثلث من مختلف الأموال بحجة أن ذلك يطيب باقيها ، وهو مالا تسوغه الشريعة ، من أى مذهب ، ومنها أن الرجل إذا دخل فى دعوتهم ، وأبدى توبته على سالف ذنوبه ، قيل له أنك ارتكبت فى سالف شبابك ذنوبا كثيرة ، ويجب أن يقام عليك حدودها ، وتطهر من إثمها ، فيضرب حد الزانى مائة سوط ، وحد المفترى ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها . وكذلك يفعل المرابطون بمن تغلبوا عليه ، وأدخلوه قسراً فى رباطهم ، وإن علموا أنه قتل قتلوه ، سواء أتاهم تايبا طائعا ، أو غلبوا عليه مجاهراً عاصيا . ومن تخلف عن شهود الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا ، وغير ذلك من الأحكام القاسية التى لا تطبعها سماحة الإسلام الحقيقى(١) .

— ٢ —

ونستطيع أن نقول إنه بوفاة عبد الله بن ياسين ، وقيام أبى بكر اللمتونى مكانه فى الرياسة ، تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية . وهو أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين بن واياقطين . وكان أول ما عنى به بعد دفن الإمام ، هو متابعة حرب برغواطة ، فحشد سائر قواته ، وجد فى قتالهم ، وأثخن فيهم ، حتى مزق طوائفهم ، وقتل وسبى منهم جموعاً كبيرة ، حتى أذعنوا إلى الطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً ، ونبذوا تقاليدهم الوثنية المثيرة . وجمع ما استولى عليه من الأموال والغنائم ، وقسمها بين المرابطين ، ثم عاد إلى مدينة أغمات ، وأقام بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢هـ (١٠٦٠ م) . ثم غادرها فى قوات ضخمة من صنهاجة وجزولة ، والمصامدة ، وافتتح بلاد فازاز ومكناسة ، وسائر أراضى زناتة ، ثم سار إلى مدينة لواتة ، وكانت بيد بنى يفرن فاقتحمها عنوة وخربها وقتل بها خلقاً كثيراً ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٥٢ هـ ، وعاد بعدئذ إلى أغمات .

ولبث أبوبكر فى أغمات بضعة أشهر أخرى ، وعندئذ وفد إليه رسول من بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، ونبأه باختلاف المرابطين هناك، ووقوع الخلاف

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المستخرج من كتاب المسالك والممالك ، والمنشور بعناية البارون دى سلان ص ١٦٩ .

بين لمتونة ومسوفة ، فخشى أبوبكر أن يتفاقم الأمر هناك بين القبائل الشقيقة، وقد كانت الصحراء منبع أمرهم ، ومطلع سلطانهم ، فقرر أن يعود إلى قومه، ليجبر الصدع ويوحد الكلمة . فوكل شئون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفزاوية ، بعد أن طلقها ، حتى لا تشاطره خشونة الحياة الصحرية، فتزوجها يوسف فيما بعد، وأمره بمتابعة قتال مغراوة وبنى يفرن وزناتة ، ووافق أشياخ المرابطين على هذا الاختيار ، لما يعلمونه عن يوسف «من دينه وفضله وشجاعته وحزمه و لدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته »(١) .

وقسمت القوات المرابطية عندئذ إلى جيشين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب، وتولى أبوبكر إمرة الآخر. وخرج أبوبكر فى جيشه فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٣هـ (ديسمبر ١٠٦١م) واخترق بلاد تادلا وسجلماسة، ثم سار جنوباً إلى الصحراء ، وهناك قام بإصلاح شئونها ، والقضاء على أسباب الخلاف بين أقوامها ، وتوحيد كلمتهم . ثم حشد قوات جديدة ، وسار فى جيشه الضخم إلى بلاد السودان ، فغزا الكثير من نواحيه ، وتوغل فى أراضيه إلى مسيرة ثلاثة أشهر . وفى تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين ، يؤدى مهمته العظيمة فى افتتاح باقى أقطار المغرب ، فبدأ بذلك بأن قسم الجيش المرابطى ، وقد بلغ يومئذ أربعين ألف مقاتل ، إلى أربعة أقسام ، اختارلها أربعة من أقدر قواده ، وهم سير بن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن تميم الكدالى ، وعمر بن سليمان المسوفى، ومدرك التلكانى ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف ، وجعلهم فى مقدمة قواته ، وبعث بهم إلى مختلف أنحاء المغرب، وتولى هو قياد بقية الجيش يسير به فى ا رهم . وأخذت تلك الجيوش المرابطية فى محاربة القبائل الخصيمة ، ولاسيما مغراوة وزناتة وبنى يفرن، ودوختها وغلبت على سائر أراضيها، وهرعت القبائل يجنح بعضها إلى المقاومة حتى يهزم ويغلب، ويجنح البعض الآخر إلى الاستسلام والطاعة . ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحى المغرب الجنوبية والوسطى ، فعاد من غزاته المظفرة إلى أغمات فى أواخر سنة ٤٥٤ هـ ، وقد عظم أمره ، واشتد بأسه ، وذاع صيته فى سائر أنحاء المغرب .

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .

وفكر يوسف عندئذ أن يختط لنفسه محلة ، تكون قاعدة لجيوشه ، ومستودعاً لذخائره ، ووقع اختياره فى ذلك على أرض تقع شمال غربى مدينة أغمات . وكانت لبعض المصامدة ، فاشتراها يوسف واختط بها قصبة ومسجداً ، وكان يعمل فى بناء المسجد بنفسه مع الفعلة ، فكان ذلك مولد مدينة مَرَّاكُش الشهيرة (سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م) . وكان هذا الاسم يطلق على هذا المكان ، ومعناه بلغة المصامدة « إمش مسرعاً » . إذ كان مأوى اللصوص وقطاع الطريق . واختار يوسف أن تكون قاعدته فى قلب بلاد المصامدة ، إذ كانوا أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعاً ، وكانوا قوام جيوشه ، ومن جهة أخرى فقد كانت القاعدة الجديدة تقع فى حمى جبل درن من شعب الأطلس . ونزل يوسف فى محلته بالخيام أولا ودون أن تبنى أسوارها ، ثم أقيمت بها القصور والأبنية فيما بعد ، واختط بها الناس وحفرت بها الآبار . على أن مراكش لم يكمل بناؤها وتتسع رقعتها . ويقام سورها العظيم ، إلا فى عهد على بن تاشفين ولد يوسف . وذلك فى سنة ٥٢٦ هـ . وقد كان القسم الذى أنشأه يوسف من مدينة مراكش العظيمة ، يشمل القسم الذى يعرف بسور الحجر فيما بينه وبين جامع الكتبيين ، وهو الذى يعرف اليوم بالسجينة . وقد غدت مراكش فى فترة يسيرة من أعظم المدن المغربية وأجلها ، وغدت من ذلك التاريخ ، قاعدة الدول المغربية العظيمة ، ماعدا دولة بنى مرين ، ولعبت فى تاريخ المغرب أعظم دور . وما زالت تحتفظ حتى اليوم بكثير من روعتها وجلالها القديم[1] .

وعمل يوسف فى ذلك الحين على تقوية جيشه وحرسه ، فاقتنى من العبيد نحو ألفين ، وبعث إلى الأندلس فاشترى عدداً كبيراً من العلوج أو الأرقاء النصارى ، وأنشأ منهم فرقة قوية من الفرسان برسم حرسه وحجابته ، اشتهرت فيما بعد ببلائها فى مواقع كثيرة ، واستعان يوسف على نفقاته العسكرية بما فرضه يومئذ على اليهود من ضرائب فادحة اجتمع له منها مال كثير[2] .

وماكاد يوسف ينتهى من إنشاء حاضرته ، وتنظيم جيشه ، حتى تأهب لفتح مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة ، وأعظم مدائنه يومئذ . وكانت الجيوش

(١) راجع فى إنشاء مراكش : روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٧ . وراجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة مراكش .

(٢) الحلل الموشية ص ١٣ .

المرابطية ؛ قد تضخمت فى تلك الأثناء ، وعنى يوسف بتنظيمها ، وتجهيزها بالرماة والعدة ، والبنود والطبول ، ويقال إنها بلغت يومئذ أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة ، وجزولة ، وزناتة ، والمصامدة . وفى أواخر سنة ٤٥٤ هـ سار يوسف لافتتاح مدينة فاس ، فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة ومغيلة ومديونة وغيرها ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انهزمت فيها تلك القبائل ، وامتنعت بصدينة ، فاقتحمها يوسف ، وقتل بها عدة آلاف . ثم سار إلى فاس ، ونازل أولا قلعة فازاز وهى من حصونها الأمامية ، ثم زحف على فاس ذاتها ، وبها صاحبها معنصر المغراوى ، وافتتح حصونها تباعاً ، ثم اقتحمها ، وذلك فى سنة ٤٥٥ هـ ، واستعمل عليها عاملا من لمتونة . وسار بعد ذلك إلى بلاد غمارة ، وغلب على كثير من نواحيها ، حتى أشرف على طنجة . وفى خلال ذلك عاد بنو معنصر المغراوى إلى فاس ، فاقتحموها وقتلوا عامل يوسف ، واحتلوها ، واضطر يوسف أن يعود لمنازلتها ، فسار إليها فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار بشدة ، ثم اقتحمها عنوة ، وقتل بها كثيراً من مغراوة وبنى يفرن ، وذلك فى أوائل سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) .

— ٣ —

ويجب قبل أن نتم الكلام عن فتوح يوسف ، أن نعطف على واقعة كان لها أثرها الحاسم فى حياة يوسف ، وفى مصاير دولة المرابطين . وذلك أن الأمير أبا بكر اللمتونى بعد أن نظم شئون الصحراء ، وقضى فى غزواته بضعة أعوام ، نمى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة ، ومن ضخامة السلطان واستقراره ، فقرر أن يعود إلى المغرب ليسبر غور الأمور ، وربما جال بخاطره أن يعزل يوسف ، وأن يسترد هو سلطانه ، باعتباره أمير المرابطين الشرعى . ويقول لنا صاحب الحلل الموشية إن مقدم أبى بكر من الصحراء إلى المغرب كان فى سنة ٤٦٥ هـ ، وإنه نزل بمحلته خارج مدينة أغمات ، فهرع صحبه إلى مراكش العاصمة الجديدة ، لرؤيتها والسلام على يوسف ، واستقبلهم يوسف بالترحاب ، وأغدق عليهم الهدايا والصلات[١] . وأدرك أبوبكر مبلغ ما انتهى إليه يوسف من الضخامة والتوطد ، وما يتمتع به من المحبة والنفوذ بين طائفته ، وأنه لم يبق

(١) الحلل الموشية ص ١٣ و ١٤ .

له أمل فى انتزاع شىء مما فى يده . بيد أنه يبدو لنا على ضوء رواية ابن أبى زرع وابن خلدون أن مقدم أبى بكر إلى المغرب كان قبل ذلك بقليل . ذلك أن زينب النفزاوية زوجة يوسف ، لعبت دوراً فى لقاء الرجلين . وقد توفيت زينب فى سنة ٤٦٤ هـ . وخلاصة هذه الرواية أن يوسف شعر عند مقدم أبى بكر بدقة الموقف، وما يتهدد سلطانه ، فاستشار زوجه زينب النفزاوية فى الأمر،وكانت إلى جانب جمالها من أعقل نساء زمانها ، وأبعدهن نظراً ، وكان مذ تزوجها يرجع إليها فى عظائم الأمور، ويعتمد على نصحها ، وذكائها ، وحسن سياستها فأشارت عليه بأن يستقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان والاستبداد،ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء . وسار يوسف للقاء أبى بكر ، فالتقيا بموضع بين أغمات ومراكش . وشعر أبو بكر مما أبداه يوسف ، ومن تعاليه فى السلام عليه وهو راكب فرسه ، أنه حريص على سلطانه ، مستعد للدفاع عنه ، وزهد فى التنافس والقتال ، وأوصى يوسف باتباع العدل والرفق ، ثم ودعه وعاد إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجوارى والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهنالك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل فى بعض غزواته وذلك فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م)(١) .

وقضى يوسف أعواماً أخرى فى إتمام فتح المغرب ، حتى سيطر على معظم نواحيه ، ودوخ سائر قبائله . وفى سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) نراه وقد أشرف على طنجة ، وانتزعها من يد صاحبها الحاجب سكوت (أوسواجات) البراغوطى وهو فى نفس الوقت صاحب سبتة . وكان سكوت من موالى بنى حمود ، وقد ولى حكم سبتة فى أواخر أيامهم ، ثم استولى على طنجة ، وقوى أمره فى ذلك الركن المنعزل من المغرب ، وأطاعته قبائل غمارة ، واستمرت ولايته زهاء عشرين عاماً . فلما زحفت الجيوش المرابطية إلى تلك الناحية ، اعتزم سكوت الدفاع عن ملكه ، وكان شيخاً فى التسعين من عمره ، ولكنه كان فارساً مقداماً . فالتقى بالمرابطين فى وادى منى على مقربة من طنجة ، وقاتل حتى قتل ومزق جيشه ، وسقطت طنجة فى أيدى المرابطين ، واعتصم ولده يحيى بن سكوت

---

(١) روض القرطاس ص ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٦

بسبتة . وفى سنة ٤٧٤ هـ زحف يوسف على المغرب الأوسط ، واستولى على مدينة وجدة ، ثم استولى على تلمسان ووهران ، واستمر فى سيره المظفر حتى تونس فافتتحها ، واستولى بذلك على سائر شواطىء المغرب وثغوره الشمالية ، وقضى على سلطان سائر الأمراء المحليين الذين كانوا يقتسمون المدن والثغور يومئذ ، وشمل سلطانه جميع الأقطار المغربية ، حتى تونس شرقاً وحتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن البحر المتوسط شمالا حتى حدود السودان جنوباً(١) .

وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى ، وأقامتها عبقرية رجل واحد ، وهو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متعصب هو عبد الله ابن ياسين ، واستحالت بسرعة على يد أبى بكر اللمتونى ثم يوسف من بعده ، من زعامة دينية محلية ، إلى ملك سياسى ضخم . وقد ذكرت لنا الرواية عن هذا الزعيم الموهوب والجندى العظيم بعض معلومات خلاصتها ، أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة ابن أمية الحميرى الصنهاجى اللمتونى ، فهى بذلك تنسبه إلى حمير ، وأمه حرة لمتونية اسمها فاطمة بنت سير بن يحيى . وقد ولد بالصحراء فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) . بيد أننا لانعرف شيئاً عن حياته ونشأته الأولى ، وتذكره لنا الرواية لأول مرة فى سنة ٤٤٨ هـ ، حينما ندبه الأمير أبو بكر اللمتونى ليكون قائداً لجيش المرابطين الزاحف لغزو المغرب . وكان يوسف يومئذ فى الثامنة والأربعين من عمره . ومن ذلك التاريخ فقط ، تتبع الرواية أعمال يوسف وفتوحه العظيمة المتعاقبة ، وهى التى فصلناها فيما تقدم . وتنوه الرواية بورع يوسف وزهده ، وبساطته وتواضعه ، فقد كان بالرغم مما أتاه الله من بسطة فى الملك والنعم ، آية فى التقشف ، يرتدى الصوف طول حياته ، ولايرتدى سواه قط ، ولايأكل سوى الشعير ولحوم الإبل وألبانها . وكان بطلا شجاعاً حازماً ، مهيباً ، دائب التفقد لبلاده وثغوره ، وأحوال رعيته ، مجاهداً لايفتر عن متابعة الجهاد ، منصوراً مظفراً فى معظم الوقائع التى خاضها ، جواداً كريماً ، عادلا رفيقاً ، ينأى عن إرهاق رعيته بالمغارم المحرمة ، ولايفرض منها إلا ما يجيزه الشرع ، من الزكاة والأخماس والأعشار ، وجزية أهل الذمة . وأما عن شخصه ،

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ ، والاستقصاء ج ١ ص ١١٠ .

فقد كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، جعد الشعر ، رقيق الصوت(١) .

وقد حكم يوسف بن تاشفين ، أعظم امبراطورية إسلامية قامت فى الغرب الإسلامى ، فهو فضلا عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى ، ممتدة فيما بين تونس والمحيط ، وما بين البحر وحدود السودان ، قد انتهى بعد ظفره فى موقعة الزلاّقة على جيوش اسبانيا النصرانية حسبما نفصل بعد ، إلى افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، وبسط سيادة الدولة المرابطية المغربية على اسبانيا المسلمة ، وبذا كانت تمتد امبراطوريته عبر البحر شمالا حتى سرقسطة فى شمال شرقى اسبانيا ، وحتى شنترين وأشبونة فى قلب البرتغال .

وكان يوسف بن تاشفين فى بداية أمره يلقب بالأمير ، فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة ، فأبى واكتفى باتخاذ لقب أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وأصدر مرسومه ، بأن يدعى له بذلك اللقب ، وذلك فى سنة ٤٦٦ هـ(٢) . وفى أواخر عهده ، بعد أن ملك الأندلس ، نصح له الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسى ببغداد ، سفيراً ومعه هدية جليلة ، وكتاب بما فتح الله عليه من الملك ، وما أولاه من النصر ، وطلب تقليده الولاية ، فبعث إليه الخليفة بمرسوم الولاية ، والخلع والتشاريف(٣) ومما يؤكد لنا انضواء يوسف تحت لواء الخلافة العباسية ، ذكره فى سكته لاسم الخليفة العباسى(٤) .

— ٤ —

نتتقل الآن إلى تلك المرحلة الأخرى من حياة يوسف ، وهى مرحلة تدخله فى حوادث شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى مرحلة تتخذ فى البداية طابع الجهاد فى سبيل الله ، ثم تنقلب بعد ذلك ، إلى موجة جديدة من الفتح المرابطى .

(١) روض القرطاس ص ٨٧ و ٨٨ ، والحلل الموشية ص ١٢ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٦ و ١٧ ، وقد أورد لنا نص هذا المرسوم .
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤٥ .
(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

وقد سبق أن ذكرنا فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس ، ما انتهى إليه رؤساء الطوائف ، عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ومملكة بنى ذى النون فى سنة ٤٧٨ هـ . وتهديده لهم جميعاً بالويل والفناء ، من وجوب الاستنصار بإخوانهم فى عدوة المغرب ، وإرسالهم بصريخهم المتوالى إلى يوسف بن تاشفين ، لينهض إلى نجدتهم وإغاثتهم . وقد اختلفت الرواية فى تفصيل مقدمات هذا الصريخ وظروفه .والقول المشهور فى ذلك ، هو أن سقوط طليطلة ، كان هو العامل الجوهرى ، الذى حمل ملوك الطوائف ، على أن يتجهوا إلى الاستنصار بالمرابطين . بيد أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا الاتجاه يرجع إلى ما قبل سقوط طليطلة بعامين أو ثلاثة . فقد سقطت طليطلة فى يد ملك قشتالة فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، ولكنا نجد صريخ الأندلس يتوالى على بلاط مراكش منذ سنة ٤٧٤ هـ ، فقد وفد فى ذلك العام على يوسف جماعة من أهل الأندلس . وشكوا إليه ماحل بهم من عدوان النصارى وطلبوا إليه النجدة والعون ، فوعدهم بتحقيق أمنيتهم[1] . ثم توالى صريخهم بعد ذلك . ويحدثنا يوسف بن تاشفين نفسه عما تلقاه من صريخ الأندلس المتوالى فى رسالته التى بعث بها عقب موقعة الزلاقة إلى المعز بن باديس أمير إفريقية ، فيقول : « ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، — دمرهم الله — على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والتزام الجزية لرؤسائها ، واستيصال أقالمها ، وإيطايهم البلاد داراً داراً ، لايتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار »[2] . ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية ، ويوردها بصورة أخرى ، فيقول لنا إن المعتمد بن عباد خاطب أمير المسلمين يوسف ، ملتمساً إنجاز وعده فى إنجاد الإسلام فى الأندلس ، وكاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة ، فاهتز أمير المسلمين للجهاد ، وبعث ابنه المعز فى عساكر المرابطين إلى سبتة فنازلها براً ، وطافت بها سفن ابن عبـــاد بحراً ، ثم اقتحموها عنوة فى ربيع الآخر

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) راجع رسالة يوسف عن موقعة الزلاقة ، وقد نشرناها فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب .

سنة ٤٧٦هـ ، وأسر صاحبها يحيى بن سكوت ثم قتل . وجاز ابن عباد بعد ذلك ، وقصد إلى أمير المسلمين ، ولقيه بفاس مستنفراً له فى الجهاد، ونزل له عن ثغر الجزيرة ليكون رباطا لجهاده[1] . ويقول لنا ابن أبى زرع ، إن أمير المسلمين لما عاد إلى مركش فى سنة ٤٧٥ هـ عقب فتحه لوهران وتونس ،ورد عليه كتاب المعتمد بن عباد ، يعلمه بحال الأندلس ، وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على معظم ثغورها ، ويسأله الإنجاد والعون ، فأجابه يوسف بأنه إذا فتح الله عليه سبتة فإنه سوف يتصل بهم ،ثم يحدثنا بعد ذلك عن الغزوة التى قام بها ألفونسو فى نفس العام ، فى أراضى إشبيلية وكيف اخترقها بقواته حتى وصل إلى طريف ، وخاض الماء بفرسه قائلا ، هذا آخر الأندلس قد وطأته ، وأنه لما استولى على طليطلة اتفق أمراء الأندلس وكبراؤها على الاستنصار بيوسف وكتبوا إليه جميعاً يلتمسون منه الغوث ، وأنهم سوف يكونون معه يداً واحدة فى جهاد العدو . فلما توالت كتب الأندلس على يوسف بعث ابنه المعز لافتتاح سبتة ، فحاصرها وافتتحها فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ ،فسر بذلك أمير المسلمين ، وسار فى الحال بقواته نحو الشمال ليجوز منها إلى الأندلس[2] . وفى أقوال ابن أبى زرع شىء من الغموض والتناقض فى التواريخ . ولكنه مع ذلك يؤيد الواقعة الجوهرية ، وهى أن اتجاه أمراء الطوائف إلى الاستنصار بأمير المسلمين ، حدث قبل سقوط طليطلة ببضعة أعوام ،وأن سقوط طليطلة لم يكن إلا عاملا جديداً فى تقوية هذا الاتجاه وإذكائه .

وإنه ليلوح لنا أن فكرة استدعاء المرابطين لإنجاد الأندلس ، قد خطرت لأول مرة للمعتمد بن عباد حينما اشتد ألفونسو فى إرهاقه بطلب الجزية ، وأرسل إليه ابن شاليب اليهودى فى اقتضائها ، وذلك فى سنة ٤٧٥هـ وقع عندئذ ما وقع من بطش ابن عباد برسل ألفونسو ، وخروج ملك قشتالة فى قواته للانتقام من ابن عباد ، واجتياحه لمملكته ، وتخريبه لمدنها ومروجها ، من إشبيلية جنوباً حتى مدينة طريف ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه من أخبار مملكة إشبيلية . والظاهر أن المعتمد قد أدرك عندئذ ، وإن يكن متأخراً ، فداحة الخطأ الذى

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد وهم ابن خلدون فى واقعة عبور المعتمد إلى المغرب وزيارته لأمير المسلمين . والواقع أن هذه الزيارة تمت بعد موقعة الزلاقة .

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣ .

ارتكبه ، بخضوعه لملك قشتالة ومحالفته ، وأدرك مدى ما تنطوى عليه سياسة هذا الملك القوى من الخديعة والغدر ، واعتزم عندئذ أمره فى استدعاء المرابطين.

وليس معنى ذلك أن ابن عباد كان ينفرد بهذا التفكير وهذا العزم ، فلا شك أن معظم أمراء الطوائف قد جالت بخواطرهم تلك الفكرة ، فقد كانوا جميعاً يشعرون بنفس الخطر ، وكانوا جميعاً يعانون ضغط ملك قشتالة ، وتخريبه لأراضيهم ، وجشعه فى استصفاء أموالهم باسم الجزية ، بيد أن ابن عباد ، وقد كان كبير ملوك الطوائف ، وكان يواجه فى نفس الوقت أعظم الأخطار المباشرة من عدوان ملك قشتالة ، كان حرياً بأن يتقدمهم فى اعتناق هذه الفكرة وتنفيذها .

على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون معارضة ، فقد كان ثمة بين ملوك الطوائف من يخشى عواقبها ويحذر ابن عباد من مغبة سياسته ، وقد أجابهم ابن عباد بكلمته المأثورة « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ، يقصد بذلك أن خير له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جماله ، من أن يغدو أسيراً لملك قشتالة النصرانى[١] .

ثم كان سقوط طليطلة بعد ذلك بعامين ، فكان نذيراً لاشك فى خطورته . وإذا كانت فكرة الاستنصار بالمرابطين ، قد بدت من قبل لأمراء الطوائف أملا يداعبهم ، فقد بدت عندئذ ضرورة ماسة ، وبدت بالنسبة للأندلس مسألة حياة أو موت ، ومن ثم فإن الصريخ الذى كان يتخذ من قبل صورة الكتب والدعوات الخاصة ، يتخذ عندئذ صورته الرسمية ، وتشاطر الأندلس كلها ، أمراؤها وفقهاؤها وكافتها هذا الاتجاه ، ويبعث ابن عباد وزميلاه المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، سفارتهم الرسمية إلى أمير المسلمين ، على يد أبى بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة ، وأبى إسحق بن مُقانا قاضى بطليوس ، وأبى جعفر القليعى قاضى غرناطة ، وأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد[٢] . وعبر سفراء الأندلس البحر إلى المغرب وقصدوا إلى أمير المسلمين فى مراكش ، وكانت وفود الأندلس تتوالى من قبل

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٨٥ .

(٢) راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٩٩ ، والروض المعطار ص ٨٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٦ . وراجع دوزى : Histoire; Vol. III p. 124

ذلك على يوسف مستعطفة باكية ، ترجوه الغوث والإنجاد ، فيستمع إلى قولهم ، ويعدهم خيراً . والظاهر أن سفارة الأندلس الرسمية لم تأت لكى تلتمس العون ، دون قيد ولاشرط . وقد وقعت بينها وبين أمير المسلمين مفاوضات أسفرت عن عهود متبادلة ، خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وأمراء الطوائف فى محاربة النصارى ، وأن يؤمن أمراء الطوائف فى ممالكهم ، وألا تحرض رعيتهم على شىء من الفساد . ومن جهة أخرى فقد طلب أمير المسلمين عملا بنصح وزيره الأندلسى عبد الرحمن بن أسبط أن يُسلم إليه ثغر الجزيرة ، وقد كان يومئذ من أملاك ابن عباد ، لكى يكون قاعدة أمينة لعبور جيشه ، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة ، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضى بإخلائها ، لتكون رهن تصرف أمير المسلمين(١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما عمد إليه ملك قشتالة عقب استيلائه على طليطلة ، من الكتابة إلى ابن عباد يطالبه بتسليم بلاده ، وينذره بسوء المصير ، وما كتب به كذلك إلى المتوكل بن الأفطس فى هذا المعنى ، وإلى مارد به كل من الأميرين المسلمين ، على الملك النصرانى ، وذلك فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس .

* * *

وهكذا اعتزم أمير المسلمين أمره ، بعد استشارة قومه وفقهائه ، وقرر أن يلبى صريخ أهل الأندلس ، وأن يبادر إلى غوثهم ، ولم يك ثمة شك فى أن يوسف وقومه المرابطين ، كانت تحدوهم نزعة الجهاد فى سبيل الله ، بيد أن أولئك الجند الصحراويين الذين نشأوا فى غمار القفر والبداوة ، كانت تحدوهم فى نفس الوقت رغبة فى رؤية الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والنعماء ، وأن يبلوا حرب النصارى(٢) . ومن الصعب علينا فى هذا الموطن ، أن نستشف نيات يوسف التى كشف عنها فيما بعد ، فى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، بيد أنا نرجح أنه لم يكن يجيش بمثل هذه النية فى البداية ، وأنها خطرت له فيما بعد ، بعد أن درس أحوال الأندلس ، وأحوال أمرائها . واستنفر يوسف سائر قواته وحشوده للجهاد ،

---

(١) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ و ١٠٣ ، والحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣١ .

وكان قد تم له يومئذ فتح سبتة ، فسار إليها ، والجيوش تتلاحق فى أثره من الصحراء ، وبلاد الزاب ، ومختلف نواحى المغرب ، وأصلح مرافئها وحشد السفن لعبور قواته ، وكان أول ما عبر منها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء ، واحتلته وفقاً لما تم الاتفاق عليه ، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً ، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة . وفى ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) عبر البطل الشيخ فى بقية قواته . وما كادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق ، حتى اضطرب البحر وتعالت الأمواج ، فنهض الزعيم المرابطى حسبما يحدثنا بنفسه وسط سفينته ، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلا : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين ، فسهل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » .ثم يقول لنا ، إنه ما كاد يتم كلامه حتى « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » . وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية ، فى ريح طيبة وبحر هادىء ، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة فى سلام(١)

(١) روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما ذكره يوسف بن تاشفين نفسه فى خطابه بالفتح إلى المعز بن باديس . (ويراجع الخطاب المذكور فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب) .

الفصل الثاني

موقعة الزلاقة

مسير يوسف بن تاشفين وجيشه إلى إشبيلية . المعتمد بن عباد يقدم الضيافات والمؤن . لقاء الملكين . زيارة يوسف لإشبيلية . كتبه إلى ملوك الطوائف للمشاركة فى الجهاد . مقدم أميرى غرناطة ومالقة ومعز الدولة بن صمادح فى قواتهم . مسير الجيوش المرابطية والأندلسية إلى بطليوس . مسيرها إلى سهل الزلاقة . ألفونسو السادس ومبادرته إلى التأهب للقاء المرابطين . استعانته بسائر ملوك النصارى . مسيره إلى الجنوب للقاء المسلمين . مواقع الفريقين . عدد قوات المسلمين والنصارى . الجيش الإسلامى وأقسامه . كتاب يوسف إلى ألفونسو . رد ألفونسو ورد يوسف عليه . بداية المعركة . عنف هجوم النصارى . ثبات المعتمد بن عباد وجند إشبيلية . مهاجمة ألفونسو للمرابطين . اندفاع المرابطين لإنجاد اخوانهم . تغير وجه المعركة . مهاجمة النصارى لمعسكر المرابطين . تطويق قوات لمتونة وصنهاجة للنصارى . المعركة الهائلة . تمزق صفوف القشتاليين . اشتداد هجوم المرابطين من الناحيتين . كثرة القتل بين النصارى . نزول حرس يوسف الأسود إلى المعركة . جرح ألفونسو وفراره . تقدير خسائر الفريقين . مسير ألفونسو فى فلوله إلى طليطلة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى . ذيوع أنباء النصر فى الأندلس والمغرب . رسالة يوسف عن الفتح . لقب أمير المسلمين وهل اتخذه يوسف عقب الزلاقة . إحجام يوسف عن مطاردة النصارى وبواعثه . عود الجيوش الأندلسية إلى قواعدها . الثناء على المعتمد بن عباد وثباته . تنويه أمير المسلمين ببطولته . يوسف يتلقى نبأ وفاة ولده . إسراعه بالعود إلى المغرب . ما يقال فى بواعث هذه الحركة . نصر الزلاقة وطابعه . المعنى الصليبى الذى ينطوى عليه لقاء المسلمين والنصارى . دعوة ألفونسو عقب هزيمته إلى إنشاء جبهة نصرانية . شعور المؤرخين المسلمين بخطورة الموقعة وصبغتها الصليبية . ما قيل حولها من الأساطير . أثر الزلاقة ونتائجها الحاسمة . انتعاش قوى الأندلس . تحرر ملوك الطوائف من نير قشتالة . ارتداد سيل الجيوش النصرانية عن الأندلس . الإسلام يغنم فى اسبانيا حياة جديدة .

نزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء ، فى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣٠ يونيه ١٠٨٦ م) ، وجيوشه الجرارة تحيط بها من كل صوب . وماكاد يطأ بقدميه أرض الأندلس ، حتى سجد لله شكراً ، ثم أخذ فى تحصين الجزيرة ، وإصلاح أسوارها وأبراجها ، ورتب لها حامية خاصة من جنده ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية .

وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بالجزيرة ، ورتب تقديم المؤن والأطعمة والضيافات للجيش المرابطى ، على طول الطريق إلى

إشبيلية ، واستعد لذلك استعداداً عظيما سر به يوسف . ولما اقترب يوسف من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه فى وجوه أصحابه وفرسانه ، وتعانق الملكان ، وأبدى كل منهما لأخيه منتهى المودة والإخلاص ، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه، وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا والتحف، وقدم المؤن والضيافات الكافية لسائر الجيش القادم ، وقرت عينه بما رآه من ضخامته وروعة استعداده ، وأيقن ببلوغ النصر المنشود . وفى اليوم التالى سار أمير المسلمين إلى إشبيلية ، تلاحقه قواته ، وأقام هناك ثلاثة أيام . وكان يوسف قد كتب فى أثناء ذلك إلى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى اللحاق به ، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله، وكان أول من لبى دعوته منهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة. واعتذر المعتصم بن صمادح صاحب المرية بضعفه وكبر سنه ، وتوجسه من عدوان النصارى فى حصن لييط (أليدو)، وبعث ابنه معز الدولة فى فرقة من جنده . ثم سار أمير المسلمين فى جيوشه الجرارة ، ومعه ابن عباد فى قوات إشبيلية ، وقرطبة ، وقصدوا إلى بطليوس ، فلقيهم أميرها عمر المتوكل على مقربة منها ، وقدم لهم المؤن والضيافات الواسعة ، وأنفق أمير المسلمين أياماً فى بطليوس ينتظر وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس ، بعد أن علم وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمدافعة النصارى(١). ولم يلحق به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة . وانتظمت القوات الأندلسية إلى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد ، واحتلت المقدمة ، واحتلت الجيوش المرابطية المؤخرة ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمالى بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية ، ويمتد مصعداً نحو قورية ، وتسميه الرواية العربية بالزلاّقة(٢) .

وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة ، قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو محاصر لسرقسطة ، وذلك فى أواخر يوليه أو أوائل أغسطس ١٠٨٦ م (جمادى الأولى سنة ٤٧٩) ، فترك الحصار على عجل ،

---

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) راجع الحلل الموشية ص٣٣ و ٣٤، والروض المعطار ص ٨٧ — ٩٠ ، وسهل الزلاقة يعرف بالإسبانية Sagrajas ، وهو يقع على قيد ثلاثة مراحل من شمال بطليوس إلى يسار نهر جريرو ، أحد أفرع وادى يانة .

وتنفس مخنق المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وبعث ألفونسو إلى سانشو رامىرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده ، وكان يومئذ قائماً بحصار طرطوشة ، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه ، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونية (نافار)، واستدعى قائده ألبار هانيس بقواته من بلنسية ، وتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبى فرنسا وإيطاليا . واعتزم ألفونسو أن يلقى الأعداء فى أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت به الهزيمة ، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة إلى الجنوب للقاء المسلمين ، وهو واثق من تفوق قواته فى العدد والعدة ، والكفاية الفنية ، ولم تصله أنباء دقيقة عن حالة الجيش الإسلامى(١) .

واستقرت الجيوش النصرانية ، فى مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر الإسلامى ، يفصل بينها وبين المسلمين فرع وادى يانة الممتد شمالا فى اتجاه نهر « التاجُه » والذى يسمى اليوم « جريرو» . وجعل أنفونسو على مقدمة جيشه ، قائده ألبار هانيس ، وكانت تتألف فى معظمها من جنود أراجون ، والمتطوعة . وقد اختلفتَ الرواية فى تقدير قوات المسلمين والنصارى . وتقدر بعض الروايات العربية جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل ، ويقدرها البعض الآخر بخمسين ألفاً أو أربعين ألفاً . وأما الجيش الإسلامى ، فيقدره البعض بثمانية وأربعين ألفاً ، والبعض الآخر بعشرين ألفاً ، على أنه يبدو من الروايات المختلفة أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين فى العدد(٢) . وكان الجيش الإسلامى ، ينقسم حسبما قدمنا إلى وحدتين كبيرتين : قوات الأندلس ، وتحتل المقدمة ويقودها المعتمد بن عباد ، ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة ،ويشغل أهل شرقى الأندلس الميسرة . وأما القوات المرابطية ، فكانت تحتل المؤخرة ، وتنقسم إلى قسمين ، يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل ، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر ، ويتولى يوسف قيادة الجيش الإحتياطى المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية .

ولبث الجيشان الخصمان ، كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر ،

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 331 & 332

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ ، والمعجب للمراكشى ص ٧١ .

مدى أيام ثلاثة ، والرسل تتجاوب بينهما . وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة ، عملا بأحكام السنة كتاباً يعرض عليه فيه الدخول فى الإسلام ، أو الجزية أوالحرب[١] ، ومما جاء فيه : « بلغنا يا أدفونش ، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً ، ورد على أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد ، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه ممهوراً بتلك العبارة ، « الذى يكون ستراه »[٢] .

وحاول ألفونسو خديعة المسلمين فى تحديد يوم الموقعة ، فكتب إلى المعتمد ابن عباد ، يوم الخميس ، يقول له إن غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، وبعده السبت يوم اليهود ، وهم كثير فى محلتنا ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فيكون اللقاء بيننا يوم الاثنين ، فأدرك ابن عباد ويوسف خديعته ، وجاءت طلائع المعتمد فى الليل تنبىء أن معسكر النصارى فى حركة وضوضاء وجلبة أسلحة ، مما يدل على استعداد القوم لبدء القتال . ومن ثم فقد لبث المسلمون على أهبتهم حذرين متحفزين[٣] .

وقد حدث فى الواقع ما توقعه المسلمون ، فإنه ما كاد يتنفس صبح اليوم التالى ، وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م)[٤] ،

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٨ ،ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢

(٣) الحلل الموشية ص ٣٩ ، والروض المعطار ص ٩٢ . وهذا ما يقرره يوسف نفسه فى خطابه عن الموقعة إلى المغرب (راجع روض القرطاس ص ٩٧) .

(٤) تختلف الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ المعركة، فيقول ابن خلكان (نقلا عن البياسى) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج٢ ص ٤٨٤) ويتفق ابن الأثير معه فى السنة ، ولكنه يقول إنها كانت فى أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) . ويقول المراكشى إنها كانت فى رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) . ولكن ورد فى روض القرطاس (ص ٩٦) ، وفى الحلل الموشية (ص ٤٠ و ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ . وهذا هو التاريخ الصحيح ، وهو الذى يذكره يوسف بن تاشفين فى خطابه بالفتح إلى عدوة المغرب ، حيث يقول فى ختامه « وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وربعمائة =

حتى زحف النصارى وابتدأ القتال ، واشتبك الجيشان فى معركة عامة ، فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التى يقودها ألبارهانيس ، على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية ، والتى يقودها ابن عباد . وكان هجوماً عنيفاً ردها عن مواقعها ، واختل نظامها فارتد معظمها نحو بطليوس . ولم يثبت فى وجه المهاجمين سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ، فقاتلوا النصارى بشدة ، وأثخن أميرهم الباسل جراحاً ، وتفرق معظمهم من حوله ، وكثر القتل فى جند الأندلس ، وكادت تدور عليهم الدائرة ، دون أن يتقدم لإنجادهم أحد . وفى الوقت نفسه كان ألفونسو قد هاجم مقدمة المرابطين ، التى يقودها داود بن عائشة ، وردها أيضاً عن مواقعها . فى تلك الآونة العصيبة ، دفع يوسف بقوات البربر التى يقودها أبرع قواده ، وهو سير بن أبى بكر اللمتونى لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً ، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة ، وسرعان ما تغير وجه المعركة ، واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم ، وعاد الفارون إلى صفوفهم . واضطرمت المعركة فى هذا الجناح رائعة ، ترجح بها كفة المسلمين ، وكان ألفونسو ، فى ذلك الوقت قد تقدم فى هجومه ، حتى صار أمام خيام المرابطين ، واقتحم الخندق الذى يحميها . ولكن حدث فى نفس الوقت ، أن لجأ يوسف إلى خطة مبتكرة ، إذ تقدم فى قواته الاحتياطية من لمتونة وصنهاجة ، وتجاوز النصارى المهاجمين ، وقصد إلى المعسكر النصرانى ذاته ، وهاجمه بشدة ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ، ففتك بها ، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين ، وأثخن فيهم من الوراء ، وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء ، ثم أضرم النار فى محلة القشتاليين ، فارتفعت ألسنتها فى الهواء ، فلما علم ألفونسو ما حل بمعسكره ، ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك ، فاصطدم بمؤخرة المرابطين ، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة ، مزقت فيها صفوف القشتاليين ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة ، وهنالك استؤنفت المعركة ، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول ، ويحث جنده على

= موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى (روض القرطاس ص ٩٨) . وهذا التاريخ نفسه أعنى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ ، هو الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة . والظاهر أن أصحاب التواريخ المخالفة لم يطلعوا على كتاب يوسف بالفتح .

وراجع أيضاً : Dozy : Histoire, V. III. p. 129 & notes

الثبات ، ويرغبهم فى الاستشهاد، ودوى الطبول من حوله يصم الآذان . وينوه الأستاذ پيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها فى اضطراب القشتاليين ، ويقول إنه لم يسبق من قبل أن عرفت الجيوش الإسبانية ، مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض ، ومن جهة أخرى ، فقد عمد المرابطون إلى القتال فى صفوف متراصة متناسقة ثابتة ، وهى أيضاً خطة جديدة لهم فى القتال ، ولم يكن للفرسان النصارى عهد بمثلها ، إذكانوا معتادين على القتال الفردى . ومن ثم فقد ألفوا أنفسهم بالرغم من تفوقهم فى السلاح ، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المتراصة التى تفوقهم بكثافتها وعديدها(١) .

واشتد هجوم المرابطين فى نفس الوقت بقيادة سير بن أبى بكر على مقدمة القشتاليين التى يقودها ألبارهانيس ، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها ، وكثر القتل من الجانبين فى صفوف القشتاليين . وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود ، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة ، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ، وأن يطعنه بخنجره فى فخذه طعنة نافذة . وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه أنهم يواجهون الموت ، إذا استمروا فى موقفهم، وعندئذ بادر ألفونسو فى فل من صحبه وأشرافه إلى التراجع ، والاعتصام بتل قريب حتى دخل الليل، فسار وصحبه تحت جنح الظلام ، وتقدر الرواية من أفلت مع ملك قشتالة بنحو أربعمائة أوخمسمائة فارس ، معظمهم جرحى . وكانت صفوف النصارى قد مزقت عندئذ فى كل ناحية شر تمزيق ، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى ، وطورد الفارون فى كل مكان ، وهلك كثيرون منهم أثناء المطاردة ، ولم ينقذ البقية الباقية من النصارى سوى دخول الظلام ، وأمر يوسف بوقف المطاردة .

وأمضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب ، يرقبون حركات النصارى ، وفى صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم فى مطاردة المتخلفين ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب وكانت عظيمة وافرة . ويشير يوسف فى رسالته بالفتح إلى المعز بن باديس، إلى وفرة الغنائم من الخيل والبغال والحمير والثياب والأوبار

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ، وراجع أيضاً :
R. M. Pidal : ibid., p. 335 & 339

ويقول لنا إن الفارس الواحد كان يربط معه خمسة أفراس أو أزيد .

وتقول الرواية الإسلامية ، إنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس أو أقل ، هم الذين فروا مع ملك قشتالة . وتابع ملك قشتالة فراره مع فلوله ولم يتوقف إلا عند قورية ، على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة . وتضيف الرواية إلى ذلك أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مثخنين بالجراح ، فمات معظمهم فى الطريق ، ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة[1] .

وهذا هو نفس ما يقرره يوسف فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به إلى المغرب حيث يقول : « وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس »[2] . بيد أنه فى رسالته التى بعث بها إلى المعز بن باديس ، والتى يصف لنا فيها معركة الزلاّقة تفصيلا ولاسيما الدور الذى قام به مع جنده ، يقول لنا ، إنه علم أن الذى انقطع به ألفونسو من عسكره يبلغون نحو ألفى رجل ، قد أثخن معظمها جراحة ، وأنهم انتظروا حتى دخول الليل ، ثم لجأوا إلى الفرار . ثم تقول الرواية الإسلامية أيضاً إن المسلمين لم يخسروا فى المعركة سوى نحو ثلاثة آلاف[3] ، ويقول لنا يوسف فى رسالته إنه قُتل من أكابره نحو العشرين ، هذا فى حين أن النصارى قد هلك معظمهم : وتذهب فى تقدير خسائر النصارى إلى حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف[4] : بيد أن هناك أقوالا أكثر اعتدالا ، فيروى مثلا أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى فقطعت وجمعت ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن من فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدى المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً ، وأن رؤوس القتلى التى وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفاً ، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى ، لتوزع على قواعده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمانين ألف فارس ، ومائتى ألف راجل ، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم إلا ألفنش فى مائة فارس ، ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها هى التى وردت

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) الحلل الموشية ص ٤٣ .

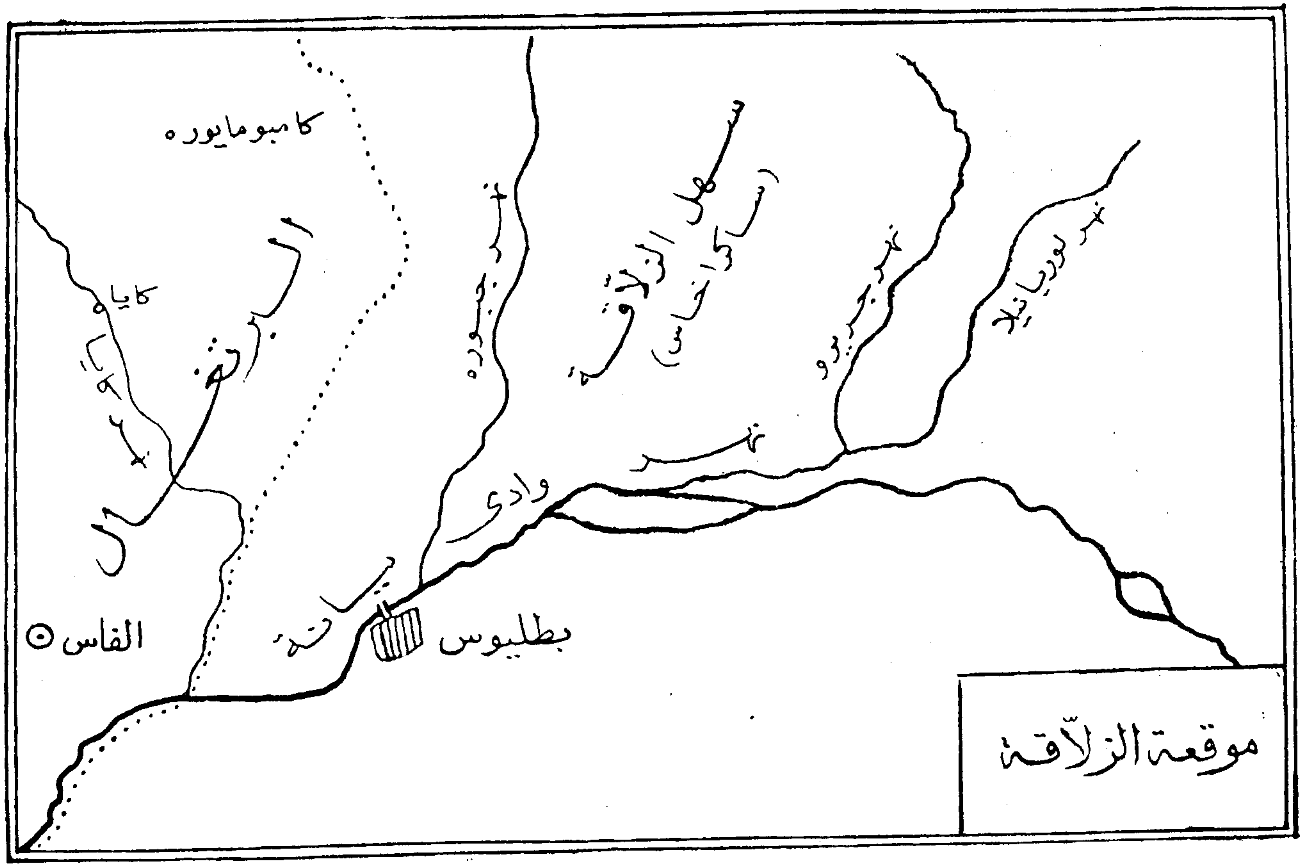
موقعة الزلاّقة
كامبومايوره
البرتغال
نهر كايا
نهر جيوره
سهل الزلاّقة
(ساكراخاس)
نهر جيريرو
نهر لوريانيلا
وادي يانة
نهر
بطليوس
القاس

فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به يوسف إلى المغرب[١] . وهذه كلها أقوال تحمل طابع المبالغة بلا ريب ، وإن كانت الرواية النصرانية تجمع على أن الموقعة كانت هائلة ، وأن خسائر النصارى كانت فيها ذريعة فادحة . ولا ريب أيضاً أن خسائر المسلمين كانت عظيمة ، وإن كانت أقل بكثير من خسائر النصارى ؛ وليس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف فى مثل هذه الحشود الضخمة . ذلك أنه فى معركة ، يطبعها من الشدة والتفانى والحماسة الدينية ، ما طبعت به موقعة الزلاّقة . لابد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين ، الظافر والمغلوب .

وذاعت أنباء النصر فى الحال فى سائر جنبات الأندلس ، وطيرت إلى سائر القواعد الأندلسية . واستبشر المسلمون فى شبه الجزيرة بما آتاهم الله من عزيز نصره . وكتب يوسف بأنباء الواقعة أو بالفتح حسبما يوسم خطابه إلى بلاد العدوة ، وكتب رسالته المسهبة عن الموقعة وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وهى التى أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة . وتجاوبت أصداء النصر فى سائر مدن المغرب وإفريقية ، وعم الفرح والبشر سائر الناس ، فأخرجوا الصدقات ، وأعتقوا الرقاب . وقيل إن يوسف اتخذ لقبه «أمير المسلمين» عقب نصر الزلاّقة[٢] وأن أمراء الأندلس ، حينما هنأوه بالنصر أسبغوا عليه هذا اللقب ، ولكنا رأينا فيما تقدم ، أنه اتخذ هذا اللقب بالمغرب قبل ذلك بأعوام عديدة . بيد أنه مما يلفت النظر أن أمير المسلمين وحلفاءه الأندلسيين ، لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة العدو داخل بلاده ، والزحف إلى أراضى قشتالة ، بل ولم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها ، وهى كانت معقد المحنة التى دفعت ملوك الطوائف إلى الاستغاثة بالمرابطين . ولو بذل المرابطون هذه المحاولة ، فى الوقت الذى حطم فيه جيش قشتالة وفتحت حدودها ، لكللت بالنجاح بلا ريب .

وقد قيل لنا فى ذلك إن ابن عباد نصح لأمير المسلمين بمطاردة ملك قشتالة والقضاء على فلوله ، فاعتذر يوسف عن ذلك بحجة أنه يجب انتظار ورود

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ و ٩٧ . وراجع أيضاً أقوال الروايات الإسلامية الأخرى عن خسائر النصارى فى الموقعة ، فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٦ .

الفارين من المسلمين أولا ، حتى لا يهلكهم النصارى . ونسبت فى ذلك إلى كلا الرجلين نيات مريبة(١) .

وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد ، وتفرق الجيش الإسلامى ، فارتد أمراء الأندلس كل إلى بلاده . ونلاحظ فيما يتعلق بأمراء الأندلس، وموقف كل منهم خلال المعركة، أن الرواية الإسلامية تخص المعتمد ابن عباد بتقديرها وثنائها . فقد انكشفت سائر القوات الأندلسية الأخرى فى بداية المعركة : قوات بطليوس وغرناطة وألمرية ، وارتدت منهزمة صوب بطليوس، ولم تعد إلى الميدان إلا حينما لاحت طوالع النصر . ولكن المعتمد ثبت أمام القشتاليين حسبما أسلفنا ، وأبلى وجنده الإشبيليون خير البلاء ، وأثخن جراحاً ولم يغادر ميدان المعركة ، حتى تداركته النجدات المرابطية(٢) . وينوه أمير المسلمين بثبات المعتمد وبطولته فى ذلك اليوم فى خطابه بالفتح إلى المغرب إذ يقول : « ولم يثبت فيهم (أى رؤساء الأندلس) غير زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل والصنع الجميل »(٣) . وينوه بذلك أيضاً فى رسالته إلى المعز بن باديس ويذكر المعتمد فيها بعطف وإجلال ، ويثنى عليه الثناء الجم . بيد أنه مما كدر صفو هذا النصر ، أن تلقى أمير المسلمين فى نفس هذا اليوم ذاته ، نبأ وفاة ولده وولى العهد الأمير أبى بكر ، وكان قد استخلفه فى مراكش وتركه مريضاً بسبتة ، فقرر العودة فوراً إلى المغرب ، ويؤكد لنا صاحب روض القرطاس أنه لولا ذلك المصاب ما عاد يوسف بمثل هذه السرعة(٤) . بيد أنه قيل فى ذلك إن إسراع يوسف بالعود ، لم يكن راجعاً إلى وفاة ولده ، بل كان يرجع بالأخص إلى استيائه وتبرمه بما شهده من أحوال أمراء الأندلس، وخلافاتهم فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين شعوبهم(٥) . ومن ثم فقد عاد أمير المسلمين فى قواته إلى إشبيلية فاستراح بظاهرها أياماً ، ثم قفل راجعاً إلى المغرب، تاركاً من جنده ثلاثة آلاف رهن تصرف المعتمد .

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ؛ والروض المعطار ص ٩٢ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٧ .

(٤) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٥) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٧ .

ويعلق العلامة المستشرق الأستاذ كوديرا على ذلك بقوله : « إنه كان من حسن الطالع بالنسبة للنصارى أن يوسف الظافر فى الزلاقة ، قد تلقى عقب نصره نبأ وفاة ولده الأمير أبى بكر سير ، واضطر أن يعود إلى مراكش تاركاً فكرة مطاردة الجيش المنهزم ، واجتناء الثمرة التى يمكن أن تجنى من مثل هذا النصر العظيم، وهى الاستيلاء على طليطلة . وهى فكرة كانت تبدو طبيعية ولكنها لم تكن قد استقرت فى ذهنه بصورة عملية ، وذلك بالرغم مما يقوله لنا المؤرخون العرب من أنه لولا موت ابنه لما غادر الأندلس بهذه السرعة . وبالرغم من أن المؤرخين يؤكدون أن هزيمة ألفونسو السادس كانت مروعة . وأنه استطاع الفرار بمنتهى المشقة ، مع نفر قليل من صحبه، فإن قواته لم تتضعضع ، كما يتصور ، بدليل أنه لم يمض سوى قليل ، حتى غدا فى ظروف تسمح له بالهجوم ، ولكن الحظ كان ضده دائماً »(١) .

* * *

وقد كان يوم الزلاقة من أيام الإسلام المشهودة فى انتصاره على النصرانية . ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية فى سهول الزلاقة، إنما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها . والتى اضطرمت بعد ذلك بقليل فى المشرق، فى الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانيا . فموقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة ، وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم الطوائف . ذلك أن فورة المرابطين الدينية ، التى اجتاحت بوادى المغرب ومدنه فى فترة قصيرة ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لنصرة الدول الإسلامية بادىء ذى بدء ، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك، كانت عنيفة رائعة، توجست النصرانية منها ، واستشفت فى اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذى كان غير مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا . وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه الفورة بعد موقعة بلاط الشهداء وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل (سنة ٧٣٢ م) مرتين : الأولى فى عهد الناصر لدين الله، والثانية فى عهد الحاجب المنصور ، وفى كلتا المرتين ، رُدت اسبانيا النصرانية إلى ما وراء الجبال الشمالية ونفذ الإسلام إلى قاصية اسبانيا .

---

(١) F. Codera : Decadencia y Desparicion de los Almoravides en Espana (Zaragoza 1899) p. 243

وإن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة ، ليؤكد هذا المعنى الصليبي ، الذى ينطوى عليه لقاء الزلاقة . فهو قد شعر بأن ذلك التحالف بين الإسلام فى إفريقية والأندلس ، يوشك أن يقضى على اسبانيا النصرانية ، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية ، ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه ، يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم ، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون ، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ، وسوف يتركهم أحراراً فى عبور البرنيه . وقد ألفت صيحة ألفونسو صداها فى فرنسا ، وفى مختلف الإمارات الفرنجية التى حولها ، وبادر أمير برجونية الدوق أودو ، وهو صهر ألفونسو ، إذ كانت عمته الملكة كونستانس ، بحشد الأمداد ، وشاركه فى ذلك الكونت دى سان چيل أمير تولوشة . وهرع إلى التطوع فرسان من نورماندى وبواتو ، ومن سائر أنحاء فرنسا . وسارت بالفعل قوى الأمداد صوب اسبانيا . ولكن ألفونسو حين علم بأن يوسف بن تاشفين قد عبر البحر فى معظم قواته عائداً إلى المغرب ، بعث إلى الأمراء الفرنج يشكرهم ، وينبئهم برحيل المرابطين ، وأنه لم تعد ثمة ضرورة لمقدمهم[1] .

واقتصرت الحرب الصليبية عندئذ على منطقة الثغر الأعلى ، حيث كان بنوهود أمراء سرقسطة ، يواجهون عدوان سانشو راميرز ملك أرجوان ، ومحاولاته المتوالية للاستيلاء على تُطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وكانت طوائف المتطوعة من الفرنج تهرع إلى تلك الحملات الغازية ، لتشترك فيها .

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة موقعة الزلاقة ، وصبغتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الدينية . من ذلك ما قصه علينا يوسف نفسه فى رسالته لمناسبة عبوره البحر ، من المغرب إلى الأندلس ، وما دعا به ربه حينما ثارت العواصف فى وجه سفنه ، وما تلا ذلك من هدوء العواصف والموج ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم[2] . ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين ، توالت عليه الأحلام المرعبة ، فرأى ذات يوم أنه يركب فيلا ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مرعباً كلما قرعه ، وأن فقيهاً مسلماً من أهل طليطلة ، فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 310

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ .

مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة وقد كان يركب الفيل أيضاً[1]. ومنه مبالغات الرواية الإسلامية فى فداحة خسائر النصارى ، ومبالغتها فى نفس الوقت فى قلة خسائر المسلمين مما تقدم ذكره ، إلى غير ذلك .

على أن هذه الأساطير والمبالغات لا يمكن أن تثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الموقعة الشهيرة ، ولا تنتقص من شأن نتائجها الحاسمة . فقد كان من النتائج العملية المباشرة لنصر الزلاّقة ، أن عادت إلى اسبانيا المسلمة روح الثقة والأمل ، وأخذت قواها المتخاذلة فى الانتعاش والنهوض من عثارها ، وأن عادت إلى الشعب الأندلسى روح الحماسة الدينية ، التى كاد يقضى عليها أمراء الطوائف بتصرفاتهم المشينة ، وترامیهم على أعتاب الملوك النصارى ، وتحرر أمراء الطوائف من ذلك الخزى الذى لحقهم عصراً بالخضوع لملك قشتالة ، ونكلوا عن دفع المغارم التى كان يقتضيها منهم برسم الجزية . بيد أن هذه النتائج المحلية الخاصة ، لا تعد شيئاً إذا قيست بالنتائج العامة البعيدة المدى ، التى ترتبت على هذا النصر الباهر . ففى سهول الزلاّقة ارتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة ، بعد أن كان ينذرها بالمحو والفناء العاجل ، وغنم الإسلام حياة جديدة فى اسبانيا ، امتدت إلى أربعة قرون أخرى ، ومهدت السبل لسيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة ، ومن بعدهم لخلفائهم الموحدين ، وجعلت الأندلس ، ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً . وبالرغم من أن حياة اسبانيا المسلمة ، لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين اسبانيا النصرانية ، فإنها قد استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضارى الباهر .

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة الزلاقة : روض القرطاس ص ٩٣ — ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٣٣ — ٤٦ ، والمعجب للمراكشى ص ٧٠ — ٧٣ . والروض المعطار ص ٧٦ — ٩٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ — ٥٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨١ وما بعدها ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢—٥٣ . وراجع أيضاً Dozy : Histoire, V. III. p. 129—130 ، وكذلك : R. M. Pidal ibid., p. 331—340

الفصل الثالث

الفتـــح المرابطى

القسم الأول

صريخ أهل شرق الأندلس إلى يوسف . النصارى يتخذون حصن لييط قاعدة للعدوان . مسير المعتمد إلى مرسية وفشله فى استردادها . عبور ابن عباد إلى العدوة واستنصاره بيوسف . عبور يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . كتبه إلى الرؤساء ومسيره إلى شرق الأندلس . محاصرة القوات المرابطية والأندلسية لحصن لييط . صمود النصارى وعجز المحاصرين عن اقتحامه . الخلاف بين أمراء الطوائف وشكاويهم المتبادلة . القبض على ابن رشيق وتسليمه لابن عباد . غضب جند مرسية وأثره فى المعسكر المحاصر . مقدم ملك قشتالة لإنجاد الحصن . إنسحاب المسلمين وعودة يوسف إلى المغرب . مقدم يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة . مشروعه فى الاستيلاء على الأندلس . بواعث هذا المشروع . موقف ملوك الطوائف . محالفة بعضهم لملك قشتالة . فتاوى الفقهاء فى شأنهم . طمع المرابطين فى خصب الأندلس . العامل الدفاعى وأثره . مسير يوسف إلى طليطلة وارتداده عنها . مسيره إلى غرناطة . عبد الله بن بلقين ومحالفته السرية مع ملك قشتالة . محاصرة المرابطين لغرناطة . سوء الأحوال داخل المدينة . خروج عبد الله وتسليمه لأمير المسلمين . دخول المرابطين غرناطة . استيلاؤهم على مالقة . القبض على عبد الله وأخيه تميم وإرسالهما إلى العدوة . مقدم ابن عباد وابن الأفطس وجفاء يوسف نحوهما . الوحشة بينهما وبين يوسف . تأهب الجيوش المرابطية لافتتاح قواعد الأندلس . خطة يوسف لافتتاح إشبيلية . فتاوى الفقهاء ضد المعتمد . المعتمد وملك قشتالة . أهباته الدفاعية . استيلاء سير ابن أبى بكر على طريف . زحف الجيوش المرابطية على رندة وجيان وقرطبة . سقوط جيان . مهاجمة قرطبة واقتحامها . مقتل حاكمها الفتح بن عباد . قصة زائدة الأندلسية . الأسطورة النصرانية حولها . الزعم بكونها ابنة المعتمد وزواجها من ألفونسو السادس . التفسير الحقيقى للأسطورة . حقيقة شخصية زائدة . نصوص تاريخية قاطعة .

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب عقب موقعة الزلاّقة فى شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، حسبما أسلفنا ، ولبث فى حضرته مراكش حتى أوائل العام التالى ، ثم خرج منها ليطوف بالعمالات ، ويتفقد أحوال البلاد ، وكانت شئون الأندلس خلال ذلك مازالت تلاحقه ، وكان أهل الأندلس ، قد أيقنوا عقب موقعة الزلاّقة ، أنه لاسبيل لنجاتهم ، وخلاصهم من إرهاق النصارى ، سوى الالتجاء إلى عاهل المغرب وأنجاده المرابطين ، ومن ثم فقد عادت كتب

أهل الأندلس ووفودهم تترى على يوسف ، وتستجير به من عدوان النصارى. وكان الصريخ هذه المرة آتياً بالأخص من أهل بلنسية ومرسية ولورقة ، وكانت شئون شرق الأندلس يومئذ قد سادها الاضطراب ، من جراء تدخل القشتاليين فى شئون بلنسية ، وسيطرتهم عليها عن طريق صنيعتهم القادر بن ذى النون ، وما تلا ذلك من مغامرات السيد إلكمبيادور فى تلك المنطقة . بيد أنه كان ثمة مصدر آخر للعدوان المباشر فى منطقة مرسية ولورقة وبسطة ، هو حصن أليدو Aledo (وتسميه الرواية العربية حصن لييط) ، وكان ألفونسو السادس قد بعث فى ربيع سنة ١٠٨٥ م ، على أثر استيلائه على طليطلة ، قواته بقيادة غرسيه خمينس إلى الأندلس الشرقية ، لتغير عليها ، وتعيث فى أراضيها ، فاجتاحت المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة . ثم عمد القشتاليون ، لكى يبسطوا قبضتهم على تلك المنطقة، إلى إنشاء حصن ضخم ، وافر المناعة ، فى مكان يسمى أليدو (لييط) يقع بين مرسية ولورقة ، وهو أقرب إلى لورقة ، وشحنوه بالسلاح والمقاتلة ، واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضى مرسية والمرية ، وبثوا فيها الرعب والروع ، وعجزت القوات الأندلسية المحلية عن رد عدوانهم ، حتى ضج أهل هذه الأنحاء مما ينزل بهم من صنوف الضر والأذى، وكثر صريخهم واستغاثاتهم ، وتوالت كتبهم ورسلهم على أمير المسلمين فى طلب الإنجاد والغوث(١) .

وكان المعتمد بن عباد ، وهو صاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة ، أشد الناس اهتماماً بإنقاذ تلك المنطقة من عدوان القشتاليين. وكان ألفونسو عقب هزيمة الزلاقة قد عزز حامية لييط وضاعفها ، وأوعز إلى قائده غرسيه خمينس بأن يشدد الضغط والتنكيل بأراضى لورقة ومرسية انتقاماً من المعتمد ، لكونه قد خرج عليه ، وعمل على استدعاء المرابطين(٢) ، وبلغت حامية هذا الحصن الضخم يومئذ ثلاثة عشر ألف مقاتل منهم ألف فارس ، وكان يشاطر المعتمد هذا الاهتمام ، المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، لما كان ينزل بأراضيه من عيث نصارى أليدو (لييط) ، وكان المعتمد يتوق فى نفس الوقت إلى استرداد سلطانه الحقيقى فى مرسية ، وهى يومئذ تحت حكم ابن رشيق الفعلى ، فحشد حملة من جنده ، ومن المرابطين الذين تركهم يوسف ، وسار أولا إلى لورقة ، فامتنعت

(١) الحلل الموشية ص ٤٧ و ٤٨ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid., p.319

(٢) روض القرطاس ص٩٨ ، وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 361

عليه ، فغادرها إلى مرسية ، وضرب حولها الحصار ، ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب المرابطين ، وأن يقنعهم بأن يتركوه فى سلام . وهكذا فشلت الحملة وعاد ابن عباد إلى إشبيلية دون أن يحقق أى نجاح(١) .

فاعتزم المعتمد أمره فى استدعاء يوسف ، للمعاونة فى قمع شر حامية أليدو النصرانية ، وعبر البحر بنفسه إلى المغرب مع بعض خاصته ، فلقى أمير المسلمين بوادى سبو ، وأفضى إليه بملتمسه ، وشرح له ما يلقاه المسلمون فى منطقة مرسية ولورقة وغيرهما ، من عسف النصارى وغاراتهم ، وشنيع عيثهم ، فوعده يوسف بإجابة ملتمسه ، وكان قد تلقى قبل زيارة ابن عباد كثيراً من الكتب ، من فقهاء الأندلس وأعيانها ، يلحفون فى رجاء الإنجاد والغوث ، لقمع بغى القشتاليين ، والاستيلاء على أليدو مركز بغيهم ، وعاد ابن عباد إلى إشبيلية بعد أن اطمأن لوعد يوسف وتأكيداته ، وأخذ فى إعداد السلاح وآلات الحصار(٢) .

— ١ —

وأوفى يوسف بوعده ، وعبر البحر إلى الأندلس فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (يوليه سنة ١٠٨٨) . فتلقاه ابن عباد فى الجزيرة الخضراء بالمؤن الوفيرة ، وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى ملوك الطوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد ، وأن يوافوه بقواتهم عند حصن لييط . وكان يوسف يبغى بعد الاستيلاء على حصن أليدو ، أن يعمل للقضاء على سلطان « السيد » فى منطقة بلنسية ، ومن ثم فقد اتجه يوسف عن طريق مالقة صوب شرقى الأندلس ، ومعه المعتمد فى قواته ، وانضم إليه فى الطريق تميم بن بلقين صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، كل فى قواته . ولما وصل إلى ظاهر حصن أليدو ، وافاه هناك ابن رشيق صاحب مرسية فى قواته ، وعدة من رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان وغيرها . وضرب المسلمون الحصار حول الحصن ، وكان فضلا عن حاميته الضخمة ، التى تضم ثلاثة عشر ألف مقاتل ، يضم جماعات كبيرة من نصارى هذه المنطقة الذين التجأوا إليه . وسلط المسلمون آلات الحصار الضخمة على الحصن ،

---

(١) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 134

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٤٨ .

وضربوه بشدة ، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح الآلات الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ؛ ورد المدافعون كل محاولة للمحاصرين بمنتهى العنف والشدة ، وامتنعوا داخل حصنهم . وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ؛ كل جماعة بدورها ؛ والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وشعر أمير المسلمين من جراء ذلك بخيبة أمل مرة ، بيد أنه شعر كذلك باستياء بالغ لما شهده من أحوال أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، فقد كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أولئك الأمراء الطامعين المتنابذين ، فكان تميم صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، يشكو كل منهما الآخر ، ويتهمه باغتصاب حقوقه فى الميراث والسيادة ، وكان ابن عباد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما فى حق صاحبه لدى أمير المسلمين ، ويتهمه بمختلف التهم . وبرز من بين هذه الخصومات بالأخص خلاف المعتمد وابن رشيق ؛ فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب الولاية منه على مرسية ، واتهمه بما هو شر من ذلك ، وهو أنه متفاهم مع ملك قشتالة سراً ، وقد دفع إليه جباية مرسية ، وأنه يعاون حامية الحصن فى الخفاء ، واهتم أمير المسلمين لتلك التهم ، ومال إلى تصديقها ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان هذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ومعظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله ، غادروا المعسكر فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، ولحق به الضيق والغلاء ، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة يسير فى قوة كبيرة لإنجاد الحصن ، فآثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليين فى معركة غير مجدية . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد بداخله من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل ، ولما رأى أنه لافائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة ، قرر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه ، وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) . واحتل ابن عباد أطلال الحصن بعد أن غادره النصارى .

ولم ير يوسف بعد هذا الإخفاق مجالا لمحاولات أخرى ، فاتجه نحو لورقة ،

بعد أن ترك جيشاً مرابطياً من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة ليعمل فى منطقة مرسية وبلنسية ، وتحرك أمراء الأندلس كل إلى بلده ؛ وسار يوسف إلى المرية فالجزيرة ، ثم عبر البحر عائداً إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس(١) .

— ٢ —

ولم يمض عام آخر ، حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته ، للجواز إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) . ولم يكن جوازه فى تلك المرة تلبية لدعوة أو استغاثة من أحد ، من أمراء الأندلس ، كما حدث فى المرتين السابقتين ، ولكنه عبر عندئذ إلى شبه الجزيرة ، وقد انتهى إلى قرار بالغ الخطورة ، هو الاستيلاء على الأندلس .

وقد اختلفت الروايات فى تصوير البواعث ، التى حملت يوسف على اتخاذ هذا القرار . بيد أنه يبدو على ضوء مختلف الروايات ، أن يوسف قد تأثر منذ البداية بما شهده من اختلال أحوال أمراء الطوائف ، وضعف عقيدتهم الدينية ، وانهماكهم فى مجالى الترف والعيش الناعم ، وما يقتضيه ذلك من إرهاق لشعوبهم بالمغارم الجائرة ، وأدرك أن هذه الحياة الناعمة ، التى انغمس فيها رؤساء الأندلس وشعوبهم اقتداء بهم ، هى التى قوضت منعتهم ، وفتت فى رجولتهم وعزائمهم ، وأضعفت هممهم عن متابعة الجهاد ، ومدافعة العدو المتربص بهم ، وأن الشقاق الذى استحكم بينهم ، ولم ينقطع بعد الزلاقة ، سوف يقضى عليهم جميعاً ، إذا تركت الأمور فى مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء شبه الجزيرة فى أقرب وقت . ومن ثم فقد اعتزم أمير المسلمين أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المترفين(٢) .

ذلك هو التصوير العام ، للبواعث التى حملت يوسف بن تاشفين ، على افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، بيد أنه توجد إلى جانب ذلك بواعث معينة أخرى ، منها أن ملوك الطوائف لما شعروا بتغير يوسف عليهم ، توافقوا على

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٨ و ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٤٧ — ٥٠ . وراجع : R. M. Pidal : ibid., p. 364 & 365 وكذلك ، Dozy : Histoire, V. III. p. 139 & 140

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ٨٩ .

قطع المدد والمؤن عن عساكره ومحلاته التى تركها بالأندلس ، فساءه ذلك[١] ، ومنها ما وقف عليه يوسف ، من رجوع بعض رؤساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة وممالأته ، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه ، وإمداده لذلك بالأموال والهدايا ، وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة[٢]، ثم كان فيما بعد موقف المعتمد بن عباد ، وقد عمد كلاهما فى الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها[٣] .

والظاهر أيضاً أن أمير المسلمين لم يتخذ قراره الخطير بافتتاح الأندلس فجأة ، ولكنه عمد إلى دراسته ومشاورة الزعماء والفقهاء فى أمره، وقد تلقى فى ذلك فتاوى الفقهاء من المغرب والأندلس ، بوجوب خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع الأمر من أيديهم ، بل لقد تلقى مثل هذا الرأى من أكابر فقهاء المشرق ، وفى مقدمتهم أعلام كالإمام الغزالى ، وأبى بكر الطرطوشى نزيل مصر يومئذ وغيرهما[٤] . وإذاً فقد التمس أمير المسلمين لتنفيذ مشروعه ، سند أحكام الشرع ، وتأييد أهل الرأى ، قبل الإقدام عليه .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم ، ذلك الباعث الطبيعى ، الذى يضطرم به كل زعيم قوى وكل متغلب ، ونعنى شهوة الفتح والتوسع ، فلا ريب أن يوسف بن تاشفين وصحبه ، وهم أولئك البدو الصحراويون ؛ قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها ، وطيب هوائها . ومن ثم فإن الرواية تحدثنا بصراحة عن « طمع يوسف فى الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها » وتذكر لنا أنه قال يوماً لبعض ثقاته ؛ «كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد (الأندلس) صغرت فى عينى مملكتى »[٥] .

اجتمعت هذه البواعث كلها ، لتحمل يوسف على فتح الأندلس ، وهى بواعث فوق وضوحها ، تسجلها لنا الرواية جميعاً . بيد أننا نستطيع أن نستشف

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٩ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ . وراجع : R. M. Pidal ibid., p. 394

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ .

(٥) المعجب ص ٧٤ . وراجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٣، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣ .

من قرار يوسف باعثاً آخر ، لم تفطن إليه الرواية الإسلامية ، ولعله من البواعث الهامة ، فى مشروع عاهل المرابطين ، وهو العامل الدفاعى والاستراتيجى. ذلك أن يوسف أدرك لأول وهلة ، أن دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة ، لاتستطيع فى ظل أمرائها المترفين الخانعين دفاعاً عن نفسها ، وأنه إن تخلى عنها ، فسوف تسقط حتما فى يد ملك قشتالة القوى . ولم تغب عن يوسف ، وهو ذلك الجندى العظيم، أهمية الصلة الدفاعية والاستراتيجية الوثيقة ، التى تربط بين ضفتى العدوة والأندلس ، المتقابلتين على طرفى المضيق ، ولم يفته أن يدرك أن سقوط الأندلس ، فى أيدى النصارى ، معناه سقوط جناح المغرب الدفاعى من الشمال ، ومعناه تهديد اسبانيا النصرانية لسلامة المغرب ، متى اجتمعت قواها ، وتوفرت لديها وسائل العدوان ، ومن ثم فقد قرر أن يبادر إلى احتلال رقعة الوطن الأندلسى ، لينقذ الأندلس من هذا الخطر الداهم ، وليدعمها ، ويضاعف أهباتها الدفاعية ، ويمكنها من تأدية مهمتها الاستراتيجية فى رد عادية العدوان ، لا عن نفسها فقط ، ولكن عن المغرب أيضاً . ولم ينس أمير المسلمين فى ذلك ، أن ملك قشتالة استطاع عقب استيلائه على طليطلة ، أن يجتاح أراضى الأندلس الوسطى كلها ، منذ نهر التاجه جنوباً حتى أرض الفرنتيرة ، وأن يصل إلى ثغر طريف قبالة العدوة ، دون أن يقف فى سبيله أحد من ملوك الطوائف ، وكان فى ذلك من بوادر الخطر على أرض العدوة القريبة ما فيه .

— ٣ —

عبر أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ ، حسبما قدمنا . وكان أبلغ ما أهمه عندئذ ما تواتر إليه من أخبار عن الاتفاقات السرية التى يعقدها المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، وعبد الله بن بلقين ، مع ألفونسو السادس ملك قشتالة للتعاون فى رد المرابطين . واتسمت حملة يوسف فى البداية بطابع الجهاد ، حيث سار توا إلى طليطلة ، واجتاح فى طريقه أراضى قشتالة . ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف يومئذ لمعاونته أو السير معه . وربما كان يوسف يرجو أن يسترد طليطلة ، فيشفى بذلك جرح الأندلس الدامى ، ويكتسب عطف أهل الأندلس جميعاً . وعاث المرابطون فى أحواز طليطلة وخربوا ضياعها ، وانتسفوا زروعها ، ثم ضربوا الحصار حول العاصمة القوطية القديمة

وعاصمة قشتالة يومئذ ، وكان بداخلها ألفونسو السادس وحليفه سانشو راميرز يقومان بالدفاع عنها ، بيد أن المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية ، وحصانتها الفائقة ، بعبث المحاولة ، فتركوا الحصار ، وارتد يوسف بقواته إلى الجنوب(١) .

وعرج يوسف بجيشه على فحص غرناطة ، وكان قد قرر أمره نحو غرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين ، بل ونحو أمراء الطوائف جميعاً . وكان عبد الله فى الواقع مذ عاد من حصار أليدو ، ولما شعر به من تغير يوسف ، قد عاد إلى استئناف صلاته بألفونسو السادس ، عن طريق قائده ومبعوثه فى تلك المنطقة ألبار هانيس ، وعقد معه فيما يبدو محالفة سرية لمقاومة المرابطين . ويعترف الأمير عبد الله فى مذكراته بهذه الصلات ، ولكنه يقول لنا إنها لم تكن سوى التزام منه بدفع الجزية لألفونسو ، وتعهد من ألفونسو بألا يعترض له بلداً ولا يغدر به(٢). ويقول لنا ابن عذارى من جهة أخرى إن عبد الله بن بلقين كان أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين ، فنظر فى اختيار الآلات وألحق الرماة والرجال ، وأعلا الأبراج ، وبنا الأسوار ، ونصب الرعادات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدّ فى ضرب السهام ، ونقل المال والذخيرة ؛ وخرج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها فى غاية المنعة ، وعلى ضفة البحر ، وعمد إلى مال كثير ، وثياب نفيسة ، وتحف جليلة ، وأعلاق دقيقه ، فوجه بها إلى أذفونش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه ان البلد بلده وأن فيه قايده ، فاهتز لذلك الأذفونش ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ، أن يشد اليد عليه فى ملكه ، ولا يتركه لضيم ولا خصيمة ، وأن ينهض إليه بنفسه ، ويبذل جهده فى نصره ، فقويت نفس حفيد باديس بذلك . وفى ذلك يقول صفيه وأثيره السمسرى :

صانع أذفونش والنصارى   فانظـــر إلى رأيه الوبير
وشاد بنيانه خـــلافا   لطاعة الله والأمـــير
يبنى على نفسه سـفاها   كأنه دودة الحــرير

(١) روض القرطاس ص ٩٩ . وكذلك R. M. Pidal : ibid,, p. 394 & 395

(٢) كتاب التبيان ص ١٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

دعوه يبنى فسوف يدرى إذا أتت قدرة القدير[1]

على أن ما استقر فى ذهن يوسف ، وما نهضت عليه الأدلة ، وأكده رسله يومئذ ، هو أن المعتمد بن عباد ، وعبد الله بن بلقين وغيرهما من أمراء الطوائف ، قد عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية ، يتعهدون فيها بالامتناع عن معاونة المرابطين بالمال والمؤن ، وبالانضواء تحت لواء ألفونسو وحمايته . وكان بعض حشم عبد الله ولاسيما مؤمل مولى جدّه باديس ، قد اتصلوا بأمير المسلمين ، وأكدوا له مداخلة عبد الله لملك قشتالة ، واهتمامه بتجديد الأسوار وتحصين المدينة . ومن جهة أخرى فقد أصدر فقهاء غرناطة فتوى بخلع عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة ، لما يرتكبانه من المظالم والخروج على أحكام الدين ، وأهابوا بيوسف أن يرغم أمراء الطوائف على اتباع أحكام الشرع وإلغاء المكوس ، والمغارم الجائرة ، التى يفرضونها على رعيتهم تعسفاً وظلماً .

وفرض أمير المسلمين على غرناطة شبه حصار ، وقام عسكره بحراسة حصونها الخارجية ، حتى لايأتيها مدد من النصارى ، وطلب المؤن والعلوفات ، فبادر عبد الله بتقديمها . وكانت الأحوال فى غرناطة قد ساءت ، وشاع الخلاف والتمرد بين سائر الطوائف ، وأدرك عبد الله أنه لاسبيل إلى المقاومة ، وأرسل إلى أمير المسلمين رسله ومعهم بعض المال ، فعادوا إليه بأمان يوسف « فى النفس والأهل دون المال » ، كما عرض عليه يوسف أن يختار بلداً آخر لإقامته غير غرناطة . فتمهل عبد الله وقتاً . والظاهر أنه كان ينتظر عوناً من القشتاليين لم يتحقق . وفى خلال ذلك كانت أمه وخاصته يلحون عليه فى الخروج إلى أمير المسلمين ، والانقياد لأمره ، كأفضل حل للموقف . ولما اقترب أمير المسلمين بمحلته من المدينة ، واشتد بها الهياج ، رأى عبد الله أنه لامناص من اتباع هذا النصح ، فسار إلى محلة يوسف ، وقدم إليه نفسه ، فأصدر له أماناً فى نفسه وأهله ، وأمر باعتقاله ؛ حتى يتم ضبط أمواله ، وكانت لدى عبد الله وأمه أموال طائلة ، مكدسة منذ أيام جده باديس ، وعلى أثر ذلك أقبل الفقهاء والأعيان إلى محلة يوسف وبايعوه بالطاعة . ودخل يوسف مع قادته وجنده مدينة غرناطة ونزل بقصرها ، واستولى على ما فيه من الأموال والتحف الجليلة ، وأذاع فى

---

(١) نقلت من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القرويين بفاس .

الناس ، أنه سوف يحكم بالعدل والرفق وفقاً لأحكام الشرع ، ويعمل على إقامة الخير بينهم ، والذب عن حوزتهم ، وأنه سوف يرفع عنهم سائر المغارم الجائرة ، ولا يفرض عليهم من التكاليف والالتزامات إلا ما يجيزه الشرع . وكان خلع عبد الله بن بلقين بن باديس فى اليوم العاشر من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٠)[1] .

وبعث أمير المسلمين فى الوقت نفسه سرية من جنده إلى مالقة ، فقبضت على صاحبها تميم بن بلقين أخى عبد الله ، وحمل مكبلا إلى العدوة ، ثم أرسل إلى السوس . وكان الفقهاء قد اتهموه بطائفة من المظالم الشنيعة وطالبوا بخلعه[2] .

وأخذ عبد الله وأهله أولا إلى الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوا إلى سبتة ، فكناسة وأخذوا أخيراً إلى مدينة أغمات ، حيث تقرر إقامتهم ، وأنزلوا هنالك دارا حسنة ، وعوملوا برفق ورعاية ، وعاش عبد الله بأغمات حتى توفى . وكتب فيها مذكراته الموسومة بكتاب «التبيان» ، وهى التى رجعنا إليها فى غير موضع . وعفا أمير المسلمين فيما بعد عن أخيه تميم ، فسكن مراكش حتى توفى بها فى سنة ٤٨٨ هـ[3] .

وهكذا سقطت أول دولة من دول الطوائف فى أيدى المرابطين ، وكان سقوطها نذيراً باضطرام العاصفة ، التى قدر لها أن تجتاح الطوائف جميعاً . وشعر المعتمد بن عباد بخطورة هذا النذير ، بيد أنه كان من جهة أخرى ، مايزال يعلل نفسه بمختلف الآمال الغامضة ، وكان قد استقبل يوسف عند مقدمه بالجزيرة الخضراء ، وقدم إليه المؤن والضيافات المعتادة ، ويقال إن يوسف وعده عندئذ بغرناطة متى استولى عليها[4] . فلما ظفر يوسف بامتلاكها ، سار المعتمد ومعه زميله المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة ، فقدما التهنئة لأمير المسلمين بهذا الفتح . وظن المعتمد عندئذ أن يوسف سوف ينجز وعده بالنزول له عن غرناطة ، مقابل

---

(١) يراجع فى حوادث سقوط غرناطة فى أيدى المرابطين : كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٧ — ١٦٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ و ١٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. III. p. 141—144 ، وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 394 — 396

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٢ و ١٦٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٣) كتبان التبيان ص ١٧١ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٤) كتاب التبيان ص ١٦٤ .

استيلائه على ثغر الجزيرة ، ولكن يوسف استقبلهما بجفاء ، فانصرفا عنه ، وقد أدركا الحقيقة المروعة ، وشعرا بأن النهاية المحتومة ، قد أضحت على وشك الوقوع . وعاد المعتمد إلى إشبيلية ، وهو يعتزم الدفاع عن مملكته جهد الاستطاعة وأخذ فى التأهب ، وإقامة التحصينات والأسوار ، وساءت العلائق بينه وبين أمير المسلمين بسرعة ، وكثرت بينهما الوقيعة والسعايات ، ودعا أمير المسلمين المعتمد إلى لقائه فرفض ، وطلب إليه أن يتبع أحكام الشرع ، وأن يلغى المكوس الجائرة ، وأن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى ، فلم يجبه إلى شىء[1] .

وغادر أمير المسلمين غرناطة ، وجاز إلى العدوة فى شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ ، وفوض إلى قائده الأكبر سير بن أبى بكر اللمتونى شئون الأندلس . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إنه لم يأمر قائده فى أمر ابن عباد بشىء ، وقيل من جهة أخرى ، إنه أمره بمحاصرة ابن عباد فى إشبيلية ، وأنه متى انتهى من أمر إشبيلية ، فليتقدم إلى بلاد ابن الأفطس[2] . وقدم أمير المسلمين قائده ابن الحاج على جيش آخر ، وعهد إليه بمنازلة قرطبة ، وعليها ولد المعتمد الفتح الملقب بالمأمون ، وقدم أبا زكريا بن واسنو على جيش ثالث ، وعهد إليه بمحاصرة المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وقدم جروراً الحبشى على عسكر رابع وعهد إليه بمنازلة يزيد الراضى ولد المعتمد برندة . وأقام أمير المسلمين بسبتة يجهز الجيوش والأمداد ، ويترقب نتائج أعمال جيوشه فى شبه الجزيرة .

— ٤ —

كان من الواضح ، على ضوء هذه الأهبات الضخمة ، التى اتخذت لمهاجمة قواعد مملكة إشبيلية فى وقت واحد ، أن يوسف بن تاشفين ، كان يرى فى مملكة إشبيلية واسطة عقد الأندلس ، وفى أميرها المعتمد بن عباد ، عميد الطوائف ، فإذا سقطت فى يده إشبيلية ، كان له ملك الأندلس .

ولم يكن أمير المسلمين تعوزه المبررات فى قتال ابن عباد ، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية . ذلك أنه احتاط للأمر ، واستصدر الفتاوى الشرعية اللازمة ، من فقهاء المغرب والأندلس ، بأن مسلك المعتمد فى مصانعة

---

(١) الحلل الموشية ص ٥١ و ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٠ ، وكتاب التبيان ص ١٦٩ .
(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، والحلل الموشية ص ٥٢ .

النصارى ، وتسليمهم البلاد ، والاحتماء بهم ، ومسلكه إزاء شعبه فى اقتضاء المكوس الجائرة ، وغير ذلك مما يخالف أحكام الشرع ، ومجاهرته بالمعاصى ، كل ذلك مما يفقده أهليته لحكم المسلمين ، ويوجب محاربته وخلعه(١) . أما عن المبررات المادية ، فقد وقعت فى يد يوسف بعض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة ، يستغيث به ويطلب معونته(٢) وكان المعتمد بعد أن رأى جنود قشتالة تجتاح بلاده ، وتمعن فى تخريبها ، دون أن يستطيع دفعاً لهم ، وشعر من جهة أخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطرة ، قد أيقن أنه لامعدى له عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، والتفاهم معه على دفع المرابطين عن الأندلس .

وبينما كان المعتمد منهمكاً فى أهباته الدفاعية بإشبيلية ، كان قائد المرابطين سير بن أبى بكر ، يضع خططه النهائية للانقضاض على قواعد مملكة إشبيلية ، وقد بدأ فى ذلك بالاستيلاء على طريف أقصى ثغورها الجنوبية ، وذلك فى شوال سنة ٤٨٣ هـ (ديسمبر ١٠٩٠ م) ونادى فيها بدعوة أمير المسلمين(٣) ، ثم اتجه نحو الشمال قاصداً إشبيلية ، بينما زحفت الجيوش المرابطية الفرعية على رندة وجيان وقرطبة . فأما رندة فقد حاصرها القائد جرور المرابطى بقواته ، وكان يضطلع بالدفاع عنها يزيد الراضى ولد المعتمد . وكانت رندة من أمنع القواعد الجنوبية ، فصمد بها الراضى ، واضطر جرور أن يقنع بالحصار منتظراً سير الحوادث . وأما جيان ، فقد زحف عليها جيش مرابطى بقيادة بطى بن اسماعيل وضرب حولها الحصار . وهنا يقول لنا ابن الخطيب إن جيشاً من القشتاليين قدم لإنجاد جيان ، تنفيذاً للحلف المعقود بين ابن عباد وملك قشتالة ، وإنه نشبت بين المرابطين والنصارى موقعة أبيد فيها المرابطون(٤) . بيد أن ابن أبى زرع يقول لنا بالعكس إن بطى حاصر جيان حتى دخلها صلحاً ، وكتب سير بالفتح إلى أمير المسلمين ، وأمر بطى بالسير بقواته إلى قرطبة(٥) . وقد ذكرنا من

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٩ .

(٣) المعجب ص ٧٥ . وكذلك : R. M. Pidal : ibid, p. 398

(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٥) روض القرطاس ص ١٠٠ .

قبل وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية، أن القوات المرابطية التي سارت لمنازلة قرطبة كانت بقيادة ابن الحاج . وعلى أى حال فقد زحف المرابطون على قرطبة، وبها حاكمها ولد المعتمد ، الفتح الملقب بالمأمون ، وكان قد اتخذ كل الأهبات الدفاعية الممكنة ، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله تحوطاً إلى حصن المدور[١] ، الواقع جنوب غربى قرطبة على ضفة نهر الوادى الكبير ، لكى تبقى بمنجاة من الخطر ، وحتى تستطيع أن تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة ، وقد كان هذا الإجراء فيما يبدو بإشارة المعتمد أو بموافقته . والواقع أن قرطبة لم تصمد طويلا ، فقد اقتحمها المرابطون بعنف ، وقتل الفتح بن عباد خلال الهجوم مدافعاً عنها ، ورفع المرابطون رأسه على رمح . وكان افتتاح المرابطين لقرطبة فى اليوم الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (٢٦ مارس سنة ١٠٩١ م)[٢] .

* * *

وهنا يجب أن نقف قليلا ، لنتناول مسألة تاريخية هامة ، غمرتها الأسطورة مدى عصور ، ثم ألقى عليها البحث الحديث ضوءه المقنع ، تلك هى قصة زائدة الأندلسية .

لقد ذكرت الروايات الإسبانية النصرانية ، المعاصرة واللاحقة ، أن ألفونسو السادس قد تزوج من ابنة للمعتمد بن عباد تسمى « زائدة » أو أنه قد اتخذها خليلة ، وأنجب منها ولده الوحيد سانشو . وتزيد على ذلك أن المعتمد نفسه ، حينما شعر بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، واستغاث بألفونسو لمعاونته على دفعه ، هو الذى قدم ابنته المذكورة للملك النصرانى ، وأنه نزل له عن مواضع معينة من أراضى مملكة طليطلة ، كان قد افتتحها، لتكون مهراً لابنته المذكورة ، وترجع بعض الروايات المتأخرة هذا التصرف من جانب ابن عباد إلى فرصة سابقة على مقدم المرابطين ، وتقول إنه كان ضمن مغريات الحلف الذى عقده المعتمد مع ألفونسو عن طريق وزيره ابن عمار ، وأخيراً أن هذا التصرف قد أثار فضيحة كبيرة فى الأندلس ، واتهم ابن عباد بالتفريط فى عرضه ودينه[٣] .

---

(١) وهى بالإسبانية Almodavar del Rio

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، وراجع : R. M. Pidal: ibid. p. 405

(٣) وردت هذه القصة ضمن رواية Pelayo de Oviedo المعاصرة ، وقد نشرت ضمن

وقد استمرت التواريخ النصرانية تتناقل هذه الأسطورة عصوراً كأنها حقيقة لاريب فيها ، وتتحدث دائماً عن « زائدة الأندلسية » Zaida la Mora أو Ceida وعن ذريتها النصرانية . ونقول نحن إنه لاتوجد بين هذه التفاصيل المغرقة ، سوى حقيقة واحدة هي شخصية زائدة المذكورة ، وأنها كانت حقيقة زوجة أو خليلة لألفونسو السادس ، وقد أنجب منها ولده سانشو الذى قتل طفلا فى موقعة إقليش (٥٠١ هـ - ١١٠٨ م) . ولكنها لم تكن ابنة للمعتمد بن عباد ، ولم يقدمها المعتمد لألفونسو ثمناً لحلفه ، وهذا هو اب الأسطورة كلها . وهذا هو وجه الإغراق والتحريف . ذلك أنه مما لايسيغه العقل أن يرضى أمير عظيم مسلم كالمعتمد بن عباد ، أن يزوج ابنته من أمير نصرانى أو أن يقدمها له جارية وحظية ، ومهما كان من استهتار المعتمد وتسامحه الدينى ، وإذا فرضنا أنه لم يكن يقيم فى مثل هذا التصرف الشائن ، وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ، وهو فى ذاته مما لايقبله العقل ، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه السياسية ، وخصوصاً فى مثل هذه الظروف الدقيقة التى كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه ، وأن يسحقه ويسحق أسرته : ومن جهة أخرى فإن المعتمد كان يرمى من جانب خصومه فى الدخل وفى الخارج بألسنة حداد من أجل استهتاره وتهاونه الدينى ، ولم يكن من المعقول أن يقدم بمثل هذا التصرف إلى خصومه سلاحاً جديداً يضعه فى صف المارقين والخوارج على الدين .

أما التفسير الحقيقى لهذه القصة ، وهو ماكشفت عنه البحوث والنصوص الوثيقة ، فهو أن زائدة هذه كانت حسبما تقدم زوجة للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون حاكم قرطبة ، وأن المأمون حينما هاجم المرابطون المدينة ، أرسل زوجته وولده وأمواله إلى حصن المدور ، أو أنه حينما اقتحم المرابطون المدينة وقتل الفتح ، استطاعت زائدة أن تلوذ مع أولادها بالفرار ، وأن تلجأ إلى حصن المدور ،

مجموعة Espana Sagrada للأب Flores (الجزء الرابع عشر) . وذكرها رودريك الطليطلى فى روايته التى وردت فى : De Rabis Hispaniea ، وكذلك لوقا التطيلى فى روايته Cronicon Mundi على اختلاف فى بعض التفاصيل ، وذكرها الأب فلوريس فى تاريخه Flores : Reynas Catolicas ومن المؤرخين المحدثين Modesto Lafuente فى تاريخه : Historia general de Espana وراجع أيضاً R: M. Pidal : ibid., p. 760-764 حيث يلخص سائر الروايات المتقدمة .

ثم التجأت إلى حماية ملك قشتالة، حينما اشتد خطر المرابطين على سائر تلك الأنحاء وربما كان ذلك بموافقة المعتمد . ولما كانت زائدة على جانب كبير من الجمال ، وكان الملك النصرانى من جهة أخرى مزواجاً ، كلفاً بالنساء ، فقد انتهز فرصة التجائها إليه ، واتخذها خليلة ثم تزوجها . وتقول الروايات القشتالية فى هذا الموطن ، إن زائدة كانت تحب الملك النصرانى « بالسماع » ، وتتوق إلى الزواج منه ، وأن المعتمد (بزعم أن زائدة كانت ابنته) قد نزل لملك قشتالة فى هذه المناسبة عن قونقة ، ووبذة وإقليش وأوكانيا وكونسوبجرا وغيرها من الأماكن ، وهى التى كان قد افتتحها من مملكة طليطلة أيام بنى ذى النون ، وذلك كمهر لزائدة . وقد يكون المعتمد قد نزل حقاً عن هذه الأماكن وغيرها لملك قشتالة ، ولكن ذلك لم يكن سوى بعض ما تعهد به لملك قشتالة كثمن لحلفه وعونه . ومتى تقرر أن زائدة ، لم تكن ابنته، فإنه لامحل أن يقرن هذا التنازل من جانب المعتمد بقصة زواج زائدة من الملك النصرانى. ونقول تتمة لقصة زائدة إنها غدت خليلة أو زوجة لملك قشتالة ، على الأرجح عقب سقوط قرطبة بقليل ، فى أوائل سنة ١٠٩٢م ، وأنها بهذه المناسبة اعتنقت النصرانية وتسمت باسم « إيسابيل » ، وفى رواية باسم ماريا ، ونصر أولادها من الفتح ، ومن كان معها من الحشم ، ورزق منها ألفونسو بولده الوحيد سانشو ، وتوفيت زائدة عند مولد ولدها سانشو، ودفنت بدير سأهاجون وذلك فى سنة ١٠٩٧، أو ١٠٩٨ م . ولما اجتاح المرابطون أراضى قشتالة ، فى أوائل عهد الأمير على بن تاشفين ، وسار القشتاليون لمحاربتهم تحت أسوار قلعة إقليش ، بعث ألفونسو بولده الصبى سانشو على رأس الجيش لكى يثير حماسة الجند ، فقتل فى الموقعة التى نشبت بين الفريقين ، وقتل معه معظم أكابر الجيش وقادته ، وذلك فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٨ م) . وتوفى ألفونسو على أثر ذلك غما وحزناً(١) .

ولم تذكر لنا الرواية الإسلامية اسم زائدة ، ولاشيئاً من قصتها بطريق مباشر ، ولكنها مع ذلك تقدم إلينا الدليل القاطع على حقيقة شخصيتها وصفتها ، ولدينا فى ذلك نصان كلاهما حاسم فى تقرير هذه الحقيقة .

أولها ما ورد فى تاريخ ابن عذارى « البيان المغرب » فى أخبار سنة ٥٠١ هـ

---

(١) راجع R. M. Pidal : ibid., p.495, 496 & 760-764

وهى الموافقة لسنة (١١٠٨ م) عن الحملة التى أرسلها ألفونسو السادس ضد المرابطين لإنجاد قلعة إقليش ، وقد جاء فيه : « وفى خلال ذلك وصل إليه (إلى حصن إقليش) ولد أذفونش شانجه من زوج المأمون بن (عباد) التى كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس »[١] .

والثانى نص أورده الونشريشى فى كتابه : « المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » وقد جاء فيه عن موضوع الخوف على الأبضاع والفروج ما يلى : « ومنها الخوف من الفتنة على الأبضاع والفروج ، ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضىء من كلاب الأعداء وخنازير البعداء ، فيغرها فى نفسها ويغرها فى دينها ، ويستولى عليها وتطاوعه ، ويحال بينها وبين وليها بالارتداد فى الدين ، كما عرض لكنة المعتمد بن عباد ومن لها من الأولاد ، أعاذنا الله من البلاء وشماتة الأعداء »[٢] .

تلك هى الحقيقة حول أسطورة زائدة « ابنة » المعتمد بن عباد ، وتقديم أبيها المعتمد إياها زوجة لألفونسو السادس ، اكتساباً لمحالفته وعونه ضد المرابطين ، وهى أسطورة لبثت عصوراً تمثل فى الروايات الإسبانية الكنسية وغيرها كأنها حقيقة لاريب فيها . وقد زاد من غموضها صمت الرواية الإسلامية المعاصرة واللاحقة . والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من دقة وإيلام لنفوس الكريمة ، فآثروا الإغضاء عنها ، باعتبارها حادثاً لا أهمية له من الناحية التاريخية .

---

(١) وقع على هذا النص العلامة المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال فى أوراق مخطوطة من البيان المغرب لم تنشر ، عثر بها فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشر عنه مقالا عنوانه Zaida la Mora فى مجلة Hispéris XVIII (1934) فكان ضوءاً جديداً قيما على هذه الأسطورة .

(٢) وردت هذه الفقرة ضمن فتاوى الونشريشى فى كتابه السالف الذكر طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ . ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١١٤٦ الغزيرى . وقد نشرت أيضاً بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية المصرى بمدريد (المجلد الخامس ص ١٨٩) .

الفصل الرابع

الفتـــح المرابطى

القسم الثانى

استيلاء المرابطين على أبدة وبياسة وقلعة رباح . استيلاؤهم على قرمونة . زحف سير بن أبي بكر على إشبيلية . يدعو المعتمد إلى الطاعة . محاصرته لإشبيلية . تأهب المعتمد للدفاع . استغاثته بملك قشتالة . مسير الجند القشتاليين لإنجاده . القتال بين المرابطين والقشتاليين . هزيمة النصارى وارتدادهم . استماتة المعتمد فى الدفاع . خصوم المعتمد فى الداخل وتفاهمهم مع المرابطين . نجاح المرابطين فى ثلم السور . محاولتهم الدخول وردهم . حرق أسطول إشبيلية النهرى . هجوم المرابطين على المدينة واقتحامها . المعارك داخل المدينة . بسالة المعتمد فى الدفاع . استيلاء المرابطين على المدينة . أسر المعتمد ونهب قصوره . إرغامه على الكتابة إلى ولديه بتسليم رندة وميرتلة . تسليم رندة ومقتل حاكمها الراضى ولد المعتمد . رواية فى تسليم إشبيلية بالأمان . ما ينقض هذه الرواية . أقوال ابن اللبانة والفتح بن خاقان . شعر المعتمد فى ذلك . حياته المعتمد بعد سقوطه . محنة اعتقاله . مسيره إلى المنفى . نزوله بطنجة . مسيره إلى أغمات. حياته المزلة فى المعتقل . قسوة أمير المسلمين فى معاملته . وفاة اعتماد زوجة المعتمد. قول فى صفاتها . شعر المعتمد فى محنته . محنته تذكى الشعر بالأندلس . تصفيده بالأغلال . وفاته ودفنه بأغمات . ذكراه فى المغرب والأندلس . قبره يغدو مزاراً . زيارة ابن الخطيب لقبره وشعره فى ذلك . وصف لأطلال قبره . محنة المعتمد وصداها فى الرواية الإسلامية . حملة ابن الأثير على أمير المسلمين . تعليقات دوزى. قسوة أمير المسلمين وما ينتحل لها من الأعذار. المعتمد وما له وما عليه . البواعث التى دفعت يوسف إلى فتح الأندلس . تأملات حول معاملته للأمراء المنزوعين . مسير المرابطين إلى المرية . الروايات المختلفة فى شأن سقوطها . استيلاء المرابطين على بلنسية . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق . استيلاؤهم على سرقسطة. حركاتهم فى غرب الأندلس . إغاراتهم على أراضى بطليوس. ابن الأفطس واستغاثته بألفونسو السادس . مسير المرابطين إلى بطليوس وافتتاحها . مصرع المتوكل ابن الأفطس وولديه . انتهاء مملكة بطليوس . مرثية ابن عبدون لبنى الأفطس . استيلاء المرابطين على أشبونة . جواز أمير المسلمين الرابع إلى الأندلس . غزو المرابطين لقشتالة وهزيمتهم للنصارى . يوسف يعقد ولاية العهد لولده على فى قرطبة . مرض يوسف ووفاته . وصيته لولده على .

على أثر سقوط قرطبة ، استولى المرابطون على أبدة وبياسة وشقورة ، فى شرقى قرطبة ، وعلى حصن البلاط والمدور فى غربها . وبعث فاتح قرطبة القائد بطى بن اسماعيل إلى قلعة رباح ، وهى قاصية أراضى المسلمين ، حملة من ألف فارس ، فاحتلتها . وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضى الوادى الكبير ،

وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية ، ما عدا رندة وقرمونة وإشبيلية . وفى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ ، نجد قائد المرابطين العام، سير بن أبى بكر أمام أبواب قرمونة . وكانت قرمونة أمنع قواعد مملكة إشبيلية الشمالية ، وهى حصن إشبيلية من الشرق ، فنازلها سير ، ودخلها عنوة فى السابع عشر من ربيع الأول (١٠ مايو سنة ١٠٩١ م) . وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية .

ويقول لنا ابن أبى زرع فى هذا الموطن، إن سير بن أبى بكر ، حينما أشرف على إشبيلية ، وقبل الزحف على قرطبة ، كان يعتقد أن المعتمد ، سوف يخرج إليه ، ويتلقاه كعادته بالمعاونة والضيافات ، ولكنه تحصن بالمدينة ولم يعن بشأنه ، فكتب إليه سير ، يطلب إليه تسليم البلاد ، والدخول فى الطاعة ، فرد المعتمد بالرفض، فضرب سير الحصار حول المدينة ، وأخذ فى منازلتها ومقاتلة ابن عباد . ويقدم إلينا ابن خلكان رواية مماثلة ، إذ يقول إن يوسف أمر سيراً أن يعرض على ابن عباد أن يتحول إلى بر العدوة بأهله وماله ، فإن قبل فبها ونعمت ، وإن أبى فينازله ، فلما عرض سير ذلك ، لم يعطه ابن عباد جواباً ، فنازله ، وحاصره أشهراً (١) .

حاصر المرابطون إشبيلية بقوات ضخمة ، ولم يشك المعتمد منذ البداية ، أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرته بكل ما وسع ، واستغاث بحليفه ألفونسو السادس ملك قشتالة .وكان ألفونسو قد اهتز لاجتياح المرابطين مملكة إشبيلية على هذا النحو الصاعق ، وأدرك من جانبه أن المسألة لم تعد تتعلق فقط بمملكة إشبيلية، ولا ملوك الطوائف وحدهم ، وإنما أضحت مشكلة شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، ومسألة خطر اجتياح المرابطين لها واحتلالهم إياها . وكانت تجمعه فى ذلك مع ابن عباد قضية واحدة ، هى قضية دفع خطر المرابطين عن الوطن المشترك ، ومن ثم فقد بادر من فوره بإرساله حملة قوية بقيادة ألبار هانيس أكبر قواده وأبرعهم ، لإنجاد ابن عباد . وتقول الرواية الإسلامية إن هذه الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل(٢) ، وتقول الرواية النصرانية إنها كانت تتألف فقط من

---

(١) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٧ .
(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ .

ألفي وخمسمائة فارس . وبعث سير بن أبي بكر لقتال القشتاليين حملة من عشرة آلاف فارس ، بقيادة ابراهيم بن إسحاق اللمتونى ، وهى حملة تقدرها الرواية النصرانية بخمسة عشر ألفاً . والتقى القشتاليون والمرابطون على مقربة من حصن المدور ، وفى رواية أخرى أن اللقاء كان فى بلمة من أحواز إشبيلية[1] ، ونشبت بينهما معركة عنيفة ، قتلت فيها جموع كبيرة من الفريقين ، وانتهت بنصر المرابطين وارتداد القشتاليين ، وقد أثخن قائدهم ألبار هانيس جراحاً[2] ، وانهار بذلك آخر أمل كان يعلقه ابن عباد على معاونة حلفائه القشتاليين .

واستمر حصار المرابطين لإشبيلية زهاء أربعة أشهر ، ودافع المعتمد وجنده عن حاضرتهم أشد دفاع ، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين ومحاولاتهم ، حتى أنه ينسب لقائدهم سير بن أبي بكر أنه قال « لو أنى أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع »[3] .

وفى خلال ذلك حاول جماعة من أهل المدينة من خصوم بنى عباد، أن يضرموا الثورة داخل المدينة ، حتى يضطرب أمر الدفاع ، ويمهد السبيل لدخول المرابطين . ووقف المعتمد على أمرهم ، ولكنه أبى أن يقوم بإعدامهم وفقاً لنصح قادته ؛ واكتفى بمراقبتهم والتحوط لسعيهم . وأخيراً استطاع المرابطون بمداخلة بعض أولئك الخونة ، أن يحدثوا ثلمة فى السور ، عند باب الفرج على مقربة من النهر (يوم ٥ رجب) . ووقف المعتمد على الخبر فبادر لتوه فى ثلة من فرسانه ، لرد الداخلين من جند العدو ، وهو دون درع أوعدة ، وليس عليه سوى قميص يشف عن بدنه ، وتلقى المعتمد خلال المعركة التى نشبت طعنة تحت إبطه من فارس مرابطى ، فوثب المعتمد يطاعنه فشقه بسيفه ، ومزقت تلك الثلة من المرابطين ، وأصلحت الثلمة على الأثر . بيد أنه حدث فى عصر ذلك اليوم ذاته : أن تمكن بعض المرابطين من الوصول إلى أسطول إشبيلية الراسى فى الوادى الكبير ، وأضرموا النار فيه ، فهلكت معظم سفنه ، وأدرك الناس عندئذ أن خطط الدفاع عن المدينة ، أخذت فى الانهيار ، وسرى بينهم الرعب ، وبادر كثيرون إلى الفرار ، بعضهم عن طريق النهر ، والبعض الآخر بالترامى

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ؛ وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408

(٣) كتاب التبيان ص ١٧٠ .

من شرفات الأسوار ، أو الالتجاء إلى القنوات والمغائر ، وسيطرت الفوضى على المدينة ، وبدت طوالع النهاية منذرة مروعة .

وفى خلال ذلك كان سير بن أبى بكر ، يحشد قواته وينظم الضربة الأخيرة . ووقعت الضربة الحاسمة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م)[١] ، حيث هاجم المرابطون إشبيلية بشدة. واقتحموها من ناحية الوادى الكبير ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً . ونشبت بينهم وبين المدافعين عن المدينة معارك محلية عنيفة ، وهجمت فرقة من المرابطين على القصر الملكى ، فاستقبلهم المعتمد على باب قصره فى ثلة من فرسانه وخاصته، يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ، أشد دفاع وأروعه ، ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على المدينة،وعلى القصور الملكية ، وأسروا المعتمد وآله،وقتلوا ابنه مالكا الملقب بفخر الدولة بين يديه ، ونهبوا قصوره – على قول المؤرخ « نهباً قبيحاً » – واحتووا على سائر ذخائره وأمواله ، وساد القتل والعيث والنهب فى المدينة الغنية التالدة . وكانت محنة مروعة .

وأصدر سير بن أبى بكر أماناً للمعتمد « فى النفس والأهل والولد »[٢] ولكنه أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضى وأبى بكر المعتد ، ينصحهما بالخضوع والتسليم ، وكان الأول حسبما تقدم ممتنعاً برندة ، والثانى ممتنعاً بميرتلة (أو مارتلة) فى جنوبى البرتغال. وكانت رندة بالأخص ما تزال صعبة المنال، نظراً لحصانتها الفائقة ، وقد يطول صمودها . وانضمت « السيدة الكبرى» أعنى اعتماد الرميكية أم الأميرين إلى زوجها المعتمد ، فى حثهما على التسليم واستعطافهما رحمة بوالديهما . فأذعن الأميران للرجاء . فأما يزيد الراضى المدافع عن رندة ، فقد قبل التسليم بعد أن قطع له جرور القائد المرابطى عهده

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٧٠ ، وهى رواية معاصرة حيث يضع هذا التاريخ لسقوط إشبيلية . ويوافقه فى ذلك ابن أبى زرع (روض القرطاس ص ١٠١) . ولكن عبد الواحد المراكشى يضع لذلك يوم الأحد ٢١ رجب ٤٨٤ هـ (المعجب ص ٧٦) . ويقول ابن الخطيب إن سقوط إشبيلية كان فى يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ (أعمال الأعلام ص ١٦٤) . ومن المحقق أن الرواية الأولى هى الراجحة ؛ وتوافقها التواريخ النصرانية ، وهى تضع لذلك يوم ٧ سبتمبر الموافق للتاريخ الهجرى .

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ .

بالأمان ، بيد أنه ما كادت تفتح أبواب المدينة ، ويدخلها المرابطون ، حتى أمر جرور بالقبض على الراضى وإعدامه ، وانتهاب أمواله ، ناكثاً بذلك بعهده أشنع نكث ، وأمر بقتل كل من ظفر به من الأحرار والجند المدافعين (رمضان سنة ٤٨٤ هـ) . وأما فى ميرتلة ، فقد أبقى المرابطون على حياة المعتد ، وقنعوا بنهب أمواله[(١)] . وتم للمرابطين بذلك الاستيلاء على سائر قواعد مملكة إشبيلية .

وكان يزيد الراضى ، ويكنى أبا خالد ، أنبه أبناء المعتمد فى ميدان الشعر والأدب ، وكان شاعر بنى عباد بعد أبيه ، وقرينه فى نظم القريض الفائق . وكان فوق ذلك عالما أديبا ، حافظاً للشريعة ، خبيراً بأنساب العرب ولغاتها . ومن شعره قوله :

يحل زمان المرء ما هو عاقد ... ويسهر فى إهلاكه وهو راقد
ويغرى بأهل الفضل حتى كأنهم ... جناةُ ذنوبٍ وهو للكل حاقد
سينهدُّ مبنىٌّ ويقفر عـــامرٌ ... ويصفر مملوء ، ويخمد واقد
ويفترق الألاّف من بعد صحبة ... وكم شهدت مما ذكرت الفراقد[(٢)]

* * *

وهكذا سقطت مملكة بنى عباد فى أشهر قلائل ، وخبا نجمها الذى سطع حيناً فى سماء الأندلس وضاء عالياً ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، فى مناظر من الفروسية الرائعة تخلق بالأُلى شادوها . ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . وقد يبدو من رواية « روض القرطاس » أن المعتمد سلم عاصمته للمرابطين بالأمان مختاراً[(٣)] . والحقيقة التى تجمع عليها سائر الروايات ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية ، كما تقدم ، وأخذوها عنوة فى مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة فى الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، وحتى

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ٧٧ ، وكتاب التبيان ص ١٧١ . ونحن نذكر ان اثنين من أبناء المعتمد هما عباد بن محمد والفتح الملقب بالمأمون قد قتلا بالتعاقب فى حوادث قرطبة ، وكان هؤلاء جميعاً أبناؤه من حظيته اعتماد الرميكية . وكان له منها أبناء آخرون ، منهم أبو الحسين الملقب بالرشيد الذى عبر معه إلى العدوة (راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٦٢) .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ٧١ و ٧٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ .

اقتحم الأعداء قصره وأسروه . وقد انتهت إلينا فى ذلك رواية شاهد عيان ، هو أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة ، فهو يصف لنا فى كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية » ، مناظر سقوط إشبيلية حسبما شهدها بنفسه فى قوله: « إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب فى الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه ، ما لامزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ، فشنت الغارة فى البلد ، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى »[١] .

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ، ومعاصرهم تقريباً ، منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه فى عبارته المسجعة فيما يلى : « ولما انتشر الداخلون فى البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) والموت يتسعر فى ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم فى رحبة القصر وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رجتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً ، وملأتهم فرقاً ، ومازال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره واستمسك يومه وليلته ، مانعاً لحوذته ، دافعاً للذل عن عزته ... »[٢]

وأخيراً يقول لنا ابن الخطيب : « وكان دخول إشبيلية على المعتمد دخول القهر والغلبة يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، وشملت الغارة ، واقتحمت الدور ، وخرج ابن عباد وابنه مالك للدفاع ، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ، وأرهقت ابن عباد الخيل ، فدخل القصر ملقيا بيده »[٣] .

---

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٣ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ فى ترجمة المعتمد بن عباد . وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاماً .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٣١٩ هـ) ج ٢ ص ٨٢ .

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه فى وصف صراعه مع أعدائه فى ذلك اليوم المشهود :

إن يسلب القــوم العدا   ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعــه   لم تُســلم القلب الضلوع
قد رُمْت يوم نزالهــم   ألاّ تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص   عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تســيل   إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخــر لم يكن   بهــواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتــال   وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنــا منهــم   والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره ، بعد سقوط حاضرته ، وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه المتين ، فاستسلم إلى هوان الأمر ، وقبض عليه المرابطون وعلى سائر آله وولده ونسائه (١).

— ٢ —

ويجدر بنا قبل أن نتم الكلام على فتوح المرابطين لممالك الطوائف ، أن نتتبع مصير المعتمد بن عباد حتى نهايته .

إن هذه المرحلة الأخيرة من حياة المعتمد ، وهى مرحلة مؤسية تنفطر لها القلوب الكريمة ، تنتمى إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ ، بما تحفل به من الآثار الشعرية الرائعة ، التى نظمها المعتمد عن محنته وآلامه فى المنفى . وقد شغلت هذه المرحلة على قصرها ، من صحف التاريخ والأدب ، فراغاً كبيراً لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية كلها .

(١) راجع فى سقوط إشبيلية : روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ، وقلائد العقيان ص ٢١ و ٢٢ ، وكتاب التبيان ص ١٧٠ و ١٧١ ، والمعجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ وأعمال الأعلام ص ١٦٣ و ١٦٤ ، والمقرى ج ٢ ص ٤٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ . وراجع أيضاً : R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408 ، وكذلك Dozy : Hist. V. III. p.144

وإنه لما يثير الدهشة حقاً ما انتهى إليه أمير المسلمين من التحول من تقدير المعتمد بن عباد، وإكباره والثناء البالغ على شجاعته ونجدته ومروءته ؛ فى كتبه الرسمية بالفتح ، إلى المبالغة فى خصومته ، والعمل على سحقه ، ومعاملته بأقصى ما يعامل به عدو . ويقال فى ذلك ، إنه فضلا عن البواعث السياسية والعسكرية ، فقد لعبت السعاية والوشاية فى علائق الرجلين دوراً لا يحمد، وأثارت فى قلب يوسف أمر ضروب السخط والبغض ضد المعتمد .

لم يكن سقوط إشبيلية ، وسقوط المعتمد وآله أسرى فى أيدى الظافرين خاتمة المحنة ، بل كان بداية محنة أفظع وأبلغ إيلاماً للنفس ، هى محنة الاعتقال والأغلال والذل والمنفى المروع . وكان أمير المسلمين قد قرر مصير بنى عباد ، كما قرر مصير عبد الله وأخيه تميم صاحبي غرناطة ومالقة ، وقد قتل المرابطون من أبناء المعتمد أربعة ، هم الفتح المأمون ، ويزيد الراضى ، والمعتد بالله ، ومالك ، ولكنهم أبقوا على حياة المعتمد ، وذلك فيما يبدو بإشارة أمير المسلمين ذاته ، وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه ، حسبما رأينا . وربما أراد عاهل المرابطين بذلك ، أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ فى التراب ، ذلك الذى كان يعتبره قطب الفتنة فى الأندلس ، وحليف النصارى الخانع ، المذنب فى حق دينه ووطنه ، وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه .

وهكذا انتزع المعتمد بن عباد وآله من قصر إشبيلية المنيف ، وأخذوا جميعاً إلى السفن التى أعدت لنقلهم إلى المنفى ، وسارت السفن من إشبيلية فى نهر الوادى الكبير فى طريقها إلى العُدوة ، فى مناظر تذيب القلب حزناً وأسى : وضجت جموع الشعب الغفيرة التى احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس تحيق به وجميع آله ، أغلال الاعتقال والذلة، ويغادر موطن سلطانه وعزه إلى مصيره المجهول . وفى ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر ابن اللبانة ، وقد كان من شهود ذلك اليوم من قصيدة طويلة :

نسيت إلا غداة النهر كونهم ... فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

حط القنـــاع فلم تستّر مخدرة ومزقت أوجه تمزيق أبـــراد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفـــداة ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعها كأنها إبل يحدو بها الحـــادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد(١)

وأنزل المعتمد وآله بطنجة ، واعتقلوا فيها أياماً. وهنالك زاره الحصرى الضرير الشاعر ، وألحق فى طاب الصلة، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع فى ذلك حرج الموقف ؛ وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده ، فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالا ، وشعراً يعتذر فيه عن ضآلة الهبة ، فكانت آخر صلاته الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة حيث التقوا بعبد الله بن بلقين وأخيه تميم ، وكانا ينتظران أمر السفر إلى مقرهما الأخير(٢) ؛ وهنالك قضيا بضعة أشهر ، قبل أن يرسلوا إلى مقرهم النهائى .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم جميعاً إلى أغمات ، وهى مدينة صغيرة حصينة تقع على قيد نحو أربعين كيلومترا من جنوب شرقى مراكش، على مقربة من جبال الأطلس ، التى تظلل آكامها الثلوج . وقد كانت حسبما نذكر عاصمة المرابطين الأولى . وحل المعتمد وآله فى أغمات فى أواخر سنة ٤٨٤ هـ أو أوائل سنة ٤٨٥ هـ . وبينما أنزل عبد الله بن بلقين وأسرته داراً حسنة وعوملوا برفق ورعاية ، إذ زج المعتمد وآله إلى قلعة أغمات المنيعة . وهنالك قضى المعتمد بضعة أعوام فى أغلال الأسر ؛ يتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد المُعنَّى . ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً ؛ بل كان سجناً شنيعا بكل معانى الكلمة : ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضييق ، ولم يكن يطلق لهم ما يكفيهم من النفقة ؛ فكان المعتمد ، وزوجه اعتماد الرميكية التى كانت تسطع فى الأندلس بجمالها وخلالها البارعة ، وأبناؤه الأمراء وبناته الأقمار ، يرتدون الثياب الخشنة(٣) . وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن .

(١) راجع هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٢٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و٤٥٣ ، والمعجب ص ٧٩ و ٨٠ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٧١ .

(٣) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . ومن أولاده الذين تذكرهم الرواية : الرشيد والمأمون والراضى والمعتد وعبد الله ومالك وأبوهاشم وعبد الجبار وغيرهم ممن لم تصلنا أسماؤهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عن عددهن وأسمائهن سوى بثينة ، فقد ذكرها لنا المقرى بين شاعرات الأندلس (نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩) .

وهنالك فى شعر المعتمد ما يدل على أنه كان مصفداً فى قدميه بالأغلال ، على الأقل فى أواخر أيام أسره . ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة ، بلا ريب ، وكانت قسوة لامبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق فى شىء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين ، من الفروسية والخلال الحسنة . وسنرى فيما بعد كيف يفسر هذا الموقف من جانب أمير المسلمين وكيف تلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد ، ولم تقو طويلا على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ثم توفيت ، فدفنت فى ظاهر أغمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ، فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وقد سبق أن أشرنا إلى ماكانت تتمتع به اعتماد الرميكية أيام مجدها وعزها فى بلاط إشبيلية من منزلة عالية ، وأشرنا إلى صفاتها اللامعة من الجمال والسحر والشاعرية ، والمشاطرة فى مجالس الشعر والأدب . على أن هذه الصفات الممتازة التى كانت تتمتع بها الرميكية ، وهذه الحياة السافرة اللامعة فى أعظم بلاط لملوك الطوائف ، كانت من جهة أخرى مدعاة للطعن فى تصرفها وأخلاقها . فمثلا ينقل إلينا التيجانى الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى : «وهى التى ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك ، وبتعطيل صلوات الجمع ، عقوداً ، ورفعوها إلى أمير المسلمين ، فكان من أمره معه ماكان ، وسجن المعتمد بأغمات ، وسجنت الرميكية معه ، فماتت هنالك قبله »(١) .

---

(١) نقلنا هذه الفقرة عن المخطوط رقم ٥٦٢ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال والمسمى « تحفة العروس » لأبى عبدالله التيجانى الأندلسى المالكى (لوحة ٢٠٠) . ويقدم إلينا التيجانى بهذه المناسبة ملخصاً لقصة بثينة ابنة المعتمد والرميكية، فيقول لنا إن بثينة هذه كانت مثل أمها فى الجمال والذكاء ونظم الشعر . ولما سقطت إشبيلية ، ونهبت قصور المعتمد، كانت ابنته ضمن السبايا ، ولم يعثر لها على خبر ، إلى أن كتبت إليهما بأغمات شعراً تقص فيه ما حدث لها ، وهو أنها وقعت فى يد تاجر اشتراها على أنها سرية ، فامتنعت عليه ، وعرفته بحقيقة أمرها ، وطلبت إليه أن يتزوجها زواجاً شرعياً، وكتبت إلى والديها بأغمات الشعر المشهور المتداول، ترجو فيه منهما الموافقة على زواجها منه . فسر المعتمد والرميكية بوجودها على قيد الحياة ، وكتبا إليها ، بالموافقة على رغبتها . (المخطوط السالف الذكر لوحة ٢٠١) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩ و ٤٩٠ .

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد، وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحى، فصدرت عنه فى معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية ، وكلها تلهف على سابق مجده ، وبكاء على ماضيه ، ورثاء لمحنته ، فمن ذلك قوله :

أنبـــاء أسرك قد طبقن آفاقا — بل قد عممن جهات الأرض إطلاقا
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم — حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة — وأغرق الدمع آماقاً وأحـــداقا
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها — وقيل إن عليك القيد قد ضـــاقا

وقوله :

غريب بأرض المغربين أسير — سيبكى عليــه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا — وينهـــل دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنس به — وأصبح منه اليــوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد — متى صلحت للمصلحين دهور
أذل بنى ماء السماء زمانهم — وذل بنى ماء السماء كبير
فيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة — أمامى وخلفى روضـــة وغدير
بمنبته الزيتون مورثة العـــلا — يغنى حمام أو تدن طيـــور
بزاهرها(1) السامى الذرى جاده الحيـ — ـــا تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى(1) وسعد سعوده — غفورين والصب المحب غيور
تراه عســيراً أو يسيراً مناله — ألا كل ماشاء الإله يســـير

وقوله فى أول عيد له بأغمات ، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا — فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة — يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة — أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية — كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت فى العيد لا عادت إساءته — فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا — فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به — فإنما بات بالأحلام مغـــرورا

---

(1) الزاهر والزاهى من قصور بنى عباد باشبيلية .

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن به   سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة   ولكن حنيناً إن شكلى لها شكل
فأسرع فلا شمل صديع ولا الحشى   وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

وقوله فى لوم أمير المسلمين على ظلمه :

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما   وأن يمحو الذنب الذى كان قدّما
وأن يتلقى وجه عتبى وجهـــه   بعذر يغشى صفحتيه التـــذمما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه   إلى كل صعب من مراقيك سلما
سترجع إن حاولت دونى فتكة   بأخجل من خد المبارز أحجما

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر فى الأندلس ، ونظم أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم ، والتوجع على أيامهم ، طائفة من القصائد المؤثرة ، التى مازالت تحتفظ حتى اليوم بكل روعتها وحياتها . وكان أغزرهم فى ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة ، شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على صلاته ووفائه للمعتمد ، وزاره فى سجنة بأغمات ، ونظم فى دولته وأيامه ، وفى محنته وأسره ، عدة من قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه فى تاريخ بنى عباد ، وأسماه : «كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك»[١] .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ، بيد أنه استطاع فى غمر المحنة والبؤس الطاحن ، أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع فى ظلمات سجنه ، كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق به الغمام[٢] . وفى أواخر أيامه صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق عليه وتصفيده بالإغلال ، بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى بعض حصون إشبيلية ، وكان ممن أفلت عند سقوطها وذلك حسبما نذكر بعد . وفى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ (أواخر أكتوبر ١٠٩٥ م)، توفى المعتمد فى سجنه بقلعة أغمات بعد

---

(١) يراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤١ وما بعدها ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٧ و ٤٥٨ . وكذلك فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٩ — ٦٧ . هذا وقد كتب ابن قاسم الشلبى مجموعاً فى أخبار المعتمد ابن عباد أشار إليه ابن الابار (الحلة ج ٢ ص ١٣٦) .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ (الطبعة الثانية) ص ٩٧ .

اعتقال دام زهاء أربعة أعوام(١)، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة وبضعة أشهر . ودفن بظاهر أغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية . ومما قاله فى رثاء نفسه قبل وفاته ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى ... حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا ... بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم ... بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر ... من السماء فوافانى لميعـاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... إن الجبال تهادى فوق أعـواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم ... رواك كل قطوب البرق رعاد

ويقدم إلينا صاحب البيان المغرب بعض تفاصيل عن ثورة عبد الجبار بن المعتمد وهى الثورة التى اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده فى سجنه بأغمات ، وذلك أن عبد الجبار امتنع بحصن أركش ، الواقعة جنوبى إشبيلية وشرقى شريش، فى جمع كبير من أصحابه . وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه ؛ وعلم الأمير سير اللمتونى فاتح إشبيلية بذلك ، فسار إلى أركش ، وبعث إلى أمير المسلمين يخطره بالأمر ، فبعث إليه مدداً من الخيل والرجالة، فضخمت الحملة ، وأحدقت بالحصن ، وضيقت على من فيه ، واتصلت الحرب بين الفريقين ، وابن عباد يخرج فى قواته من آن لآخر ويشتبك بالمرابطين فى معارك دامية ، وأصحابه يتساقطون من حوله تباعا . وفى ذات يوم أصاب ابن عباد سهم رماه به أحد الرماة المرابطين ، فاحتمله أصحابه جريحاً ، وتوفى لأيام قلائل ، فكتم أصحابه موته . وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر ، وفنى كثير من حامية الحصن ، واشتد بها الضيق ، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان ، فرفض الأمير سير ، واقتحم الحصن أخيراً ، وقتل معظم حاميته ، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرها ، واحتز رأسه ورؤوس أصحابه ، وحملت

---

(١) ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن وفاة المعتمد كانت فى شهر ذى الحجة سنة ٤٨٨ (الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها) . ويقول ابن الابار إنها كانت فى ربيع الأول سنة ٤٨٨ هـ (الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٥) .

إلى مدينة إشبيلية ، وعلقت على أسوارها ، ووقعت حوادث هذه الحملة فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م)[١] .

وهكذا اختتم المعتمد بن عباد حياته الباهرة ، فى غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله فى مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية فى المغرب والأندلس ، ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال فى تقلب الجدود وعبر الدهر . وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبوبحر بن عبد الصمد ، وقد كان من شعراء دولته وخاصة المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخر أمامه ، وغمره بقبلاته وبلله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التى احتشدت من حوله ، مرثيته الغراء فى المعتمد ، ومطلعها هذه الأبيات :

ملك الملوك أسامع فأنادى — أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن — فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً — وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعى — نيران حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريتــه — زادت علىّ حرارة الأكبــاد

فبكى الناس لسماعه أحر بكاء ، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج ، وكان منظراً يفتت الأكباد[٢] .

* * *

وقد أسبغت هذه البقعة التى يرقد فيها ملك إشبيلية، وأمير الشعر فى عصره، رقدته الأبدية ، شهرة مؤثرة على مدينة أغمات . ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو خمسين عاماً، غدا قبر المعتمد بن عباد وزوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً . وفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب عند زيارته لمدينة أغمات ، وهو يصفه لنا فى كتابه « نفاضة الجراب » فى قوله : « وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عباد أمير حمص

(١) البيان المغرب من أوراق مخطوطة ، عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس ، وسبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٥ — ١٧٠ حيث يورد القصيدة كلها .

وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربى رحمه الله . وهو بالمقبرة القبلية على يسار الخارج من البلد ، قد توقل نشزا غير سام ، وإلى جانبه ، قبر الحرة حظيته ، وسكن نفسه ، اعتماد ، إشراكاً لاسمها فى حروف لقبه المنسوب إلى رميك ، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص ، وحكايات الأسمار ، إلى أجداث من ولدهما فترحمنا عليه ، وأنشدته »[1] . ويعود ابن الخطيب بعد ذلك فى كتابه « أعمال الأعلام » . فيصف لنا زيارته للقبر فى تلك العبارات المؤثرة :« وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض ، وقد حفت به سدرة ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته ، مولاة رميك ، وعليها وحشة التغرب ومعاناة الخمول بعد الملك ، فلاتملك العين دمعها عند رؤيتها » ، وقد أنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات
ولم لا أزورك يا أندى الملوك يداً وياضياء الليالى المدلهمات
أناف قبرك فى هضب يميزه فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا فأنت سلطان أحياء وأموات
ماريء مثلك فى ماض ومعتقدى أن لايرى الدهر فى حال ولا آت[2]

وزاره المقرى مؤرخ الأندلس فى سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠٢ م) ورآه كما ذكر ابن الخطيب فوق ربوة فى مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً[3] .

وقد انتهزت فرصة وجودى بمدينة مراكش فى خريف سنة ١٩٥٦ ، فزرت أغمات . وقد غدت مدينة أغمات هذه ، التى اشتهرت فى التاريخ وفى الأدب لاحتوائها على قبر المعتمد بن عباد ، اليوم قرية متواضعة ، تقع على مقربة من مراكش ، ومن آكام جبال الأطلس الثلجية ، وتحيط بها غراس الزيتون والتين البرى ، ولايعدو سكانها ثلاثة آلاف نسمة . وأما قبر المعتمد ، فيقع فى ظاهرها فى طلل خرب يحيط به سور قصير ، وفى داخله حظيرتان ، فى إحداهما قبر المعتمد ، وقد خرب تماماً ونمت به الأشواك البرية ، وعليه كومة من الأحجار الصغيرة . وأما الحظيرة الأخرى فالمفهوم أنها تحتوى على قبر زوجه اعتماد الرميكية . وقد ذكرت وأنا أتأمل هذا الطلل الموحش المؤثر ، ما ذكره

---

(١) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب . مخطوط الإسكوريال رقم ١٧٥٥ الغزيرى .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٤ و ١٦٥ .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .

ابن الخطيب والمقرى من قبل، من غلبة الخمول والعفاء عليه ، وشعرت بمثل ما شعر به كل منهما من الألم والخشوع.

* * *

كانت مأساة المعتمدبن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية ، ومازالت محنة هذا الأمير ، تحتفظ إلى يومنا ، بالرغم من كر العصور ، بألوانها المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ، وفى كثير منها يُصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات . فمثلا يقول لنا ابن الأثير فى التعليق على أسر بنى عباد ومعاملتهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد من قبله ، ولايفعلها أحد ممن يأتى بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره »[١] .

ويقول العلامة دوزى معلقاً على ذلك : « ومهما كانت فضائل يوسف ، فإن الشهامة إزاء المغلوبين لم تكن منها ، فقد كان تصرفه مع الأمراء الأندلسيين الذين أسرهم قاسياً وبغيضاً » . ثم يقول، إن المعتمد لم يكن بلا ريب ملكاً عظيما ، بيد أنه ينوه بدقة حساسيته وفيض شاعريته ، التى تنعكس عليها أقل الحوادث فى حياته ، بل إنا لنستطيع أن نسجل حياة المعتمد وخلجات نفسه ، من قصائده ، ثم يقول : « ثم إنه ، أى المعتمد كان لحسن طالعه آخر ملك أندلسى ، يمثل بجدارة وروعة ، قومية وحضارة عقلية سقطتا تحت نير البربرالذين فتحوا البلاد . ولقد لزمه نوع من الإيثار باعتباره آخر فرع لتلك الأسرة العديدة من الأمراء الشعراء ، الذين حكموا الأندلس . وإنا لنأسوا له أكثر مما نأسوا لأى شخص آخر ، بل ودون أى شخص آخر ، كما تثير آخر زهرة فى الموسم ، وآخر أيام الخريف الحلوة ، وآخر أشعة الشمس الغاربة ، فى نفوسنا أيما أسى »[٢] .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص . على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

(٢) Dozy : Hist. V. III. p. 178—179

وتتلخص هذه الأعذار فى أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ، ومحالفته للنصارى على اخوته فى الدين ، وتعريضه مسقبل الإسلام للخطر ، تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة ذنبه . وقد أدرك المعتمد ، عقب سقوط طليطلة ، فداحة أخطائه ، وأبدى صريح ندمه لما أثم[1] . على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات جسام ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب ، وظهر شبح الخطر على الأندلس المسلمة ، كان أول الداعين إلى الوحدة ، وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل فى ذلك السبيل بتضحية حصونه التى طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى فى موقعة الزلاّقة أعظم البلاء ، وعاون فى نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لاريب أن البواعث التى دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، لم تكن دينية فقط ، ولم تكن بعد الزلاقة وحصار أليدو ، مجرد جهاد فى سبيل الله ، بل كانت دنيوية قبل كل شىء ، ولم يك ثمة شك فى أن الأندلس قد أغرت المرابطين وأميرهم بخصبها وغنائها ونعمائها . وإنه ليحق لنا بعد ذلك كله أن نتساءل ، أى ضرورة بل أى حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يمعنوا فيهم قتلا وتعذيباً ، على النحو الذى اتبعوه ، بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم[2] وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين ، المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لاحول لهم ولاقوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه ، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات أعماله وأخطائه كأمير ، وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه ، وأسره واعتقاله ، للتكفير عما أثم يسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشىء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

---

(١) راجع ما ورد فى رسالة ابن عباد لألفونسو السادس (ص ٧٦ من هذا الكتاب) .

(٢) قتل المرابطون ثلاثة من أبناء المعتمد بن عباد ، هم المأمون والراضى ومالك ، وقتلوا المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس ، وقتلوا كثيراً غيرهم من الوزراء والكبراء ، فى مناظر من القسوة المثيرة .

هذه تأملات تثيرها فى النفس محنة المعتمد بن عباد . ولاريب أن هذه الخاتمة المؤسية التى قدر للمعتمد أن يعانى آلامها المروعة المادية والمعنوية، لحرية بأن تسبغ عليه ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أن أمير المسلمين حينما نظم جيوشه لافتتاح إمارات الطوائف، بعث إلى ألمرية جيشاً بقيادة أبى زكريا بن واسنو (وقيل بل محمد بن عائشة) لمحاصرتها وافتتاحها . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن المرابطين أشرفوا على ألمرية ، وحاصروها ، وأميرها المعتصم بن صمادح عليل يعانى مرض موته ، وأنه ألقى بهذه المناسبة كلمته المأثورة « نغص علينا كل شىء حتى الموت » ، ثم توفى أثناء الحصار فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)(١) . وفى رواية أخرى أن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين ، وأنه كان قد أوصى ولده معز الدولة قبيل وفاته ، بأن يترقب مصير إشبيلية ، فتى سقطت فى أيدى المرابطين ، وخلع أميرها المعتمد بن عباد ، فعليه أن يغادر ألمرية فوراً ، ويعبر البحر فى أهله وأمواله ، إلى العدوة ، ويلتجىء إلى حماية بنى حماد أمراء القلعة . وقد نفذ معز الدولة وصية أبيه ، واستطاع أن ينجو بأهله وأمواله ، وأن يغادر ألمرية فى آخر لحظة ، قبل أن يطوقها المرابطون ، وأن يعبر البحر إلى العدوة (رمضان سنة ٤٨٤ هـ) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة ألمرية(٢). ودخل المرابطون ألمرية على الأثر واحتلوها ، فكانت ألمرية بعد غرناطة وإشبيلية ، ثالثة مملكة من ممالك الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين .

وقد ذكرنا فيما تقدم كيف احتل المرابطون مدينة مرسية بقيادة ابن عائشة وذلك فى شوال سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٠٩١ م) ، ثم استولوا فى العام التالى (٤٨٥ هـ) على شاطبة وشقورة ودانية .

ونحن نعرف مما تقدم من أخبار مملكة بلنسية، أن المرابطين بدأوا يتدخلون فى حوادث بلنسية ، ويبذلون جهودهم لتحطيم مغامرات « السيد » فى هذه المنطقة ، وذلك منذ سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) . وقد قام الجيش الذى يقوده

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٢ . والطبعة الجديدة ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٤ ، وروض القرطاس ص ١٠١ .

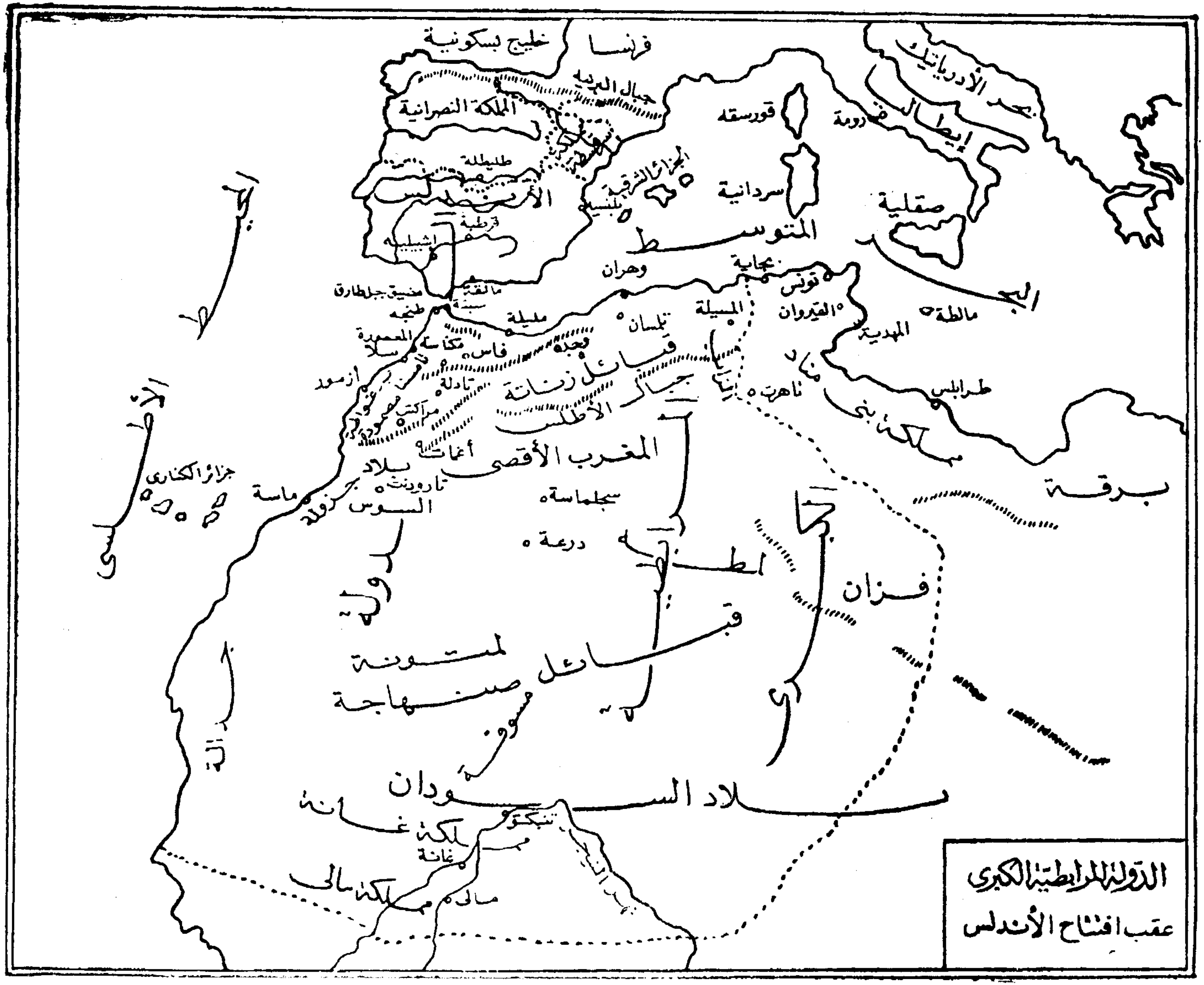

الدولة المرابطية الكبرى
عقب افتتاح الأندلس
فرنسا
خليج بسكونية
جبال البرنيه
المملكة النصرانية
طليطلة
قرطبة
اشبيلية
مضيق جبل طارق
مالقة
سبتة
طنجة
بلنسية
الجزائر الشرقية
قورسقه
سردانية
رومة
صقلية
المتوسط
البحر
وهران
بجاية
تونس
القيروان
المهدية
مالطة
طرابلس
برقة
مليلة
تلمسان
المسيلة
فاس
مكناسة
سلا
المعمورة
ازمور
تادلة
مراكش
أغمات
جبال الأطلس
قبائل زناتة
المغرب الأقصى
ناهرت
بلاد
تارودنت
السوس
جزولة
ماسة
جزائر الكنارى
سجلماسة
درعة
فزان
لمتونة
قبائل صنهاجة
مسوفة
بلاد السودان
مملكة غانة
غانة
تنبكتو
مملكة مالي
مالي

ابن عائشة بدوره فى ذلك . ثم قدم إلى شرقى الأندلس جيش مرابطى آخر ، أوفر عدة وعدداً ، بقيادة محمد بن تاشفين ابن أخى يوسف ، وحاصر بلنسية ، وفى داخلها السيد ، وذلك فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ . ولكن مقاومة السيد ،ومن بعد وفاته مقاومة القشتاليين ، استطالت بضعة أعوام ، ولم يتمكن المرابطون من دخول بلنسية إلا فى شهر شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو سنة ١١٠٢ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً فى أخبار مملكة بلنسية .

واستمرت الجيوش المرابطية فى تقدمها شمالى بلنسية ، نحو أراضى الثغر الأعلى ، واستولت على إمارة شنتمرية الشرق فى رجب سنة ٤٩٧ هـ (إبريل ١١٠٤ م) ، وكانت قد استولت قبل ذلك على إمارة ألبونت الصغيرة .وفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ، وعقب انتصار المرابطين فى موقعة إقليش ، سار جيش مرابطى بقيادة أبى عبد الله بن الحاج والى بلنسية ، شمالا صوب سرقسطة ، فدخلها ، وأخرج منها بنى هود ، وبذلك تم للمرابطين فتح شرقى الأندلس والثغر الأعلى ، وانتهت إمارات الطوائف كلها فى تلك الأنحاء .

وأما فى غربى الأندلس ، فإن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، شعر عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية ، أن الدائرة سوف تدور عليه ، وكان قبل ذلك قد تقرب من عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وبعث اليه برسالته المؤثرة التى أوردناها من قبل ، يدعوه فيها لنصرة الأندلس . ولما استولى المرابطون على غرناطة ذهب مع المعتمد بن عباد لتهنئة أمير المسلمين ، فاستقبلهما بجفاء ، وانصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر الداهم على مملكته . على أنه يبدو أن ابن الأفطس استطاع بعد ذلك أن يعمل على توثيق أواصر المودة مع المرابطين وكبيرهم الأمير سير بن أبى بكر فاتح إشبيلية وحاكمها . واستمرت هذه العلائق الودية قائمة نحو ثلاثة أعوام . ثم بدأ المرابطون الإغارة على أراضى مملكة بطليوس ، وشعر المتوكل بتغير المرابطين نحوه واتجاههم إلى إزالته ،ولم يجد أمامه إزاء هذا الخطر الداهم ، طريقاً يسلكه سوى نفس الطريق الذى سلكه ابن عباد من قبل ، وهو الاستغاثة بألفونسو السادس ملك قشتالة . وبذل ابن الأفطس لملك قشتالة ثمناً لحلفه ومعاونته ، ثلاث مدن هامة من أملاكه ، هى أشبونة ، وشنترة ، وشنترين . وقد كان لهذا التصرف وقع سيء ، إذ ، انحرف

أهل بطليوس عن المتوكل ، وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم . وفى أوائل سنة ٤٨٨ هـ (أوائل ١٠٩٥م) ، بعث حاكم إشبيلية الأمير سير بن أبى بكر جيشاً إلى بطليوس لافتتاحها ، فاخترق أراضى بطليوس بسرعة ، ولم يتمكن ملك قشتالة من تقديم أية معاونة لحليفة المسلم ، واضطر ابن الأفطس أن يمتنع بقصبة بطليوس المنيعة الضخمة . ولكن المرابطين اقتحموها بعنف ، وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس ، واستولوا على أمواله المدفونة بالقصبة ، بعد أن عذبوه لكشف مخابئها . واحتل المرابطون بطليوس ، وأخذوا المتوكل وولديه بحجة تسييرهم إلى إشبيلية ، ثم أعدموهم فى الطريق[١] . وكان للمتوكل ولد آخر هو المنصور ، وكان قد بعثه ومعه معظم ذخائره إلى حصن منتانجش على مقربة من حدود قشتالة ، ليمتنع فيه ، فلما علم بما وقع لأبيه وإخوته ، سار فى أهله وأمواله إلى ملك قشتالة ، والتجأ إلى حمايته ، وأقام بأرضه ، واعتنق النصرانية وفقاً لبعض الروايات[٢] . وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت فى ظل بنى الأفطس خمسة وسبعين عاماً ، وتم للمرابطين فتح غربى الأندلس كله ، كما تم لهم من الناحية الأخرى فتح شرقى الأندلس .

وقد أذكت محنة بنى الأفطس ، كما أذكت محنة بنى عباد من قبل ، فجيعة الشعر الأندلسى ، ونظم فى رثائهم ورثاء دولتهم وأيامهم ، وزيرهم الكاتب والشاعر المبدع ، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، مرثيته الشهيرة ، التى تعتبر من أجل المراثى الأندلسية وأروعها ، وهذا مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

ومنهـــا :

فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتنـــا ... من الليـــالى وخانتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر

---

(١) المعجب ص ٤٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٦ ، وراجع : Dozy : Hist. V. III. p. 152 وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 504

(٢) هذه رواية ابن عذارى فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها بخزانة القرويين . وراجع أيضاً أعمال الأعلام ص ١٨٦ .

تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر

ومنها فى رثاء بنى الأفطس :

بنى المظفر والأيام لا نزلت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت ... بمثالـه ليلة فى غابر العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو ... من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للبراعة أو من لليراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر

ومنها :

أين الجلال الذى غضت مهابته ... قلوبنـا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذين أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفـر
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه ... فلم يرد أحـد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا ... عنهـا استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت ... هذه الخليقة يا ألله فى سدر(١)

هذا وقد أجمل لنا مأساة الطوائف شاعر معاصر هو أبوالحسن جعفربن ابراهيم المعروف بابن الحاج اللورقى فى تلك الأبيات الثلاثة :

كم بالمغارب من أشلاء مخترم ... وعاثر الجد مصبور على الهون
أبناء معن ، وعباد ، ومسلمة ... والحميريين باديس وذى النون
راحوا لهم فى هضاب العز أبنية ... وأصبحوا بين مقهور ومسجون(٢)

وعلى أثر الاستيلاء على بطليوس ، سارت حملة مرابطية إلى ثغر أشبونة ، وكانت تحتله مذ نزل عنه المتوكل ، حامية قشتالية بقيادة الكونت ريمون البرجونى صهر ألفونسو السادس ، وهاجم المرابطون أشبونة بشدة واقتحموها ، وقتلوا وأسروا معظم حاميتها النصرانية ؛ وأعيد بذلك هذا الثغر الهام إلى حظيرة المملكة الإسلامية (نوفمبر سنة ١٠٩٤ م)(٣) .

---

(١) تراجع القصيدة بأكملها فى المعجب ص ٤٢ — ٤٦ ، ونشرت ناقصة فى أعمال الأعلام ص ١٨٦ — ١٨٩ .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٥٥ وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 502

ورد ملك قشتالة على ذلك بالقيام بغزوة جديدة لأراضى الأندلس . فنى سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) حشد ألفونسو السادس حملة ضخمة ، وسار نحو قرطبة ، فلما علم أن المرابطين هناك على أهبة شديدة لمدافعته ، تحول عنها وسار إلى قرمونة وهى حصن إشبيلية الشرقى ، فهاجمها واقتحم بسائطها فيما بينها وبين إستجة ، واستولى على غنائم وفيرة وسبى جموعاً عظيمة ، ثم اتجه صوب إشبيلية ، وعاث فى بسائطها ، فامتنع أهل إشبيلية بمدينتهم ولم يخرجوا إلى قتاله حسبما كان يتوقع ، فلما يئس من الاشتباك مع المسلمين ، سارا فى قواته وغنائمه صوب بطليوس ثم جاز إلى أراضى قشتالة عائداً إلى قواعده[١] .

— ٤ —

لبث أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حيناً فى سبتة ، يعنى بإمداد جيوشه الغازية فى شبه الجزيرة ، ويتلقى أنباء الفتوح المتوالية لقواعد الأندلس ، ثم غادرها إلى مراكش ، بعد أن اطمأن إلى نتائج أعمال البعوث والحملات المختلفة ، وعهد بشئون الأندلس ، إلى كبير قادته الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى .

ولم يعد يوسف إلى شبه الجزيرة إلا بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) حيث جاز إليها جوازه الرابع . وفى رواية أخرى أن هذا الجواز الرابع وقع فى سنة ١٠٩٧ م (٤٩١ هـ)[٢] وفى رواية ثالثة ، وهى رواية ابن عذارى أنه وقع فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . وكانت ممالك الطوائف كلها قد سقطت يومئذ فى أيدى المرابطين ، ماعدا سرقسطة ، التى استولى عليها المرابطون بعد ذلك بأعوام قلائل ، وآلت اسبانيا المسلمة كلها بذلك إلى سلطان البربر وغدت ولاية مغربية ، وانهار سلطان العصبيات والأسر الأندلسية إلى حين ، وتوارت العناصر والزعامات المتغلبة ، لكى تظهر فيما بعد ، وتضطلع ضد المرابطين بمختلف الحركات والثورات القومية الأندلسية .

واتخذ جواز أمير المسلمين هذه المرة طابع الجهاد من جديد ، فجهز جيشاً قوياً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج . وسار هذا الجيش صوب

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 535

طليطلة مخترقاً أراضى قشتالة ، والتقى بالقشتاليين بقيادة ملكهم ألفونسو على مقربة من كونسويجرا ، فهزم النصارى هزيمة فادحة ، وفر ألفونسو فى فلوله نحو كونسويجرا والتجأ إليها ، فحاصره المرابطون بها بضعة أيام ثم انصرفوا (أغسطس سنة ١٠٩٧ م).

وقصد يوسف إلى قرطبة ، لينجز المهمة التى قدم فى الواقع من أجلها إلى الأندلس ، وهى أخذ البيعة لولده أبى الحسن على . وكان قد استقدمه معه هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم[١] . وكان يوسف قد آثر ولده علياً بولاية عهده ، لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر له عهده بذلك فى سنة ٤٩٥ هـ . وفى شهر ذى الحجة من سنة ٤٩٦ هـ جمع يوسف بقرطبة أمراء لمتونة وأشياخ المرابطين والفقهاء ، وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على ، وكان من شروط تقديم على لولاية العهد ، أن ينشىء بالأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألف فارس ، موزعة على قواعد الأندلس : منها سبعة آلاف بإشبيلية ، وألف بكل من قرطبة وغرناطة ، وأربعة آلاف فى شرق الأندلس ، ويوزع الباقى على الثغور[٢] . وكان من الواضح أن اختيار يوسف قرطبة لأخذ البيعة بها لولده ، يمت بصلة وثيقة إلى صفة عاصمة الخلافة القديمة ، وزعامتها الأدبية السالفة لقواعد الأندلس .

وفى أواخر سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بقصره بحضرة مراكش ، واستمر عليلا زهاء عام وشهرين ، حتى توفى فى مستهل شهر محرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر ١١٠٦ م)[٣] . وقيل بل توفى فى ربيع الآخر سنة خمسمائة . وكانت وفاته بقصره بمراكش ، ومن حوله ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم ، وأكابر لمتونة ، ودفن بالقصر ، وأوصى ولده عليا قبيل وفاته بثلاثة أمور : الأول ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثانى أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم[٤] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٥ . ويقول ابن أبى زرع إن علياً كان عندئذ بسبتة حيث نشأ (روض القرطاس ص ١٠١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ويقول ابن خلكان إنه توفى فى الثالث من المحرم سنة ٥٠٠ هـ (ج ٢ ص ٤٤٨) .

(٤) الحلل الموشية ٦٠ .

وهكذا اختتمت حياة البطل المغربى العظيم ، بعد أن عاش زهاء مائة عام ، وقضى فى الزعامة والكفاح زهاء نصف قرن ، منذ ندبه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتونى لقيادة الجيش المرابطى ؛ وقضى فى حكم الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب منذ دخل مدينة فاس فى سنة ٤٦٢ هـ ، نحو أربعين عاماً ، وحكم الإمبراطورية المغربية الأندلسية الكبرى نحو خمسة عشر عاماً ، واضطلع فى المغرب بحروب ومعارك لاحصر لها ، وقاد الجيوش المرابطية بالأندلس مراراً من أجل الجهاد فى سبيل الله، وأحرز أعظم انتصاراته فى معركة الزلاّقة الحاسمة ، وهى بلا ريب ألمع صفحات جهاده وأنصعها .

وقد تناولنا خلال يوسف وصفاته فيما تقدم من سيرته ، ونزيد هنا أنه لم يصم حياة يوسف المديدة ، ولم يثر سحباً حول خلاله العظيمة ، سوى ما جنح إليه من قسوة بالغة فى معاملة أمراء الأندلس ، وهو ما سبق أن عرضنا إليه .

الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانيّة

خلال القرن الحادى عشر الميلادىّ

الفصل الأول

المملكة الإسبانية الكبرى

فى عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول

المالك الإسبانية فى أواخر القرن العاشر . ناڤارو ليون وقشتالة . سانشو الكبير يحتل قشتالة . ولده فرناندو أول ملوكها . ألفونسو الخامس ملك ليون . ولده برمودو الثالث . استيلاء سانشو الكبير على ليون . مصرع برمودو الثالث . استيلاء فرناندو على ليون . تقسيم المملكة النصرانية بعد وفاة سانشو . الحرب بين راميرو ملك أراجون وأخيه غرسية ملك ناڤار . غرسية يحاول اغتيال فرناندو ملك قشتالة . إنتقام فرناندو . الحرب بين الأخوين . هزيمة غرسية ومقتله . تعيين ولده سانشو مكانه . إنهيار الأندلس الكبرى وقيام الطوائف . تحول ميزان القوى فى شبه الجزيرة . ضعف دول الطوائف . تنافسها فى استعداء الملوك النصارى . تفوق اسبانيا النصرانية ونهوض سياسة الإسترداد . غزو فرناندو الأول لولاية البرتغال . حصار بازو وسقوطها . سقوط لاميجو . تهديد شنترين . غزو فرناندو لمنطقة وادى الحجارة . المأمون بن ذى النون يسترضيه بالمال والخضوع . غزو فرناندو لمملكة إشبيلية . خضوع ابن عباد وتعهده بالجزية . موافقته على نقل رفات القديسين النصارى . مسير فرناندو لغزو قلمرية . حصارها وسقوطها . الكونت سسنندو يتولى حكمها . مسير فرناندو إلى بلنسية وموقعة بطرنة . مرض فرناندو ووفاته . تلقبه بالإمبراطور . أعماله الإنشائية . مجلس جويانسا . قوانينه الكنسية والدستورية . تنويه الرواية النصرانية بخلال فرناندو وعظمته .

مضينا فيما تقدم ، فى تاريخ المالك الإسبانية النصرانية ، حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، أعنى حتى نهاية عهد المنصور بن أبى عامر ، ونحاول الآن أن نتتبع تاريخ هذه المالك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، أعنى خلال الحقبة التى شهدت سقوط الخلافة الأندلسية ، وانهيار الأندلس الكبرى ، وانتثارها إلى دول الطوائف ، ثم سيرة الطوائف منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، وانهيار هذه الدول الإسلامية الصغيرة .

كانت المالك الإسبانية النصرانية فى أواخر القرن العاشر الميلادى ثلاثاً : وهى ناڤار (نبرّة) ، ويحكمها غرسية سانشيز ، ولد سانشو غرسية الثانى . وكانت ناڤار يومئذ أكبر المالك النصرانية رقعة ، إذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلى ناڤار ، ولايات كنتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا . ولما توفى

غرسية سانشيز ، فى سنة ١٠٠٠ م ، بعد حكم دام خمسة أعوام ، خلفه فى الحكم ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير.

ومملكة ليون ، وكان يحكمها برمودو الثانى منذ سنة ٩٨٢ م ، واستمر فى حكمها بالرغم من مناوأة أخيه رامبرو ، ومحاربته له ، حتى توفى فى سنة ٩٩٩م، وخلفه فى الحكم ولده ألفونسو طفلا ، وتولى الوصاية عليه الكونت منندیث كونثالث ، أحد أشراف المملكة .

ومملكة قشتالة . وكانت ماتزال فى مرتبة « الكونتية » أو الإمارة ، وكان على حكمها غرسية فرناندز ولد بطلها ومحررها فرنان كونثالث(١) . ولما توفى فى سنة ٩٩٥ م ، خلفه ولده سانشو غرسية فحكم حتى سنة ١٠٢١ م ، ثم خلفه ولده غرسية . وحدث أن قصد غرسية إلى ليون ليتم عقد زواجه بأخت ملكها برمودو الثالث ، فقتل غيلة خلال وجوده بالكنيسة أثناء مراسيم الزواج (١٠٢٨م) وقتله أبناء الكونت ڤيلا ، وهو أحد أشراف قشتالة الذى نزعهم غرسية أملاكهم . وبمصرع غرسية انقطع نسل أسرته ، وترتب على ذلك تغييرات عظيمة فى مصاير الممالك الإسبانية .

ذلك أن سانشو الكبير ملك ناڤار كان متزوجاً من إلبيرة أخت غرسية ، ابنة سانشو غرسية أمير (أوكونت) قشتالة ، فلما لقى الكونت غرسية مصرعه فى ليون ، بادر سانشو إلى قشتالة ، فاحتلها بصفته وارثاً لعرشها عن طريق زوجته ، وندب لحكمها ولده فرناندو ، وأسبغ عليه لقب الملك ، فكان أول ملوك قشتالة . وتلقب هو بملك اسبانيا ، وانتقم من آل ڤيلا قتلة غرسية ، فأحرقهم أحياء ، بالرغم من كونه قد جنى ثمار جريمتهم بامتلاك قشتالة .

وحكم ألفونسو الخامس مملكة ليون حتى وفاته فى سنة ١٠٢٧ م ، وغزا أراضى المسلمين المجاورة فى شمالى البرتغال ، وافتتح بعض نواحيها ،وحاصر مدينة بازو ، وأصيب خلال ذلك بسهم مسموم قذفه به أحد الرماة المسلمين ، فتوفى متأثراً بجراحه . وكان أشهر أعماله عقد المجلس الدستورى فى سنة ١٠٢٥ م، وفيه وضعت قوانين المملكة التأسيسية ، وأصبح العرش وراثياً . ولما توفى خلفه ولده برمودو الثالث . وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد تزوج من ابنة ألفونسو

(١) ويسميه ابن الخطيب فى الفصل الذى يخصصه لتاريخ ملوك اسبانيا النصرانية ، دون شانجه قمز قشتالة (أعمال الأعلام ص ٣٢٩) .

أخت برمودو ، بيد أن هذه المصاهرة لم تفعل شيئاً لتوثيق علائق المملكتين. وبالعكس فإن سانشو الكبير وولده فرناندو ، كانا يريان تلك المصاهرة وسيلة لانتزاع عرش ليون . على أن سانشو لم ينتظر سير الحوادث لتحقيق هذا الاحتمال ، بل سار فى قواته إلى ليون وافتتحها ، وأعلن نفسه ملكاً عليها ، وفر برمودو ليرقب الفرص لاسترداد عرشه .

ولما توفى سانشو الكبير ملك نافار ، أوملك اسبانيا ، فى سنة ١٠٣٥ م ، استطاع برمودو أن يسترد جزءاً من أملاكه وأن يقيم بلاطه ، وثارت بينه وبين صهره فرناندو ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين ، ثم كان اللقاء الحاسم بينهما فى موقعة تامارون فى سنة ١٠٣٧ م وفيها لقى برمودو مصرعه . ونظراً لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرناندو على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغدا ملكاً على مملكة قشتالة وليون الموحدة . وانتهى بمقتل برمودو الثالث نسل ملوك اسبانيا النصرانية ، منذ أيام القوط ، ومذ قامت مملكة أشتوريش وجليقية وليون فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، كما انتهى من قبل نسل أمراء قشتالة .

— ١ —

وكان سانشو الكبير ، قد قسم المملكة قبيل وفاته ، بين أبنائه الأربعة ، فخص فرناندو كما هو بملك قشتالة وليون وجليقية ، وغرسية أكبر أولاده بالوطن الأصلى نافار ، ممتداً من غرب البرنيه إلى منابع الإيبرو ، وخص ولده غير الشرعى ، راميرو ، برقعة ضيقة تمتد بحذاء نافار من باب شيزروا جنوباً ، وتسمى بمملكة أراجون ، وولده كونزالو ، بمنطقة صغيرة أخرى فى أواسط البرنيه ، وهى ولاية سوبرابى ورباجرسا . وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية ، بهذا التقسيم أربعاً ، وهذا عدا إمارة برشلونة الفرنجية الواقعة فى شمال شرقى إسبانيا ، وقد كان يحكمها رامون برنجير الأول عميد آل برنجير .

وكان من جراء هذا التقسيم أن بدأت سلسلة جديدة من الحروب الأهلية بين الملوك الإخوة ، وبدأت الحوادث باختفاء مملكة سوبرابى الصغيرة . ذلك أن أميرها كونزالو قتل غيلة أثناء عوده من الصيد (١٠٣٨ م) ، فاختار

أهل سوبرابى أخاه راميرو أمير أراجوان ، ليخلفه فى حكم الولاية ، وبذا اتحدت الإمارتان فى مملكة واحدة ، ولم يعارض راميرو أحد من إخوته ، إذ كان فرناندو ملك قشتالة مشغولا بتنظيم مملكته الكبيرة وتقويتها ، وكان غرسية ملك نافار ، غائباً يحج إلى رومة ، وفضلا عن ذلك فقد كان شعب سوبرابى هو الذى اختار راميرو وآثره .

يقول المؤرخ لافونتى : « وكأنما كان روح الطمع والحسد والمنافسة ، متأصلا فى أسرنا الملوكية ، ولم يفعل سانشو الكبير بتقسيم المملكة سوى أن زاد جراثيم الشقاق والموت »(١) .

ذلك أن راميرو لم يقنع بالاستيلاء على ولاية سوبرابى ، بل أخذ يطمح إلى الاستيلاء على مملكة نافار نفسها . ولما كانت موارده وأهباته قاصرة عن تحقيق مشروعه الكبير ، فقد عقد مع جاره المسلم ابن هود أمير سرقسطة ، حلفاً أمده بمقتضاه ببعض قواته ، ثم زحف راميرو فى قواته المتحدة من النصارى والمسلمين إلى نافار ، واقتحم حدودها فجأة ، ولكن قلعة تافالا اعترضت سيره المظفر . ولم يكن غرسية يتوقع من أخيه مثل هذا الاجتراء ، فحشد قواته على عجل ، خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلعة . وسار إلى تافالا ، فانقض بقواته على الجيش المغير تحت جنح الظلام ، وكانت مفاجأة أخذ بها الأرجونيون ، فساد بينهم الاضطراب ، ومزقت صفوفهم قبل أن يستعدوا للقتال ولم يتمكن راميرو من الخلاص إلا بصعوبة ففر ناجياً بنفسه مع نفر من صحبه ، وأبيد معظم جيشه قتلا وأسراً ، وقتل كذلك معظم حلفائه المسلمين ، ووقعت هذه الموقعة الحاسمة فيما يبدو سنة ١٠٤٢ م .

ولجأ راميرو إلى شعب الجبال الوعرة فى سوبرابى خشية المطاردة ، بيد أن غرسية قنع فيما يبدو بنصره والقضاء على جيش أخيه ، ولم يحاول مطاردته داخل بلاده ، وأنفق راميرو بضعة أعوام فى تنظيم شئونه ، والنهوض من عثرته ، وأنشأ جيشاً جديداً ، وسوف نراه فيما بعد يخوض معترك الحوادث مرة أخرى .

ثم اتخذت الحوادث وجهة أخرى ، وانتقل ميدان الصراع إلى الجانب الآخر من اسبانيا النصرانية بين نافار وقشتالة . وكان غرسية ملك نافار ، وهو أكبر

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana (Madrid 1861) V. II. p. 433

إخوته ، ينظر بعين الغيرة والحسد إلى فوز أخيه الأصغر فرناندو بحكم هذه المملكة العظيمة الشاسعة ، مملكة قشتالة وليون ، ويرى أنه أحق بملكها وأجدر ، وكان يعول فى تحقيق أمنيته على وسائل الغدر والغيلة ، ولم يكن فرناندو فى البداية يشك فى ولاء أخيه أوصدق نياته ، لاسيما وقد حارب إلى جانبه فى معركة تامارون ضد برمودو ملك ليون ، ومن ثم فقد وضع غرسية ، مشروعه لاغتيال أخيه ، وذلك بأن تظاهر بالمرض ، وبعث إلى أخيه يبلغه أنه مريض على فراش الموت . وأنه يرجو رؤيته للمرة الأخيرة ، فبادر فرناندو إلى تلبية هذه الرغبة ، بيد أنه قد نمى إليه خلال سيره ، حقيقة الكمين الذى دبر لاغتياله ، فارتد مسرعاً إلى برغش ، وقد أضمر لأخيه الغادر أسوأ النيات . ولم يفطن غرسية إلى أن أخاه قد وقف على حقيقة أمره . ثم جاء دور فرناندو فى تدبير الانتقام من أخيه ، فدعاه إلى زيارته فى برغش بعد ذلك بأعوام قلائل ، فسار إليه غرسية دون أية ريبة ، ولكنه ماكاد يصل إلى أراضى قشتالة ، حتى قبض عليه وزج إلى إحدى القلاع ، بيد أنه لم يفقد شجاعته ، ولم يلبث أن استطاع الفرار من معتقله ، فعاد إلى ناڤار ، معولا على الانتقام .

وهنا لم يكن مناص من وقوع الحرب بين الأخوين ، وقد بدأ غرسية بالفعل بالإغارة على أراضى قشتالة ولم يلتفت إلى تحذير أخيه . ثم اعتزم أن يحاول الضربة الحاسمة . فعقد حلفاً مع أخيه وعدوه القديم راميرو وحشد كل ما استطاع من الجند والعدة ، وأمده حليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بفرقة من جنده . ونفذ بجيشه القوى إلى أراضى قشتالة ، واثقاً فى شجاعة جيشه . وكان أخوه فرناندو فى تلك الأثناء يحشد من جانبه سائر قواته من قشتالة وليون . واستمر غرسية فى سيره حتى وصل إلى سهل أتابوركا ، الواقع على مقربة من شرقى برغش ، وحاول فرناندو مرة أخرى أن يجتنب الحرب مع أخيه ، فبعث إليه اثنين من كبار الأحبار ، يحاولان إقناعه بعقد الصلح وحقن الدماء ، فصرفهما غرسية بخشونة . وفى فجر اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٠٥٤ م ، اشتبك الجيشان فى معركة عنيفة ، وقاتل غرسية بشجاعة فائقة ، بيد أن الخلل ما لبث أن دب إلى جيشه ، إذ غادرته عدة كبيرة من الفرسان الناقمين إلى المعسكر الآخر ، وشن فرسان ليون فى نفس الوقت على الناڤاريين هجوماً عنيفاً ، وأصابت غرسية ،

وهو يقاتل فى قلب المعمعة طعنة قاتلة ، فسقط من جواده وأسلم الروح فى الحال بين يدى كاهنه ، فانتثر شمل النافاريين ، وركنوا إلى الفرار ، وأغضى فرناندو عن مطاردتهم ، وقصر أمر المطاردة على حلفائهم المسلمين ، فمزقوا قتلا وأسراً. وأمر فرناندو بأن يحمل جثمان أخيه بمنتهى التكريم ، وأن يدفن فى ناجرة فى الكنيسة التى أنشأها هناك ، وأعلن فى الحال اختيار ولده الصبى سانشو مكانه ملكاً على نافار ، وأعلن الملك الحديد من جانبه طاعته لعمه الظافر ، الذى شاء أن يبقى له على تراث أبيه ، ولم يقتطع فرناندو شيئاً من أراضى نافار سوى بعض النواحى الواقعة على ضفة الإيبرو اليمنى[1].

— ٢ —

فى الوقت الذى كانت فيه الممالك الإسبانية النصرانية تضطرم على هذا النحو بنار الحرب الأهلية، ويسقط ملوكها الأصهار والإخوة صرعى خلافهم وأطماعهم ، كانت اسبانيا المسلمة من جانبها قد استحالت إلى أشلاء ممزقة ، وقامت بها أكثر من عشرين دولة من دول الطوائف . وبينما كانت الخلافة تحتضر فى قرطبة وتتردد أنفاسها الأخيرة بين الشريدين من بنى أمية ، وبين المتوثبين من بنى حمود ، كان أمراء الطوائف ومعظمهم حديث عهد بالرياسة والسلطان ، يضطرمون بأطماعهم الوضيعة ، ويجعلون بمنازعاتهم وحروبهم الأهلية الصغيرة ، من الأندلس مسرحاً لفتنة غامرة لا يخبو أوارها ولا يستقر قرارها . والواقع أن المصير الذى تردت فيه الأندلس الكبرى على يد الطوائف وحروبهم الانتحارية ، كان أتعس بكثير مما انحدرت إليه اسبانيا النصرانية من حروب أهلية محدودة النطاق والمدى ، ولم تلبث أن أسفرت عن تماسك المملكة النصرانية ، ووحدتها ونهوضها . ولقد كان من رحمة القدر فقط ، أن أتيح لهذه الدويلات الإسلامية الصغيرة أن تحتفظ بحياتها ، وأن شغلت عدوتها الخالدة اسبانيا النصرانية عن مطاردتها والقضاء عليها ، بخلافاتها وحروبها الداخلية فى تلك الفترة ، أعنى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .

منذ بداية هذا القرن ، حدث فى شبه الجزيرة انقلاب حاسم فى ميزان

(١) راجع فى تفاصيل هذه الحوادث : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 382—383
وكذلك R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 122—123

القوى السياسية والعسكرية ، فبعد أن كانت اسبانيا المسلمة ، منذ أيام الناصر حتى نهاية عهد المنصور ، تحتفظ بتفوقها العظيم على اسبانيا النصرانية ، وتكاد تخضعها لصولتها ، ويترامى ملوكها على أعتاب الخلافة القرطبية ، ويؤدون لها الجزية فى معظم الأحيان ، إذا بها بعد انهيار الخلافة ، وقيام دول الطوائف الهزيلة المتنابذة ، تفقد كل منعة وكل مقدرة حقيقية على الدفاع ، ويتسابق ملوكها إلى خطب ود الملوك النصارى ، والالتجاء إليهم ، واستعدائهم على محاربة بعضهم البعض . وقد كان الملوك النصارى ، يبادرون إلى انتهاز هذه الفرص ، حتى فى فترات ضعفهم وتفرقهم ، ويتخذونها وسيلة للتفوق العسكرى ، والغنم المادى . وقد بدأت سياسة الاستعداء هذه للملوك النصارى منذ بداية الفتنة ذاتها ، حيث نرى الأحزاب المتنافسة على اجتناء سلطان الخلافة ، تستمد عون النصارى ، على نحو مافعل الفتى واضح ومحمد بن هشام المهدى فى الاستنصار بأمير برشلونة ، وسليمان بن الحكم والبربر ، فى استدعاء سانشو غرسية أمير قشتالة . على أن هذا التنافس فى استعداء الملوك النصارى ، والاستعانة بهم ، يتسع نطاقه تباعاً ، ويغدو على يد ملوك الطوائف ، حسبما رأينا فى أخبارهم ، ضرورة سياسية وعسكرية يلجأون إليها بطريقة مستمرة منتظمة . وقد استغل الملوك النصارى هذه الظاهرة أعظم استغلال ، حتى غدا ملوك الطوائف ، فى الواقع آلات مسخرة فى أيديهم ، ووصل هذا الإذلال إلى ذروته ، حسبما رأينا ، على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة .

على أن ذلك لم يكن دون تمهيد من جانب القوة المادية ، فقد استطاعت إسبانيا النصرانية ، أن تمهد لتفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، منذ أواسط القرن الحادى عشر ، بسلسلة من الغزوات والفتوحات العظيمة ، التى تبلورت على أثرها سياسة الاسترداد الإسبانية La Reconquista ، وغدت ظاهرة قوية وعاملا حاسماً ، فى ميدان الصراع بين اسبانيا المسلمة وبين اسبانيا النصرانية .

وقد بدأت هذه السياسة على يد فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بفرذلند ، فإنه ماكاد ينتهى من الصراع الداخلى الذى نشب بينه وبين إخوته ، حتى تأهب لغزو أراضى المسلمين . وفى سنة ١٠٥٧ م ، عبر فى قواته نهرى دويرة وتورمس ، ونفذ إلى ولاية لوزيتانيا

(شمالى البرتغال) ، وهى قاصية أراضى المسلمين من الشمال الغربى ، وكانت هذه المنطقة المنعزلة النائية تابعة لمملكة بطليوس ، بيد أنها كانت لبعدها تكاد تكون مستقلة بشئونها ، وتعتمد فى الدفاع على نفسها ، فاجتاحها فرناندو وعاث فيها ، واستولى على بعض الحصون ، ثم قصد إلى مدينة بازو Vizeu ، وضرب حولها الحصار . فدافع عنها أهلها المسلمون أشد دفاع وأعنفه ، وأبدى الرماة المسلمون ، كما أبدوا من قبل أيام أن حاصرها ألفونسو الخامس ، براعة عظيمة فى إصابة العدو ، حتى اضطر النصارى إلى ارتداء دروع مثلثة ، واضطر فرناندو إلى إنشاء فرقة من حملة المقالع ، وانتهى القشتاليون بأن اقتحموا المدينة عنتهى العنف ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً . وكان من بين الأسرى ، ذلك الرامى الماهر ، الذى أصاب بسهمه المسموم ألفونسو الخامس من قبل ذلك بثلاثين عاماً ، فأمر فرناندو به فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه ، وعذب حتى أسلم الروح . ثم سار فرناندو بعد ذلك إلى لاميجو (مليقة) الواقعة شمال بازو ، وكانت حصينة عالية الأسوار ، فاقتحمها واستولى عليها بعد ذلك ببضعة أشهر ، وقتل معظم أهلها وأسرهم ، واسترق الأسرى من أهل المدينتين ، وأسكن بهما النصارى . ولم يتحرك ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو صاحب السيادة على تلك الأنحاء ، ليقينه باستحالة الدفاع عنها ، وذلك حسبما أشرنا إليه من قبل فى أخبار مملكة بطليوس .

وقد سبق أن أشرنا كذلك فيما تقدم إلى الحملة التى بعث بها فرناندو ضد مدينة شنترين الواقعة فى شمالى أشبونة على نهر التاجه ، وكيف اضطر ابن الأفطس عندئذ إلى أن يتعهد بأن يدفع إلى قشتالة جزية قدرها خمسة آلاف دينار .

وكان فرناندو يطمح إلى أن يخضع ملوك الطوائف جميعاً ، ولاسيما ابن عباد ، وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى أولئك الملوك وأعظمهم شأناً . ومن ثم فقد خرج فى جيشه فى سنة ١٠٦٢ م ، إلى انحاء مملكة طليطلة الشمالية الشرقية ، وأغار على مدينة سالم ، وأوسيدا ، وطلمنكة ، ووادى الحجارة ، وقلعة النهر (ألكالادى هنارس) وعاث فى بسائطها تخريباً وسبياً . فاستغاث أهل هذه الأنحاء بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، وجمع المأمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه إلى معسكر الملك النصرانى ، وقدم إليه الهدايا ،

وأعلن اعترافه بطاعته ، وتعهده بأداء الجزية ، فقبل فرناندو المال والعهد ، وعاد مثقلا بالغنائم والتحف.

وفى العام التالى ، خرج فرناندو فأغار على أراضى مملكة إشبيلية ، وخرب بسائطها ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحذو حذو المأمون ، وأن يقصد إلى فرناندو ومعه هدية جليلة من الأموال والتحف ، يناشده المودة والسلم ، على أن يؤدى له الجزية ، فأجابه فرناندو إلى رغبته ، وطلب إليه أن يمكنه من نقل رفات القديسة خوستا ، وكانت هذه القديسة قد استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودفنت فى إشبيلية ، فوعد ابن عباد بتحقيق رغبته ، وأرسل فرناندو إلى إشبيلية بعثة من أكابر رجال الدين للقيام بهذه المهمة ، ولكنها لم تستطع الاهتداء إلى قبر هذه القديسة ، وعندئذ زعم أحد أعضائها ، وهو الأسقف ألفيتو ، أنه قد ظهر له القديس إسيدورو ، وقد كان من أساقفة إشبيلية أيام القوط ، وقال له إن رفات القديسة خوستا يجب أن تبقى فى مكانها لحماية إشبيلية ، وعرض أن تحمل رفاته هو ، وكشف من مكان وجودها ، ووجدت بالفعل رفات هذا القديس فى المكان المحدد ، فحملت إلى ليون ودفنت هنالك باحتفال فخم ، فى الكنيسة التى سميت من ذلك التاريخ باسمه ، أعنى بكنيسة سان إسيدورو ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر سنة ١٠٦٥ م(١).

وكان فرناندو على أثر إخضاعه للملوك بطليوس وطليطلة وإشبيلية لصولته ، وإرغامهم على دفع الجزية ، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة قُلُمرية ، وهى أعظم القواعد الإسلامية ، فى شمال غربى الأندلس ، بيد أنه رأى قبل مسيره أن يستمد العون والبركة ، من القديس ياقب ، فقصد إلى مزاره بشنت ياقب ، وقضى به ثلاثة أيام فى صلوات ودعوات وخشوع ، ثم سار إلى قلمرية فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار (يناير سنة ١٠٦٤ م). وقد سبق أن عرضنا إلى حصار قلمرية ، وأشرنا إلى ما تقصه الرواية الإسلامية ، من أن راندة ، قائد الحامية الإسلامية ، غادر المدينة سراً مع أهله بتفاهم مع فرناندو ، وأن ابن الأفطس قضى فيما بعد بإعدامه جزاء له على خيانته ، وترك ابن الأفطس قلمرية إلى مصيرها كما فعل بالنسبة لبازو. بيد أن أهل قلمرية دافعوا عن أنفسهم

---

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 388&389
وكذلك R. M. Pdal : ibid; p. 135

أشد دفاع . واستمر الحصار حولها زهاء ستة أشهر ، حتى نضبت أقوات الجيش المحاصر نفسه ، وكاد يرفع الحصار . ولكن رهبان دير لورقان القريب ، أمدوه بمؤنهم المخزونة فى الجبال . وأخيراً نجح القشتاليون فى إحداث عدة ثغرات فى أسوار المدينة ، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان ، واتفق على أن يسمح لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم ، تاركين أموالهم للفاتح ، ولكن الجند المدافعين رفضوا هذا الاتفاق ، واستمروا فى الدفاع حتى نفدت سائر الأقوات ، وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة ، وأسروا من المدافعين ، ومن أهل المدينة ، أكثر من خمسة آلاف ، ودخل فرناندو قلمرية فى اليوم الحادى عشر من يوليه ، ومعه الملكة دونيا سانشا ، ورهط من الأساقفة ورجال الدين[١] . وعهد بحكم المدينة إلى رجل كان له فيما بعد شأن فى صوغ السياسة القشتالية نحو الطوائف ، هو الكونت المستعرب سسنندو دافيدس، الذى تعرفه الرواية الإسلامية بششنند. وكان حسبما أسلفنا فى أخبار مملكة إشبيلية من أهل هذه المنطقة، وأسر فى حداثته فى غارة قام بها القاضى ابن عباد ضد ابن الأفطس، وربى فى البلاط العبادى وأعجب المعتضد فيما بعد بمواهبه ، وقربه واستخدمه فى السفارة بينه وبين فرناندو، ثم غادر إشبيلية بعد ذلك ، والتحق بخدمة البلاط القشتالى[٢] ، وقربه فرناندو وأولاه رعايته لما كان عليه من معرفة تامة باللغة العربية ، والدين الإسلامى ، وأحوال المسلمين وعاداتهم . فحكم سسنندو قلمرية بكفاية ، ونال احترام النصارى ، والمسلمين على السواء ، وكان يلقب عندئذ « بالوزير» على النمط الإسلامى ، وفى عهده نمت قلمرية ، وأنشئت بها عدة صروح فخمة . وفى بعض الروايات أن سسنندو لم يعين حاكماً لطليطلة على أثر افتتاحها، حسبما تقدم ذكره فى موضعه ، وأنه بالعكس استمر حاكماً لإقليم قلمرية حتى توفى سنة ١٠٩١ م[٣] .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط قلمرية فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) متفقة فى ذلك مع الرواية النصرانية ، بيد أنها تختلف معها فى بعض التفاصيل . وقد سبق أن عرضنا فيما تقدم من أخبار مملكة بطليوس ، إلى أقوال الرواية

---

(١) راجع فى حوادث فتح قلمرية M. Lafuente : ibid; V. II. p. 384 & 385
وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 145&149

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ .

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes, p. 461

الإسلامية(١) وأشرنا إلى ماعمد إليه فرناندو من إجلاء سائر المسلمين عن الأراضى الواقعة فى شمالى البرتغال بين نهرى منهو ودويرة .

ونحن نعرف مما تقدم فى أخبار مملكة بلنسية ، أن فرناندو ، خرج فى قواته فى أوائل سنة ١٠٦٥ م ، أعنى بعد استيلائه على قلمرية ببضعة أشهر ، قاصداً إلى بلنسية ، يبغى افتتاحها ، وأنه اخترق فى طريقه أراضى مملكة سرقسطة الجنوبية ، وعاث فيها معاقبة لأميرها المقتدر بن هود لتخلفه عن دفع الجزية ، ثم ضرب الحصار حول بلنسية . ولكنه لما رأى صعوبة الاستيلاء عليها نظراً لمناعة أسوارها ، وأهبة أهلها ، تظاهر بمغادرتها ، وانسحب بقواته إلى مكان قريب منها . وعندئذ خرج البلنسيون دون تحوط ، وفاجأهم القشتاليون فى بطرنة وهزموهم هزيمة شنيعة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه .

وكان فرناندو قد شعر حينئذ بالمرض ، فآثر العودة إلى ليون ، وهنالك احتفل بدفن رفات القديس إسيدورو فى أوائل ديسمبر . وكان فى الواقع مرض موته ، ذلك أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى توفى فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٦٥ ، ودفن فى نفس الكنيسة التى دفن فيها القديس ، والتى غدت من ذلك الحين مدفناً لملوك قشتالة .

وكان فرناندو الأول من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وفى عهده أحرزت اسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على اسبانيا المسلمة ، ومهد حكمه الملىء بالوقائع المظفرة لمجد الملوك اللاحقين . وقد أسبغت عليه الرواية لقب الكبير **El Magno** ، وكان سمى نفسه بالإمبراطور ، ويدعى لنفسه مركز التفوق والسيادة على ملكى نافار وأراجون . وفى عهده اتسعت رقعة مملكة قشتالة اتساعاً عظيما ، ودفعت حدودها إلى الجنوب وإلى الشرق والغرب على حساب المملكة الإسلامية ، واقتطعت منها كثيراً من البلاد والحصون . وقد كانت غزواته ، بالرغم مما ينسب إليه من التقى والورع ، تتسم بنزعة دموية مروعة ، تبدو واضحة فى قسوته وفظاعته فى معاملته المدنيين من أهل البلاد الإسلامية المفتوحة ، وسفك دمائهم دون تمييز ولاحرج ، واسترقاقهم جملة . وقد اشتهر فضلا عن غزواته وفتوحه المظفرة ، بأعماله الإنشائية والدستورية ، فقد جدد مدينتى ليون وسمورة ،

(١) راجع سقوط قلمرية فى البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ .

وكانتا قد خربتا منذ غزوات المنصور بن أبي عامر ، وأنشأ فى ليون عدة صروح وكنائس فخمة ، مازالت تزدان بها حتى اليوم . وفى سنة ١٠٥٠ م ، دعا إلى عقد اجتماع كنسى تأسيسى فى «جويانسا» اعتبر فى نفس الوقت مجلساً نيابياً «كورتيس» ، وشهدته الملكة والأشرف والأساقفة . وصدرت عنه عدة أصول كنسية ودستورية ، كان لها أكبر الأثر فى صوغ النظم التأسيسية لمملكة قشتالة فيما بعد . ومنها أن يُعمل فى جميع الكنائس والأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح والزواج ، أو شهود مآدب الزواج . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة ، منها أنه لايمكن الاستيلاء على أملاكها بالتقادم ، وأن المتهم بجريمة ما ، إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أضحى تحت حماية القضاء الكنسى ، وهو أثر من آثار التشريعات القوطية القديمة ، وأن القوامس (الكونتات) يجب عليهم هم ونوابهم فى القضاء الجنائى،أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق ، وفقاً لأحكام الشرائع القوطية ، وأن تطبق فى مملكة ليون قوانين ألفونسو الخامس المسماة Buenos Fueros (القوانين الطيبة) وفى مملكة قشتالة لوائح سانشو المسماة Benefactorias ، وأن يقضى على المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمناصب وبالنفى من الكنسية ، وصدرت كذلك عدة لوائح للتمييز بين النصارى والمسلمين واليهود الذين يقيمون فى المملكة[١] .

وتنوه التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو ،وعظمة عهده ، ومقدرته كسياسى ومحارب ، وتنوه بالأخص بتقواه وورعه . وفائق رعايته للكنيسة ، وشغفه بإنشاء الكنائس والأديار وتجميلها ، والإغداق عليها ، واهتمامه بنقل رفات القديسين من أراضى المسلمين إلى الأراضى النصرانية ، وهى ترى على العموم أن مملكة قشتالة وليون المتحدة ، قد وصلت فى عهده إلى درجة من الاستقرار والأهمية والتفوق ، لم تصل إليها من قبل قط[٢] .

---

(١) راجع تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (ترجمة محمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ص ١٣ و ١٤ .

(٢) M. Lafuente : ibid, Vol. II. p. 485—488

الفصل الثاني

إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول

ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد

تقسيم فرناندو للمملكة بين أولاده . غزو سانشو ملك قشتالة لناڤار وهزيمته . غزوه لمملكة ليون . الحرب بينه وبين أخيه ألفونسو . هزيمة ألفونسو وأسره . فراره والتجاؤه إلى المأمون ملك طليطلة . المأمون يرحب به ويكرم وفادته . أقوال الرواية النصرانية فى ذلك . ألفونسو يدرس خطط الاستيلاء على المدينة . تطور الحوادث . غرسية ملك جليقية واضطراب مملكته . استيلاء سانشو على جليقية والتجاء غرسية إلى ملك إشبيلية . استيلاء سانشو على تورو مدينة أخته إلبيرة . محاولته انتزاع سمورة من أخته أوراكا . مصرعه تحت أسوارها . استدعاء الأشراف لأخيه ألفونسو . مغادرة ألفونسو لطليطلة . عهده للمأمون بمسالمته وولده . تنويه الرواية النصرانية بكرم المأمون ونبله نحو مضيفه . مسير ألفونسو إلى برغش . حلفه ببراءته من مقتل أخيه . يغدو ملك قشتالة وليون وجليقية . يدبر كيناً لأخيه غرسية . مساعدة ألفونسو للمأمون ضد ابن عباد . وفاة المأمون وولاية حفيده القادر . ألفونسو يتحلل من عهوده ويضع الخطة للاستيلاء على طليطلة . إغارته على أراضيها وتخريبها . القادر يلتجىء لحماية ألفونسو ويؤدى له الجزية . قيام الثورة فى طليطلة . فرار القادر . وعوده بمعاونة ألفونسو. المعتمد بن عباد وتحالفه مع ألفونسو . مضى ألفونسو فى إرهاق طليطلة وافتتاحها . الطابع الصليبى لهذا الفتح . طليطلة حاضرة اسبانيا النصرانية . الأسقف برنار عميد الكنيسة الإسبانية . مؤامرته لإزالة المسجد الجامع . تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . سقوط طليطلة وأثره فى ميزان القوى . أثره فى تحول ملوك الطوائف . موقعة الزلاقة وما بعدها . عود الطوائف إلى تفرق الكلمة . عدوان السيد والقشتاليين . عبور أمير المسلمين للمرة الثانية . حصار حصن لييط وما اقترن به من حوادث . إنسحاب المرابطين . محاولة ألفونسو الاستيلاء على بلنسية وفشله . انتصارات المرابطين فى منطقة بلنسية . وفاة السيد واستيلاء المرابطين على بلنسية . إستيلاء ألفونسو على شنترين . موقعة إقليش . هزيمة القشتاليين ومقتل سانشو ولد ألفونسو. البابوية وتدخلها فى اسبانيا. سعيها إلى فرض سيادتها الروحية . الأسقف برنار ودوره فى ذلك . إسبانيا والحروب الصليبية . صفة الملك الوراثية . نظام الإقطاع وخواصه . تنظيم ألفونسو لأسس التشريع . ألفونسو ووراثة عرشه . مجلس ليون وقراراته فى ذلك . مملكة أراجون . مملكة ناڤار. سانشو ملك ناڤار ومصرعه . سانشو راميرز ملك أراجون . استيلاؤه على منتشون وحصاره لوشقة . وفاته وقيام ولده بيدرو مكانه . سقوط وشقة . بيدرو الأول وصفاته . وفاته وقيام أخيه ألفونسو مكانه . إمارة برشلونة . الكونتات الفرنج . آل بوريل أمراء برشلونة . خلفاؤهم آل برنجير . رامون برنجير الكبير وأعماله . الصلات بين بنى هود وآل برنجير . المستعين بن هود والكونت برنجير . رامون برنجير الثالث .

— ١ —

عمد فرناندو قبيل وفاته إلى تقسيم مملكته الكبيرة بين أولاده الثلاثة ، فاستدعى لذلك الغرض مجلساً من الأساقفة والأشراف (١٠٦٤ م) وانتهى فيه إلى تقسيم المملكة على النحو الآتى غير معتبر فى ذلك بما حدث من قبل حينما قسمت المملكة على يد أبيه سانشو الكبير.

فخص سانشو ولده الكبير بقشتالة ، وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، وخص ألفونسو بليون وأشتوريش،وحقوق الجزية على مملكة طليطلة ، وخص أصغرهم غرسية ، بجليقية والبرتغال ، وقد ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على مملكتى إشبيلية ، وبطليوس ، وأعطى حق الإشراف على الأديار فى سائر المملكة لابنتيه دونيا أورّاكا ، ودونيا إلبيرة ، وخصت أوراكا بمدينة سمورة الحصينة ، وخصت إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة .

ومن المحقق أن تقسيم المملكة الإسبانية على هذا النحو ، بعد اتحادها فى عهد فرناندو ، كان عملا خاطئاً ، وكان نذيراً بعود الحرب الأهلية . وقد استمر الوئام المكبوت بين الإخوة فى ظل الملكة سانشا عامين آخرين ، فلما توفيت فى سنة ١٠٦٧ م ، بدت نذر الصراع الجديد واضحة فى الأفق .

وكان سانشو ، قبل أن تضطرم المعركة بينه وبين إخوته ، قد وجه اهتمامه إلى ميدان آخر . وكان يحكم نافار يومئذ سانشو ابن عمه غرسية ، ويحكم أراجون سانشو ابن عمه راميرو ، ففكر سانشو ملك قشتالة أن يحاول الاستيلاء على مملكة نافار ، أو ينتزع على الأقل أعمالها الواقعة على ضفة الإيبرو العليا . ولكن ملكا نافار وأراجون شعوراً منهماً بنياته العدوانية ، عقداً حلفاً لمقاومته . فلما سار لمحاربتهما ، رداه بنجاح وهزماه فى موقعة ڤيانا (سنة ١٠٦٧ م) . وكان من جراء ذلك أن فقد سانشو أراضى نافار التى كان قد أحرزها أبوه فى موقعة أتابوركا . وفى العام التالى عقب وفاة الملكة سانشا ، سار سانشو فى قواته وهاجم أراضى مملكة ليون ، فسار أخوه ألفونسو لرده،والتقى الاثنان فى بلادنتادا على نهر بسيرجا (يوليه سنة ١٠٦٨ م) فهزم ألفونسو ،وارتد مسرعاً إلى ليون، واضطر أن ينزل لسانشو عن بعض الأراضى المجاورة لقشتالة .

ثم عاد سانشو فغزا مملكة ليون واخترقها حتى الغرب ، ووقع اللقاء بين الأخوين هذه المرة فى جولنجار أوجلبياريس الواقعة على نهر كريون ، فهزم

القشتاليون . وفروا تاركين خيامهم . وأغذى ألفونسو عن مطاردتهم حقنا للدماء . وكاد سانشو يرتد أدراجه ، لولا أن تقدم منه أحد فرسانه . ونصح له بأن يجمع جنده ، ويعيد الكرة ، فى الفجر تحت جنح الظلام ، بعد أن اطمأن الليونيون إلى نصرهم ، وخبت همتهم ، وكان صاحب هذا النصح هو الفارس ردريجو دياث . الذى عرف فيما بعد بالسيد ، وهى أول مناسبة يردد التاريخ فيها اسمه . واستجاب سانشو لهذا النصح ، فاستجمع جنده ، وهجم فى الفجر على الليونيين وهم نيام . فدب إليهم الاضطراب والذعر ، وقتل الكثير منهم أثناء النوم . وفر ألفونسو ، والتجأ إلى كنيسة بلدة كريون ، فقبض عليه وزج إلى حصن برغش . ودخل سانشو بجيشه ظافراً إلى مدينة ليون (يوليه سنة ١٠٧١م)

وهنا تدخلت دونيا أوراكا ، وكانت تحب أخاها ألفونسو ، وسعت إلى إنقاذه من الأسر . فاستجاب سانشو إلى رجائها ، وقبل الإفراج عن ألفونسو ، بشرط أن يرتدى حلة الرهبان ، وأن يقيم فى دير ساهاجون ، فاضطر ألفونسو إلى القبول . ولجأ إلى الدير ، وهنا دبرت أخته أوراكا فراره من الدير ، فسار إلى طليطلة والتجأ إلى ملكها ، المأمون بن ذى النون(١) . فاستقبله المأمون بمنتهى الترحاب والإكرام ، وعامله كأخيه حسبما تقول الرواية النصرانية ، وأنزله داراً بجوار قصره ، وأعد كل ما يلزم لراحته ، وخصص له داراً أخرى خارج المدينة ذات رياض وحدائق للتنزه فيها ، والاجتماع بصحبه النصارى ، ولاسيما مستشاره فرناندو أنسوريز ، وكان يعيش معهم فى أحسن الظروف وأكرمها(٢) .

وإليك كيف يصف الأستاذ پيدال استقبال المأمون لضيفه : « استقبل المأمون الملك المغلوب بإكرام ، بعد أن قطع له العهود اللازمة لسلامته ، وأنزله داراً لحقة بالقصر الملكى ذاته ، تشرف على تحصينات المدينة تجاه قنطرة « القنطرة » . وهكذا كان الملك المنفى يعيش بعيداً عن ضجيج المدينة المسلمة ، وكان بوسعه أن يتريض فى حدائق الملك الشاسعة الواقعة فى الناحية الأخرى من القنطرة داخل المنحنى الكبير الذى يحتضنه نهر التاجُه » .

---

(١) لم يفت الرواية الإسلامية الإشارة إلى هذه الحوادث ، وهى تسمى دير ساهاجون « بسفقند » . راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .

(٢) M. Lafuente; ibid; Vol. II. p, 396

ويشير الأستاذ پيدال بعد ذلك إلى أقوال الرواية العربية عن فخامة قصر المأمون ، وزخارفه البديعة وحدائقه الغناء ، وروعة الحفلات التى تقام به ، ومجالس العلماء الأعلام التى كانت تعقد به ، وتجعل من طليطلة يومئذ مركزاً من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، ثم يقول : « إن النفى الذى كان يعانيه ألفونسو بين هذه الفخامات كان كأنه مقصود من العناية، حسبما يقول لنا مؤلف « تاريخ سيلوس». كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين ، ويتريض فى جنبات المدينة الحصينة، ويفكر من أى الأماكن، وبأى نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها»(١)

حرصنا على إيراد هذه الأقوال ، لنستطيع أن نتأمل على ضوئها فيما بعد ، تصرف ألفونسو السادس ، نحو ولد حاميه والمحسن إليه ، ونحو مملكة طليطلة .

ومما له مغزى عميق ، ما يقصه علينا صاحب رواية دير سيلوس السالفة الذكر من أن ألفونسو ، استمع ذات يوم ، وهو متظاهر بالنوم ، إلى حديث المأمون مع وزرائه فى كيفية الدفاع عن طليطلة ، واحتمال مهاجمة النصارى لها واستيلائهم عليها،وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة . وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة ، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل ، فى تخريب أحوازها وانتساف مؤنها ، ويضيف صاحب هذه الرواية ، أن ألفونسو انتفع بوقته فى دراسة خطط المدينة والاحتمالات التى تمكنه من تنفيذ مشروعه العظيم فى الاستيلاء عليها(٢) .

وقضى ألفونسو فى منفاه ، ببلاط الملك المسلم ، تسعة أشهر من يناير حتى أكتوبر سنة ١٠٧٢ م ، وهو مغمور بكرم مضيفه ورعايته ، إلى أن شاءت الأقدار أن تتطور الحوادث فى قشتالة ، وأن يتألق نجمه مرة أخرى .

ذلك أن سانشو لم يقنع بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون ، بل أراد أن ينتزع أخاه الصغير غرسية مُلْك جليقية ، وكان سير الحوادث فى جليقية ، مما يعاون على تحقيق غايته . ذلك أن غرسية أساء السيرة ، وبالغ فى إرهاق الشعب بالضرائب ، وانصاع فى ذلك لتوجيه وزيره وصفيه برتولا ، وفوض إليه كل شىء فى الدولة . فسخط الأشراف لذلك ، ودبروا مقتل الوزير الطاغية بحضرة مليكه ذاته ، فاستشاط غرسية غضباً ، واشتد عسفه وكثرت

---

(١) R. M. Pidal : ibid; p.176&177

(٢) M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 397

مظالمه حتى ضاق به الشعب ذرعاً ، فلماسار سانشو فى قواته إلى جليقية ، ألفى غرسية نفسه فى مأزق حرج ، ولم يستطع أن يحشد سوى قوة صغيرة ، وأبى جيرانه المسلمون معاونته . والتقى بجيشه الصغير مع أخيه قرب شنترين ، فهزم هزيمة شديدة ، وقتل معظم أصحابه ، ووقع أسيراً فى يد أخيه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أقسم بالخضوع والطاعة ، وعندئذ سار فى نفر من صحبه إلى إشبيلية ، والتجأ إلى أميرها (أواخر سنة ١٠٧١ م) .

ولم يبق بعد ذلك خارجاً عن سلطان سانشو ، سوى مدينتى سمورة ، وتورو اللتين تحكمهما أختاه أورّاكا وإلبيرة . وكان سانشو يحقد على أختيه لعطفهما على أخيه ألفونسو ، ويخشى دسائسهما ومساعيهما الخفية ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وحاول فى البداية أن يحقق غرضه بالمفاوضة ، فعرض على أختيه أن يعوضهما عن المدينتين بأملاك أخرى ، فرفضتا ولم تحفلا بوعيده . وعندئذ سار فى قواته ، واستولى أولا على قلعة تورو ، ولم تبد صاحبتها إلبيرة كبير مقاومة ، ولكن أوراكا صممت على الدفاع عن سمورة ، معتمدة فى ذلك على مناعة المدينة ، وعلى معاونة طائفة قليلة من الجند المخلصين ، وعلى رأسهم الفارس الباسل آرياس كونثالث . وحاول سانشو أن يقتحم المدينة أولا ، ولكنها امتنعت عليه ، فضرب حولها الحصار ، واستمر حينا ،وهو يهاجمها من آن لآخر . وفى ذات يوم نفذ إلى معسكره فارس،وطلب مقابلته لينبئه عن أحوال المدينة المحصورة . وماكاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته وأرداه مضرجاً بدمائه ، وفر إلى المدينة هارباً . ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير أخته الجريئة أوراكا ، وكان ذلك فى ٦ أكتوبر سنة ١٠٧٢ م .

وفى الحال سرى الذعر إلى المعسكر القشتالى ، وانفض عنه الجند الليونيون والجلالقة ، إذكانوا يقاتلون رغماً عنهم ، وحمل القشتاليون جثمان مليكهم القتيل ، ودفنوه فى دير « أونيا » ، وهكذا سقط سانشو صريع أطماعه وبغيه ، بعد أن حكم ثمانية أعوام فقط ، وقد سمى بالقوى **El Fuerte** لجرأته وشجاعته .

واجتمع الأشراف فى برغش ، وأجمعوا على استدعاء ألفونسو ليتولى الحكم مكان أخيه ، بشرط واحد هو أن يقسم بأنه لم يشترك بأى حال فى تدبير مقتل أخيه سانشو ، وبعثوا إليه رسلهم فى طليطلة . وبعثت إليه كذلك أخته

أوراكا ، رسلها على عجل، بالخبر سراً ، قبل أن يقف عليه المأمون بن ذى النون. وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن ألفونسو حينما وقف على النبأ أخفاه عن المأمون، وحاول أن يغادر طليطلة خلسة ، خشية أن يرغمه المأمون على أن يقطع عهوداً ضارة ، ففطن المأمون إلى محاولته وأراد اعتقاله ، ولكنه نجح فى الفرار، وهذه رواية ضعيفة . والحقيقة ، وهى ماتؤيده الروايات الوثيقة ، هو أن ألفونسو أبلغ النبأ فى الحال إلى المأمون ، فأعرب له المأمون عن سروره وغبطته ، وأبدى له استعداده لإمداده بكل ما يرغب من مال وخيل أو غيرها ، ولم يطلب إليه سوى صداقته ، وأن يقطع له عهداً بأن يحترم مملكته ، وأن يعاونه ضد خصومه المسلمين ، وأن يسرى هذا العهد بعد وفاته بالنسبة لولده الأكبر ، فقطع له ألفونسو ما شاء من عهود ، وقدم المأمون إليه طائفة من الهدايا الجليلة ، وصحبه مع أكابر مملكته فى موكب فخم حتى وصل إلى حدود بلاده(١) .

يقول المؤرخ لافونتى : «وكان للمأمون ولد آخر أصغر من أخيه لم يشمله هذا العهد ، لسبب لانعرفه » . ثم يعلق فيما بعد على تصرف المأمون نحو ضيفه بقوله : «إن ما أغدقه المأمون على ألفونسو من ضروب الرعاية والإكرام وقت محنته ، يباين كل التباين تصرف أخيه سانشو نحوه ، فهذا يسجن أخاه فى حصن أو دير . وهذا الأمير المسلم ، يتلقاه فى قصره ، ويعامله كولده ، ويخصص بستانه لرياضته . ولما خلا عرش قشتالة بممالكه الثلاث ، عاون ألفونسو بكل سخاء وإكرام ، ليسير إلى تلقى العروش التى كانت فى انتظاره ، ولم يطالب منه لقاء ذلك شيئاً سوى صداقته . إن تصرف المأمون على هذا النحو يكشف لنا عن العواطف الكريمة التى يجيش بها هذا الجنس العربى »(٢) .

— ٢ —

سار ألفونسو إلى سمورة حيث اجتمع بأخته أوراكا ، وبمن وافاه هنالك من الأساقفة والأشراف من ليون وجليقية ، وبحث الوسائل التى تكفل له اعتلاء عرش قشتالة دون صعوبة . ذلك أن معظم الأشراف وأغلبية الشعب ، كانت تنسب مقتل سانشو جهاراً إلى أوراكا ، ناصحة ألفونسو ، وملهمته . ومن ثم فإنه

---

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 398—400

وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p. 189 & 190

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 438

لما وصل ألفونسو إلى برغش ، واجتمع بأشراف المملكة وكبرائها ، طلبوا إليه أن يقسم بأنه لم يشترك بأية صورة فى تدبير مقتل أخيه سانشو . فنزل ألفونسو عند رغبتهم . بيد أنه لما انتظم الجمع فى الكنيسة التى تقرر أداء القسم فيها ، لم يجرأ أحد من الأشراف أن يتولى تحليف الملك . وعندئذ تقدم منه الفارس ردريجو دياث (السيد فيما بعد) ، قائد أخيه سانشو ومستشاره ، وتولى تحليفه اليمين بنفسه ، فلما أداها ، عقب ردريجو بقوله ، إنه يطلب إلى الله ، إن كان ألفونسو كاذباً ، أن يسلط عليه خائناً يقتله كذلك الذى اغتال أخيه سانشو . وقد خلفت جرأة « السيد » هذه فى نفس ألفونسو أثراً لا يمحى ، ولم يصف قلبه لهذا الفارس فيما بعد قط ، حسبما بينا من قبل فى حياة السيد ، وعلائقه مع مليكه ألفونسو(١) .

وهكذا غدا ألفونسو ملك قشتالة ، كما غدا من قبل ملك ليون وجليقية (ديسمبر سنة ١٠٧٢م)، وعادت المملكة الإسبانية الكبرى إلى تماسكها ووحدتها كما كانت فى عهد أبيه فرناندو . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عاد أخوه غرسية ملك جليقية السابق من منفاه فى إشبيلية معللا النفس ، بعوده إلى العرش ، فدعاه ألفونسو بإشارة أختهما الماكرة أوراكا ، إلى مقابلته للتفهم ، ولكنه ما كاد يصل إلى مكان اللقاء حتى قبض عليه ، وزج إلى حصن « لونا » (فبراير سنة ١٠٧٣م) وهناك أنفق بقية حياته ، سبعة عشر عاماً ، حتى توفى سنة ١٠٩٠ م .

وتحدثنا الرواية النصرانية ، بأن ألفونسو ماكاد يعتلى العرش ، حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون ، وذلك بأن أعانه فى حربه ضد ابن عباد ، وأمده ببعض قواته ، وسار معه إلى قرطبة وعاث فى أحوازها ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى على قرطبة . وربما كان ألفونسو قد أعان المأمون ببعض قواته فى غاراته على قرطبة ، ولكن المأمون استولى على قرطبة بطريقة أخرى دبرها مبعوثه حكم بن عكاشة (١٠٧٥ م) حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، ولم يشترك القشتاليون فى شىء من تلك الحوادث .

ولم تمض بضعة أشهر على ذلك حتى مرض المأمون وتوفى ، فخلفه فى حكم طليطلة ، حسبما تقول الرواية النصرانية ، ولده هشام القادر ، والظاهر أن هشاماً هذا لم يحكم سوى بضعة أشهر ثم توفى ، أو أنه خلع لشدة ولائه للنصارى ، بيد أن

---

(١) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404 و R. M. Pidal ; p. 193 & 198

الرواية العربية ، وهى أرجح فى نظرنا ، تقول إن الذى خلف المأمون ، هو حفيده الملقب بالقادر(١)، وهو ما يدل على أن هشاماً توفى قبيل وفاة أبيه المأمون. وعلى أى حال فإن الرواية النصرانية ، تحاول أن تلتمس من ذلك عذراً يقيل ألفونسو من العهد الذى قطعه لحاميه والمحسن إليه ، بأن يصون مملكته وألا يعتدى عليها ، لأن هذا العهد كان قاصراً على المأمون وابنه الأكبر . أما القادر فهو حفيده ، وهو لم يدخل فى ذلك العهد(٢) .

والواقع أن ألفونسو السادس ، لم يعد له شغل شاغل ، مذ توفى المأمون ، سوى غزو طليطلة ، والاستيلاء عليها ، بل إن هذا المشروع ، يرجع حسبما تؤكده لنا ذلك رواية رهبان سياوس ، التى سبق ذكرها ، إلى وقت إقامته بطليطلة ، وانتهازه تلك الفرصة لدراسة خطط المدينة ، ومواقع الضعف فى تحصيناتها ، وطرق مهاجمتها ، وهى إقامة تقول لنا الرواية المذكورة كأنما اختارتها العناية .

ومن ثم فإن ألفونسو لم يتورع عن تنفيذ خطته ، فى غزو مملكة طليطلة وإرهاقها ، فنراه منذ سنة ١٠٧٨ م يحشد العدة والمؤن ، ويغير على أراضى طليطلة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً ، وينتسف خضراءها وزروعها ، وقد استمر على هذه الغزوات المخربة فى الأعوام التالية ، واستولى خلال ذلك على مدينة طلبيرة ، ثم استولى على سائر المنطقة الواقعة بين طلبيرة ومجريط .

وفى خلال ذلك كان القادر يعانى فى حكم مملكته صعاباً ، ويسود الاضطراب فى مدينة طليطلة ، وتتوالى فيها الأحداث المزعجة على نحو ما فصلنا من قبل فى أخبار مملكة طليطلة . ولما شعر القادر بأنه عاجز عن أن يواجه سيل هذه الغزوات المخربة ، اضطر أن يلوذ بحماية ألفونسو ، وأن يؤدى له الجزية ، وأن يسلمه عدداً من الحصون القريبة من الحدود . كل ذلك وملك قشتالة مستمر فى إرهاقه بطلب المال والأراضى ، والقادر يواجه داخل طليطلة سخط شعبه وتبرمه . وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة ، واضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلتمس غوث ألفونسو وعونه على رده إلى عرشه ، فأجابه ألفونسو إلى ما طلب تمكيناً

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٩ .

(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404

لقبضته منه ، وأمده بقوة من جنده ، وأخضعت المدينة الثائرة ، وجلس القادر على عرشها مرة أخرى ، تحت ظلال الحراب النصرانية ، وذلك فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م).

وهنا نضجت خطة ألفونسو فى الاستيلاء على طليطلة ، وأخذ يعد معداته الأخيرة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ؛ لما رأى اشتداد ساعد ألفونسو وغزواته الكاسحة نحو الجنوب ، وخشى أن يتحول نحوه هذا التيار المخرب ، وأن ينتزعه ألفونسو ، ما استولى عليه من أراضى طليطلة الجنوبية ، قد عقد معه حلفه المشهور الذى يتعهد فيه بأداء الجزية ، وبأن يترك ألفونسو حراً فى مشروعه ضد طليطلة ، ويتعهد ألفونسو من جانبه بأن يساعده على سائر أعدائه المسلمين ، وهو الحلف الذى زعمت التواريخ النصرانية ، بأن المعتمد قد رأى أن يدعمه بتقديم ابنته « زائدة » زوجاً لألفونسو . وهى قصة أثبتنا بطلانها وسخفها فيما تقدم من أخبار المعتمد .

وشعر ألفونسو بحق أن طليطلة قد أضحت تحت رحمته ، ولم يبق عليه الا أن يتم خطته التمهيدية من تخريب أراضيها وإعدام أقواتها ، وقد استمر على تنفيذ هذه الخطة المدمرة زهاء أربعة أعوام ، مذ عاد القادر إلى عرشه فى سنة ١٠٨١ م ، كل ذلك وملوك الطوائف جميعاً إلا واحداً منهم هوأمير بطليوس الشهم ، يشهدون اقتراب النكبة جامدين ، إما بدافع الأثرة والخوف أو عدم الاهتمام والتخاذل ، حتى حم القضاء ، وسقطت المدينة الأندلسية التالدة فى يد ألفونسو السادس فى فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٥ مايو ١٠٨٥ م) . وقد سبق أن تناولنا حوادث سقوط طليطلة وما تلاه ، مفصلة فى أخبار مملكة بنى ذى النون ، فلا حاجة بنا إلى التكرار ، وإنما نود فقط أن ننوه هنا بالطابع الصليبى لحصار طليطلة وافتتاحها ، فقد اشترك فيه إلى جانب جنود قشتالة وليون ، جند من أراجون ، ومتطوعون ومغامرون من فرنسا وغيرها ، قدموا للاشتراك فى مشروع يهم النصرانية كلها .

وقد عادت طليطلة منذ افتتاحها عاصمة لإسبانيا النصرانية ، كما كانت أيام القوط ، وردت إليها صفتها القديمة كمركز رئيسى للكنسية الإسبانية، وهى ماتزال تحتفظ حتى يومنا بهذه الصفة ، وعين لرياستها الأسقف برنار الفرنسى ، عميد دير

ساهاجون ، وذلك بنفوذ الملكة كونستانس ، وهى فرنسية بورجونية الأصل . وكان لتعين هذا الراهب لرياسة الكنيسة الإسبانية ، تأثير شديد فى تطور طقوسها وتقاليدها .

وكان من أول الأعمال التى دلت على بغيه وتعصبه، اعتداؤه على مسجد طليطلة الجامع . وكان من عهود التسليم التى قطعها ألفونسو على نفسه، أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم الجامع لأداء شعائرهم إلى الأبد . بيد أنه ما كاد يمضى شهران على التسليم، حتى دبر هذا القس بتحريض الملكة كونستانس المتعصبة مؤامرته لإزالة الجامع. وكان رجال الدين من النصارى يغصون بالأخص بعظمة الجامع وروعته ، هذا بينما كانت كنائس المدينة كلها صغيرة متواضعة . وعبثاً حاول الكونت ششندو حاكم المدينة أن يثنى القس عن غيه ، وأن يبين له سوء العاقبة فى مخالفة العهود المقطوعة على هذا النحو . وانتهز برنار فرصة غياب الملك فى ليون ، واقتحم الجامع فى جمع من الفرسان وحطم المحراب ، وأمر بإقامة الهياكل . وفى اليوم التالى عقد بالجامع قداساً حافلا ، فهاج المسلمون وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة بالمدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة مدمرة . وعلم الملك بذلك الحادث ، فارتد من ليون على عجل ، وهو يضطرم غيظاً وسخطاً ، إذ كان من سياسته أن يحترم العهود المقطوعة ولو إلى حين ، تفادياً من سخط المسلمين ، واضطرام القلاقل . وتظاهر الملك بأنه سوف يعاقب القس والملكة بالحرق ، وعندئذ تدخل المسلمون والتمسوا إليه العفو عنهما ، ولعلهم كانوا يأملون بذلك أن يستردوا جامعهم . ولكن هذا الأمل الخلاب لم يتحقق ، واستمر العمل فى تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . وفى يوم الأحد ١٨ ديسمبر سنة ١٠٨٥ (١٥ شعبان سنة ٤٧٨ هـ) دشنت الكنيسة الجديدة فى حفل ضخم شهده الملك والأشراف ورجال الدين ، وانتخب فيه برنار مطراناً[١] .

---

(١) ورد تاريخ تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة فى أوراق مخطوطة لم تنشر من كتاب البيان المغرب لابن عذارى ، عثر بها الأستاذ ليڤى بروفنسال ونقله العلامة الأستاذ بيدال فى كتابه La Espana del Cid (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) . وقد تناول ابن بسام حادث تحويل الجامع إلى كنيسة فى عبارته المسجعة (الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١و١٣٢) ولكنه وهم فى تاريخ الحادث فجعله فى ربيع الأول سنة ٤٩٨ — ١١٠٤ م ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تحريف فى المخطوط إذ وضعت عبارة سنة «ثمان وتسعين وأربعمائة» وهى فى الحقيقة «ثمان وسبعين» .

— ٣ —

كان الاستيلاء على طليطلة بلا مراء أعظم أعمال ألفونسو السادس ، بل كان أعظم عمل قام به ملك نصرانى ، مذ قامت المملكة الإسبانية النصرانية فى شبه الجزيرة فى أواخر القرن الثامن الميلادى .

وقد كان لسقوط طليطلة أعمق الآثار فى ميزان القوى فى شبه الجزيرة ، وبه توج تفوق اسبانيا النصرانية السياسى والعسكرى ، واتخذ ملك قشتالة على أثره لقب الإمبراطور ، ودخلت سياسة الإسترداد Reconquista فى طور جديد يبدأ من الناحية الأخرى من نهر التاجُه . بيد أنه كان من آثاره أيضاً أن استيقظت اسبانيا المسلمة من سباتها ، وأدرك ملوك الطوائف ، حقيقة موقفهم ، وعاقبة بغيهم واستهتارهم ، وخطورة تنابذهم وتفرقهم ، وشعروا بخطر الفناء يهدد مصايرهم جميعاً ، وجنحوا عندئذ إلى الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، وكان أن استجاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى صريخهم ،وعبر إلى شبه الجزيرة فى جيوشه المرابطية . وفى ذلك الوقت بالذات كان ألفونسو ، عقب استيلائه على طليطلة ، قد سار إلى سرقسطة وحاصرها ، ليرغم أميرها المستعين بن هود على دفع الجزية ، فلما سمع بمقدم المرابطين ، غادرها مسرعاً إلى الأندلس ليلقى أعداءه الجدد . ثم كانت موقعة الزلاّقة (رجب ٤٧٩ هـ — أكتوبر سنة ١٠٨٦ م) وإحراز الجيوش الإسلامية المتحدة لنصرها الباهر على الجيوش النصرانية المتحدة، وسحق قوات ألفونسو السادس ، وانسحابه فى فلوله القليلة مهيضاً مغلوباً ، وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه بإفاضة .

بيد أن يوسف اضطر عقب الموقعة أن يغادر الأندلس إلى المغرب لوفاة ولده وخلفه الأمير سير . وتنفس ألفونسو الصعداء حيناً ، وأخذ يجمع أشتات جيشه من جديد ، ووفد عليه عندئذ سيل من المتطوعة النصارى النورمان والفرنسيين وغيرهم ، شعوراً منهم بطابع المعركة الصليبى ، ولم يمض سوى قليل ، حتى استرد ألفونسو ثقته بنفسه ،وشعر أنه يستطيع لقاء أعدائه فى الميدان من جديد ، وكان ابن عباد وغيره من أمراء الطوائف قد انتعشوا عقب نصر الزلاقة ، وأغار المعتمد بقواته على أراضى طليطلة ، وانتزع منها عدة أماكن . بيد أن أمراء الطوائف لبثوا مع ذلك على تنابذهم وتفرقهم ، يتربص كل بأخيه ،

ولم يستطيعوا أن يؤلفوا من أنفسهم جبهة متحدة ضد النصارى . ومن ثم فقد استمر السيد إلكمبيادور فى عيثه ومغامراته فى منطقة بلنسية . واستمر القشتاليون من قاعدتهم المنيعة فى حصن لييط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة ، وهو الذى ابتنوه قبل ذلك ببضعة أعوام ، يرهقون هذه المنطقة بغاراتهم المتوالية . وعلى ذلك فقد استصرخ أمراء الطوائف ، أمير المسلمين للعبور إليهم وإنجادهم مرة أخرى .

وعبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٩ م) ، وانضم إليه ابن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم صاحب ألمرية ، وتميم بن بلقين ، صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، وابن رشيق صاحب مرسية ، كل فى قواته ، وهم الذى تقع أملاكهم جميعاً فى شرق الأندلس(١) وتعرض لعدوان القشتاليين فى تلك المنطقة . وضرب المسلمون الحصار حول حصن لييط ، وكان يدافع عنه ألف فارس واثنا عشر ألف راجل من النصارى ، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح آلات الحصار الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ، وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وفى أثناء ذلك كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، ولاسيما بين ابن عباد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ، ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب ولاية مرسية منه ، وأنه تفاهم سراً مع ألفونسو ، ودفع جبايتها إليه . واقتنع أمير المسلمين بوجاهة هذه الشكوى ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ، ومعظمهم من قرابة ابن رشيق وصحبه ، غادروا المحلة فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، وعمه الضيق والغلاء . وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة ، يسير فى قوة كبيرة لإنجاد حصن لييط ، فآثر الانسحاب وعدم التعرض للقشتاليين . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد به من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل قد برح بهم الجوع ، ولما رأى

(١) يلاحظ أن المعتمد ابن عباد كان يدعى حق السيادة على مدينة مرسية منذ افتتحها ابن عمار وابن رشيق باسمه وبمعاونة جنده .

أنه لا فائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة ، أخلاه وقوض أسواره وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩م (٤٨٢ هـ) . وترك أمير المسلمين فى شرق الأندلس قوة كبيرة ، بقيادة ولده الأمير ابن عائشة ، ليقوم بافتتاح مرسية وبلنسية ، والقضاء على سلطان « السيد » فى تلك المنطقة ، وعاد إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس ، لما رآه من اختلال أحوالهم ، وسوء تصرفاتهم ، ووضيع أهوائهم وأطماعهم(١) .

وخاض ألفونسو بعد ذلك ضد المسلمين عدة وقائع أخرى ، ففكر فى الاستيلاء على بلنسية لكى يحرم « السيد » من الاستيلاء عليها ، وسار إليها بالفعل وحاصرها فى سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) ، معتمداً فى ذلك على معاونة سفن چنوة وبيزة اللتين عقد معهما حلفاً لهذا الغرض ، ولكنه فشل فى مشروعه ، وأرغم على ترك الحصار حينما عاث السيد فى أراضى قشتالة . ثم استولى السيد بعد ذلك على بلنسية (١٠٩٤م) ، ولم يمض سوى قليل حتى سار المرابطون لإنقاذها وضربوا حولها الحصار ، وسار جيش مرابطى آخر إلى أحواز طليطلة وعاث فيها وهزم القشتاليين ، وسار جيش ثالث إلى قونقة وهزم قوات ألفونسو التى يقودها ألبارهانيس . فى خلال هذه الوقائع التى رجحت فيها كفة المرابطين على قوات ألفونسو السادس ، توفى « السيد » خلال حصار بلنسية ، واستغاثت زوجه خمينا بألفونسو ، فسار إلى بلنسية ودخلها فى مارس سنة ١١٠٢ ، ولم يعترض المرابطون سبيله استعداداً للموقعة الحاسمة . ولكنه لما رأى ضخامة الجيوش المرابطية ، خشى العاقبة ، وغادر بلنسية مع خمينا وسائر القوات النصرانية ، ودخلها المرابطون فى شهر مايو سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بلنسية .

وسار ألفونسو فى قواته إلى مدينة شنترين من أعمال ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦ هـ) . وقد وقع ذلك فيما يبدو خلال غزو المرابطين لمملكة بطليوس ، التى كانت شنترين من أعمالها ، ونحن نعرف أن بطليوس سقطت فى أيدى المرابطين فى صفر سنة ٤٨٧ هـ (مارس ١٠٩٤ م) .

---

(١) راجع فى حصار حصن لييط ، الحلل الموشية ص ٤٩ و ٥٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله ص ١١٠ – ١١٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ . وراجع أيضاً Dozy : Histoire; V. III. p. 139 &140 ، وكذلك R.M. Pidal : ibid; p. 364, 365 &409

وكانت آخر معركة هامة خاضها ألفونسو السادس مع المسلمين هى موقعة إقليش ، وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد توفى يومئذ (سنة ٥٠٠ هـ) وخلفه ولده على . وقد عبر على عقب توليته إلى شبه الجزيرة الإسبانية فى أوائل سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) معتزماً أن يستأنف الجهاد ضد النصارى ، وعهد بالقيادة إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر ، فسار الأمير تميم فى جيش ضخم ، واخترق أراضى قشتالة،ولكن حالت دون تقدمه قلعة إقليش Uclés المنيعة ، فضرب حولها الحصار فى الحال ، فبعث ألفونسو ، وقد عاقته الشيخوخة عن أن يقود جيشه بنفسه ، قواته لإنجادها ، وبعث معها ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من «زائدة» حظيته أو زوجه المسلمة المتنصرة، لكى يثير حماسة الجند ، وكان صبياً فى الحادية عشرة من عمره . ووقعت بين المرابطين وبين القشتاليين أمام حصن إقليش موقعة شديدة ، حدث خلالها أن ازدلف الأمير الصبى إلى قلب المعمعة ، وشاء القدر أن تصيبه طعنة قاتلة ، وقتل معه مؤدبه الكونت غرسية دى قبره مدافعاً عنه ، فدب الخلل إلى الجيش القشتالى وركن إلى الفرار ، وقتل المرابطون منه مقتلة عظيمة ، يقدر من زهق فيها بنحو عشرين ألفاً (٢٩ مايو سنة ١١٠٩ م)(١) . وكان نصراً عظيماً أعاد ذكريات الزلاّقة ، وكان أشد ما فيها وقعاً فى نفس الملك النصرانى ، فقده لولده الوحيد وولى عهده وانقطاع نسله بذلك . والواقع أن ألفونسو لم يعش طويلا بعد هذه الصدمة المؤلمة ، فتوفى فى ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، بعد أن حكم المملكة النصرانية المتحدة سبعة وثلاثين عاماً ، وحوادث المرحلة الأخيرة من حياته أكثر ارتباطاً بتاريخ المرابطين ، ولكننا حرصنا على استعراضها بإيجاز ، استكمالا لسياق الحوادث .

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على عهد ألفونسو السادس ، أن نتحدث عن أعماله وإصلاحاته الداخلية ، وقد شملت هذه الإصلاحات جوانب هامة فى بناء المملكة النصرانية والمجتمع الإسبانى ، وذلك من الناحيتين الدينية والدنيوية .

ففى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى عهد ألفونسو السادس بالذات توضع الأسس الأولى ، لنفوذ البابوية وسلطانها على اسبانيا والملوكية الإسبانية ، وهو سلطان تأثل بمضى الزمن ، ومازال يحتفظ حتى اليوم بكثير من رسوخه

(١) راجع روض القرطاس ص ١٠٤ . وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١١٧ و ١١٨ .

وقوته . وقد توالت بعثات الكرسى الرسولى إلى الملوك الإسبان فى هذا العهد ، تسعى إلى فرض سيادته الروحية ، وإلى إلغاء الطقوس القوطية المنسوبة للقديس إسيدورو واستبدالها بالطقوس الرومانية . وبذل دير ساهاجون البندكتى ، ورئيسه الراهب برنار الفرنسى عندئذ ، أعظم الجهود لتحقيق أغراض البابوية .

وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى قامت به الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، وهى فرنسية من بيت برجونية ، فى تأييد الراهب برنار واختياره مطراناً للكنيسة الإسبانية ، عقب افتتاح طليطلة . وحصل برنار بعد ذلك على مرسوم بابوى بتعيينه فى ذلك المنصب الخطير ، ووضع فى معظم الأسقفيات رجالا من مواطنيه ، وملأ دير ساهاجون بالرهبان الفرنسيين ، وذلك رغم مناوأة الأحبار الإسبان وسخطهم . وهكذا استطاعت البابوية أن تفرض رياستها الروحية على اسبانيا ، وبالرغم من أن الفونسو ، كان يعارض كثيراً من الرغبات البابوية ، فإنه كان يجل الكرسى الرسولى ويوليه أعظم مقام .

وفى عهد ألفونسو أيضاً وقعت حوادث الحرب الصليبية الأولى بالمشرق ، ولكن البابا أوربان الثانى أصدر مرسوماً يحرم على الإسبان أن يشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، لأن أعداء النصرانية ، أعنى المسلمين ، يهددونهم داخل أرضهم ، ولأن لديهم فى شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدسة ، وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين ، قد حملت رجال الدين أنفسهم على أن ينزلوا هذا الميدان ، فكان شأنهم شأن الأشراف والكونتات يسيرون فى معظم الأحيان مع الملك ، ويقاتلون فى الصفوف ، بل ويقودون الحملات أحياناً .

وقد كان الملك وراثياً فى قشتالة فقط . أما فى باقى الممالك النصرانية ، فكان المفروض أن يختار الأشراف مليكهم ، وكان الملك فى سائر الممالك الإسبانية ، يجمع بين سلطات الحرب والسلم ، وقيادة الجيوش ، ورياسة القضاء ، يعاونه فى ذلك رهط من رجال الخاص Palatini ، وكانت أسماء المناصب معظمها مشتق من النظم القوطية .

وكان نظام الإقطاع ما يزال عندئذ متغلغلا فى تكوين المجتمع الإسبانى ، ويقوم على مراتب متعددة ، أرفعها مرتبة الدوق أو الوالى ، وهو الذى يُقطع

ولاية بأسرها مثل جليقية أو أشتورية . وتليها مرتبة الكونت أو القومس ، وهو الذى يُقطع منطقة معينة ، ثم أصحاب المنح الصغيرة ، وهم البارونات أتباع القومس. وكان هذا النظام عسكرياً ، فى جوهره ، تقترن مراتبه المدنية بالرتب العسكرية ، فالدوق يتولى قيادة جيش الولاية ، ويقود القومس فرقته ، وتتكون من البارونات فرق الفرسان ، والفارس هو أدنى مراتب النبيل ، بيد أن الفرسان كانوا قوام الجيش ، وعليهم تتوقف مصاير الحرب ، وكان الجند المشاة يتكونون من أتباع البارونات ، ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان العرش يخوض معارك دائمة مع أولئك النبلاء الإقطاعيين ، وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى مهادنتهم والإذعان لمطالبهم ، فكانوا بذلك يفوزون بالولايات والرياسات رغم إرادة العرش .

وإلى جانب ذلك كان يقوم هيكل الإقطاع الزراعى على نفس الأسلوب المتدرج ، فيقطع كبار الملاك المزارعين الأحرار ، أجزاء من الأرض يزرعونها . على أن يؤدوا للمالك نصف الدخل أوثلثه على الأقل ، ولم تكن هذه المنح الزراعية تحدد بوقت معين ، بل كان الزارع يعتبر نفسه مالكاً للأرض ، ثم تؤول من بعد وفاته إلى أولاده يزرعونها بنفس الطريقة ، بيد أنه كان ملزماً بالإقامة فيها ، فاذا غادرها إلى ناحية أخرى فقد الحق فى استغلالها .

وكان عدد الأرقاء فى ذلك العصر ، الذى كثرت فيه الحروب ، وكثر فيه السبي والأسر كبيراً ، وكانت هذه الجماهير الغفيرة من المسلمين الذين يؤسرون فى الغارات أو الحروب المختلفة التى تشنها الجيوش النصرانية على الممالك الأندلسية ، يقضى عليهم دائماً بالرق ، ويلزمون بأشق الأعمال الزراعية وغيرها ، ولا يمنحون الحرية إلا باعتناق النصرانية .

وأما عن التشريع ، فقد نظم ألفونسو السادس العدالة ، وألغى حق « القوة » وهو العرف الذى كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه وبالعنف ما يزعم أنه حق له وفرض على الدوقات والقوامس ، أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم ، فوضع بذلك حداً لجرائم الفرسان الناهبين ، وعيث القتلة واللصوص فى سائر أنحاء المملكة .

وكان يشترك فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وتعقد اجتماعاتهم عندئذ فى صفة هيئة تشريعية أو برلمان « كورتيس » Cortes ،

تحت رياسة الملك ، وكان القانون العام المطبق فى ذلك العصر هو القانون القوطى (قانون ألاريك) معدلا بما صدر من تشريعات جديدة كانت تعرف « بالقوانين الطيبة » Buenos Fueros . وكان من المقرر أن كل إنسان حر فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وله أن يختار محامياً أو وكيلا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن لهم حق الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم ، وفقاً لقانون أصدره ألفونسو . وأخيراً فقد كان الميراث يجرى أيضاً وفقاً للقانون القوطى ، وهو يسوى فى الحقوق بين البنين والبنات .

وكانت وراثة العرش أهم مشكلة واجهت ألفونسو قبل موته ، فهو لم ينجب من زوجاته المتواليات من البنين سوى ولده سانشو ، ولد زوجته أوحظيته زائدة المسلمة التى تنصرت باسم ماريا أو اليزابيث ، والتى أتينا على قصتها فيما تقدم من أخبار بنى عباد ، وقد قتل هذا الإبن حسبما أسلفنا فى موقعة إقليش ، فعندئذ اعتزم ألفونسو أن يسند وراثة عرشه إلى ابنته أورّاكا ، التى كان قد رزق بها من زوجته الملكة كونستانس الفرنسية ، وزوجت بالكونت ريموند البرجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . ثم توفى وترك لها ولداً، هو ألفونسو ريمونديس . ولكنه رأى أن يقوى جانب العرش ، ووحدة المملكة ، بتزويجها من ألفونسو الأول ملك أراجون ونافار ، فاستدعى نواب المملكة (الكورتيس) إلى الاجتماع فى ليون ، ومثل فيه الأشراف والأساقفة وحكام الولايات ورجال الدين والفرسان ، وأصدر قرارا ته بشأن وراثة العرش، وخلاصتها أن تكون أوراكا وارثة لعرش قشتالة وليون وأشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو ريمونديس مملكة جليقية ، مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ، فاذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريمونديس أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس . وعهد بتربية الطفل الملكى إلى عمه أسقف ڤين ، والكونت ترافا ، ومنح إمارة جليقية ، تحت وصايتهما ، على أن تكون له دون نقض أو رجوع .

---

(١) رجعنا فى تلخيص أعمال ألفونسو وإصلاحاته الداخلية إلى « تاريخ المرابطين والموحدين » لأشباخ (ص ١٢٠ — ١٣٥) .

نافار وأراجـــون

رأينا فى بداية هذا الفصل كيف هلك غرسية ملك نافار فى موقعة أتابوركا التى نشبت بينه وبين أخيه فرناندو (سنة ١٠٥٤ م) . وكيف اختار فرناندو مع ذلك سانشو ولد أخيه الملك القتيل ليخلفه على عرش نافار ، على أن يكون تحت طاعته .

وكان يحكم أراجون فى ذلك الوقت ، الملك راميرو بن سانشو الكبير ، وكان فى بداية حكمه قد حاول غزو مملكة نافار وانتزاعها من يد أخيه غرسيه ، ولكنه هزم كما رأينا ، ومزق جيشه ، واضطر أن يلجأ إلى السكينة حيناً ليعنى بتنظيم شئونه والنهوض من عثاره . ولما قتل أخوه غرسية ، وتولى ولده سانشو الحكم مكانه ، لبث محافظاً على حياده وسكينته نحو جارته نافار ، ولكنه وجه عدوانه نحو مملكة سرقسطة ، وحاول غزوها ، فاستنصر أميرها المقتدر بن هود ، بفرناندو ملك قشتالة ، فأمده ببعض قواته ، ونشبت بين الفريقين فى جرادوس معركة هزم فيها راميرو وقتل (١٠٦٣ م) .

فخلفه على عرش أراجون ولده سانشو ، المعروف بسانشو راميرز . ولما توفى فرناندو ملك قشتالة حاول ولده سانشو أن يستولى على مملكة نافار ، وكان سانشو ملك نافار ، شعوراً منه بأطماع ملك قشتالة ، قد عقد حلفاً مع جاره سانشو راميرز ، فلما سار سانشو لمحاربتهما ، استطاعا أن يقفا فى وجهه ، وأن يهزماه فى موقعة ڤيانا (١٠٦٧ م) .

واستمر سانشو ملكاً على نافار اثنين وعشرين عاماً ، وفى عهده توطد مركز نافار بين جيرانها ، وأقر المقتدر بن هود صاحب سرقسطة لها بدفع الجزية فى سنة ١٠٦٩ م ، وعقد مع سانشو حلفاً لمعاونته فى حربه ضد خصومه سواء من المسلمين أو النصارى . وجدد هذا التحالف فى سنة ١٠٧٣ م . ولم يمض قليل على ذلك حتى قتل سانشو فى كمين دبره أخوه ريموند وأخته أرمزندة ، وذلك فى سنة ١٠٧٦ م ، فسخط الشعب النافارى لتلك الجريمة أيما سخط ، واستدعى سانشو راميرز ليعتلى عرش نافار . ولكن ريموند استغاث بألفونسو ملك قشتالة ، فسار إلى نافار من ناحيتها الغربية ، وسار إليها سانشو را ميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها ، بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين .

فاستولى سانشو على الجزء الواقع فى منطقة البرنيه ، وفيه العاصمة بنبلونة ، واستولى ألفونسو على القسم المحاذى لنهر إيبرو ، وبذلك اختفت مملكة نافار المستقلة إلى حين ، بعد أن استطاعت أن تذود عن استقلالها عصوراً بإصرار وبسالة ، ونمت مملكة أراجون ، واتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً ، وبدأت تلعب دورها العظيم فى شمال شرقى الجزيرة الإسبانية .

واتجهت أطماع سانشو راميرز بالأخص إلى جارته الإسلامية الجنوبية ، أعنى مملكة سرقسطة ، فقام بمحاصرة مونتشون وأخذها فى سنة ١٠٨٩ م ، ثم سار لحصار وشقة أمنع قواعد مملكة سرقسطة الشمالية وحاصرها ، ولكنه توفى بعد قليل تحت أسوارها ، فتابع ولده وخلفه بيدرو الأول الحصار ، واستغاث المستعين بملك قشتالة فأمده ببعض قواته ، وسار لإنجاد المدينة المحصورة ، ووقعت بينه وبين بيدرو معركة شديدة فى الكرازة ، فهزم المستعين وحلفاؤه القشتاليون هزيمة شديدة ، وسقطت وشقة بعد ذلك بأيام قلائل فى نوفمبر سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى موضعه من أخبار مملكة سرقسطة .

وفى العام التالى سار بيدرو فى قواته لمعاونة حليفه السيد إلكمبيادور ضد المرابطين ، ووقعت الهزيمة على المرابطين فى « منديز » قرب بلنسية .

واستمر بيدرو الأول على عرش أرجون حتى وفاته سنة ١١٠٥ م ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً ، وهو الذى مهد بافتتاحه لوشقة وبربشتر إلى القضاء على مملكة سرقسطة ، وسقوطها فيما بعد فى يد أخيه وخلفه ألفونسو ، وكان ورعاً متعصباً ، لايكاد يفتح مدينة إسلامية ، حتى يحول فى الحال مساجدها إلى كنائس ، ويغدق الصلات الوفيرة على الكنائس والأديار . ولما كان ولده الوحيد قد توفى قبل وفاته ، فقد خلفه على عرش أراجون أخوه ألفونسو الأول الأرجونى المعروف بالمحارب ، وهو الذى قدر له ، فيما بعد بزواجه من أورّاكا أبنة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، أن يحكم سائر الممالك الإسبانية ، وأن يغدو من أعظم ملوك اسبانيا .

إمارة برشـــلونة

إلى جانب الممالك الإسبانية النصرانية ، التى تقوم فى النصف الشمالى من شبه الجزيرة الإسبانية ، كانت تقوم فى الركن الشمالى الشرقى مما يلى جبال البرنيه ،

إمارة نصرانية أخرى ، هى إمارة أوكونتية برشاونة . ونحن نعرف أن برشاونة كانت أول ثغر عظيم يفقده المسلمون فى شمالى شبه الجزيرة ، وقد افتتحها شارلمان (كارل الأكبر) فى سنة ١٩٥ هـ (٨٠١ م) أيام الحكم بن هشام ، وجعلها قاعدة الثغر القوطى أو الثغر الإسبانى ، الذى أنشأه فيما وراء البرنيه ، حماية لحدود فرنسا الجنوبية . وكان ملوك الفرنج يعينون حكام هذا الثغر فى البداية من الأشراف أو الكونتات الذى ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولما ضعفت مملكة الفرنج وتخلت عن حماية الثغر وإمداده ، وشعر أولئك الكونتات بقوتهم ، ونأيهم عن الحكومة المركزية ، أعلنوا استقلالهم ، وانقسم الثغر إلى عدة إمارات أوكونتيات صغيرة كان أهمها إمارة برشلونة. وكان يحكمها فى أواخر القرن العاشر آل بوريل، وفى عهدهم غزاها المنصور بن أبى عامر ، واقتحمها وخربها ، وذلك فى سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥ م)، ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بها . ولما سقطت الدولة العامرية واضطرمت الفتنة فى قرطبة ، سعى واضح الصقلبى فى الاستعانة بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل ، وزميله كونت أرقلة ، فسار معه لمقاتلة البربر لقاء أموال جزيلة ، واشترك إلى جانب المهدى محمد بن هشام فى المعارك التى وقعت يومئذ (٤٠٠هـ — ١٠١٠م) . ومنذ أوائل القرن الحادى عشر نرى برشلونة تحت حكم آل برنجير ، وقد حكمها مؤسس هذه الأسرة الكونت رامون برنجير الكبير من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٧٦م ، وفى عهده اتسعت رقعة الإمارة ، وضمت إليها أرقلة وشرطانية[1] ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة الفرنجية ، فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث . وكان لضم هذا الجزء من أراضى لانجدوك إلى إمارة برشلونة نتيجة هامة ، هى إعادة الصلة بين الثغر القوطى القديم ، وجنوبى فرنسا ، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنج المغامرين ، الذين تحدوهم روح صليبية ، وتحدوهم البحث وراء طالعهم ، والتحاق جموع كبيرة منهم بالجيوش النصرانية التى تقاتل المسلمين فى شبه الجزيرة .

وكان من أهم أعمال الكونت برنجير الأول ، هى إصلاحاته القضائية ، فقد استدعى فى سنة ١٠٦٨ م جمعية من الكبراء فى برشلونة ، وأصدر هذا البرلمان قانوناً جديداً سمى « بعرف برشلونة » Usages de Barcelona ليطبق إلى جانب القانون القوطى القديم .

---

(١) أرقلة هى بالإسبانية Urgel ، وشرطانية هى : Cerdana

ولما توفى رامون برنجير الأول خلفه ولداه برنجير ورامون فى حكم الإماره معاً وفقاً لوصيته . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر : وفى سنة ١٠٨٢ م ، قتل رامون غيلة ، واتجهت الشبهة فى ذلك إلى أخيه . وقام برنجير بحكم الإمارة منفرداً بالأصالة عن نفسه ، وبصفته وصياً على ولد أخيه القاصر رامون الثالث .

وكان بنو هود أمراء سرقسطة ، وهم جيران إمارة برشلونة ، يعتقدون فى مقدرة الفرسان القطلان أبناء هذه الولاية ، ويحصلون على معاونة آل برنجير من آن لآخر . وقد لعب أمراء برشلونة فى ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم الملوك النصارى ، فى معاونة الأمراء المسلمين ، سواء ضد أبناء دينهم المسلمين أوضد النصارى أنفسهم . وقد أشرنا إلى ما وقع من ذلك فى كثير من المواطن فى أخبار مملكة سرقسطة ومملكة بلنسية. وكان أبرز دور قام به آل برنجير فى ذلك هو استعانة المستعين بن هود بالكونت برنجير فى مشروعه لافتتاح بلنسية. وكان الكونت يضطرم بغضاً نحو « السيد » ومشاريعه . فسار فى قواته لمحاصرة بلنسية ، ولبث على حصارها وقتاً ، حتى اقترب « السيد » بقواته من المدينة ، وتبادل السيد والكونت بعض رسائل التحدى المهينة ، وأخيراً وقعت الحرب بينهما ، فهزم الكونت وأسر ، ولم يطلقه السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم وقع التفاهم بينهما ، وترك الكونت حصار المدينة وعاد بقواته (١٠٩٠ م) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكونت برنجير ، اشترك قبل ذلك بقليل مع قوات ألفونسو السادس ، فى موقعة الزلاّقة (١٠٨٦ م) إلى جانب باقى الملوك النصارى ، إيماناً منهم جميعاً ، بأنهم يقاتلون فى معركة صليبية عامة .

واستمر الكونت برنجير فى حكم إمارة قطلونية حتى سنة ١٠٩٢ م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتى رامون برنجير الثالث ، وسافر حاجاً إلى المشرق ، فحكم رامون الإمارة بكفاية ، وقاوم غزوات المرابطين فيما بعد بنجاح .

الفصل الثالث

النصارى المعاهـــدون

النصارى المعاهدون . مركزهم وأحوالهم فى ظل الحكومة الإسلامية . أحوالهم فى ظل الطوائف . مصانعة أمراء الطوائف لهم . تمتعهم بالتسامح فى شرق الأندلس . أحوالهم فى مملكة سرقسطة . عدم ولائهم للحكومات المسلمة . مداخلتهم للملوك النصارى ومعاونتهم ضد المسلمين . صدى هذا الموقف فى دول الطوائف . استدعاؤهم ألفونسو الأرجونى لغزو الأندلس . قيامه بالغزوة المنشودة . فتوى الفقهاء بخيانة المعاهدين ووجوب تغريبهم . ظهور مجتمع المدجنين فى القواعد الإسلامية المفتوحة .

يجدر بنا بعد أن تحدثنا من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، أن نعرض فى شىء من التفصيل إلى موقف النصارى المعاهدين وأحوالهم فى عصر الطوائف ، وهو العصر الذى سرى فيه الانحلال السياسى والعسكرى إلى اسبانيا المسلمة ، ومزقتها الحروب الأهلية ، وتطاولت عليها الممالك الإسبانية النصرانية . ونحن نعرف أن النصارى المعاهدين ، كانوا منذ عهد الإمارة يكونون أقليات ذات شأن فى القواعد الأندلسية الكبرى ، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية وسرقسطة . وكانت هذه الأقليات النصرانية تعيش آمنة مطمئنة ، فى ظل الحكومة الإسلامية ، تزاول نشاطها وشعائرها بمنتهى الحرية ، ويتمتع النابهون من أبنائها بعطف الخلفاء وثقتهم وتقديرهم ، ويشغل الكثير منهم مناصب هامة فى الإدارة وفى القصر . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار الأمراء والخلفاء إلى كثير من أولئك النصارى البارزين . وكانوا إلى جانب اللغة العربية التى يتقنها الكثير منهم ، يتكلمون لغتهم الرومانية الأصلية Romance ، وهى اللغة التى كانت سائدة يومئذ فى الممالك الإسبانية النصرانية ، وكان يعرفها كثير من أكابر الصقالبة فى البلاط الأندلسى ، وبعض أكابر المسلمين من الوزراء والكتاب . وكانت هذه اللغة هى لغة النصارى المعاهدين المكتوبة ، التى يستعملونها فى مخاطباتهم ومعاملاتهم داخل المجتمع الإسلامى ، الذى يعيشون فيه . وكان المسلمون يستعملون أحياناً بعض عبارات هذه اللغة الرومانية ، وهى التى يسمونها « اللطينية » ولاسيما فى بعض المسائل العلمية(١) .

---

(١) R. M. Pidal : Origines del Espanol, p. 418 & 421

فلما انهارت الخلافة، وانهارت معها الحكومة المركزية ، وقامت دول الطوائف ، طرأ تغير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين . وبالرغم من أن هذا التغير لم يكن دائماً ضد مصالحهم أو حرياتهم، فإن مصايرهم وأحوالهم أضحت فى كل دولة من دول الطوائف ، تتوقف على ظروف تلك الدولة، وعلى سياسة حكومتها المحلية . ونستطيع أن نقول إن النصارى المعاهدين لقوا على وجه العموم فى مختلف دول الطوائف نفس المعاملة الكريمة التى كانوا يلقونها فى ظل حكومة الخلفاء ، بل لقد كان فى ظروف بعض هذه الدول ، ما يحملها على اتباع سياسة خاصة ، تتسم باللين والمصانعة نحو رعاياها النصارى ، ولما عصفت ريح الحرب الأهلية بقرطبة ، عقب انهيار الخلافة اضطربت أحوال المعاهدين بها ، وقد كانوا يعطفون على الجبهة العامرية، ويخشون من عسف البربر وطغيانهم، فلما بسط البربر سلطانهم على عاصمة الخلافة ، أخذت جموع كبيرة منهم تغادر قرطبة فى أثر الفتيان العامريين إلى شرقى الأندلس . ولما قامت دولة بنى جهور فى قرطبة، بذلت حكومة الجماعة جهدها لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وندب أبو الوليد ابن جهور وزيره الشاعر الكبير ابن زيدون، « للنظر فى شئون أهل الذمة فى بعض الأمور المعترضة »(١) .

ولم تقتصر هذه العناية بشئون النصارى المعاهدين على حكومة قرطبة ، بل لقد كانت معظم دول الطوائف الأخرى ، تبذل جهوداً خاصة لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وكسب مودتهم . وكانت بواعث هذه السياسة الودية واضحة ، فى الظروف التى كانت تجوزها دول الطوائف يومئذ . فقد كانت مملكة قشتالة النصرانية تملك زمام التفوق العسكرى ، وكان ملك قشتالة ألفونسو السادس ، يرهق دول الطوائف بإغاراته المتوالية ، ومطالبه المالية المغرقة ، وكان ملوك الطوائف يتسابقون إلى خطب مودته ، واتقاء شره ، وكان منهم من يستعديه على جيرانه المسلمين . وكانت الأقليات النصرانية فى القواعد الأندلسية ، فى مثل هذه الظروف تعتبر مكامن للخطر والدسائس، وكان ملوك الطوائف يحملون بذلك على مصانعتها ومداراتها . وكان بنو عباد فى مقدمة أولئك الملوك الذين عملوا على حماية المعاهدين وكسب مودتهم ، وقد كانوا أشد ملوك الطوائف سعياً

(١) فى « إعتاب الكتاب » لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) اللوحة — ١٦ .

إلى محالفة ملك قشتالة ، واتقاء عاديته ، وكان للنصارى المعاهدين فى بلاطهم مكانة وظهور . ومنهم شعراء مثل ابن المرجرى الإشبيلى ، وابن مرتين . وكان قائد ابن عباد فى فتح قرطبة ، وهو محمد بن مرتين ، من أصل نصرانى ، وبنو عباد هم الذين احتضنوا الكونت سسنندو فى حداثته ،وساعدوه على الظهور ورفعوا مكانته فى بلاطهم ، وأولوه ثقتهم ، واستخدموه فى أخص مهامهم السياسة[١] . وكان بنومناد البربر ملوك غرناطة يصطنعون اليهود فى البداية ، فلما اشتدت وطأتهم على صنهاجة ، وانتهت إلى البطش بهم (سنة ٤٥٩ هـ — ١٠٦٦ م) ، جنح أمير غرناطة عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، إلى اصطناع النصارى ، واضطر بضغط الظروف إلى محالفة ملك قشتالة ، أو بعبارة أخرى إلى الانضواء تحت حمايته وتأدية الجزية له ، وتمتع المعاهدون فى غرناطة بالحماية والرعاية ، وازدهرت أحوالهم واشتد ساعدهم ، واتخذ الأمير عبد الله فى بطانته ، عدة من أكابر النصارى القشتاليين ، يعاونونه فى شئون الحرب والإدارة ومنهم عدة من أكابر الفرسان[٢] .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به النصارى المعاهدون فى شرقى الأندلس ولاسيما فى مملكة دانية من ضروب الرعاية والتسامح . وقد كان الفتيان الصقالبة الذين سيطروا على شرقى الأندلس من أشد الرؤساء تسامحا نحو المعاهدين . وكان مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر ، ثم ولده على إقبال الدولة من بعده ، كلاهما يبدى نحو رعاياه النصارى منتهى العطف والتسامح ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى ما يقال عن« أصل مجاهد النصرانى » وإلى أن زوجته كانت نصرانية ، وكذلك ولده على ، فقد نشأ فى حداثته بين نصارى سردانية ، وتخلق بأخلاقهم واعتنق دينهم ، قبل أن يعتنق الإسلام بعد عوده من الأسر ، بيد أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب ذلك ، أن هذا التسامح نحو النصارى كان حسبما بينا فى موضعه ، سياسة مقررة لحكومة مجاهد وولده على ، وأنهما استطاعا بواسطة هذه السياسة المستنيرة ، أن يجتنبا عدوان الملوك النصارى ، وأن تتمع مملكة دانية فى ظلهما بفترات طويلة من السلام والرخاء .

وثمة مملكة أخرى من ممالك الطوائف ، كانت ظروفها تدعو إلى مزيد من

---

(١) Isidro de las Cagigas : Los Mozarbes (Madrid 1947) T. II. p. 427

(٢) Is. de las Cagihas : ibid; T. II. p. 493

التسامح نحو رعاياها النصارى : تلك هى مملكة سرقسطة ، فقد كانت بموقعها بين الممالك النصرانية الأربع ، قشتالة ونافار ، وأراجون وبرشلونة ، وكونها تعتبر بهذا الموقع حاجزاً بين اسبانيا المسلمة ، والممالك النصرانية من ناحية الشمال الشرقى ، ثم بكونها تضم بين سكانها أقليات نصرانية كثيفة ، كانت لذلك كله تجد نفسها مدفوعة بحكم الواقع والظروف إلى اتباع سياسة الاعتدال والتسامح نحو رعاياها النصارى ، وقد كانت هذه المنطقة فى الواقع وهى منطقة الثغر الأعلى منذ أيام بنى قسىّ وبنى الطويل وغيرهم من زعماء المولدين ، ميداناً خصباً لالتقاء العناصر المسلمة والنصرانية وامتزاجها بقوة ، وكانت بذلك مهدا لظهور المعاهدين ، ومشاركتهم بقسط بارز فى الحياة السياسية والاجتماعية . وكان بنو تجيب حكام الثغر الأعلى، ومن بعدهم بنو هود أصحاب مملكة سرقسطة يبسطون رعايتهم وحمايتهم على النصارى المعاهدين . وكان بنو هود بالأخص يشعرون بدقة مركزهم بين الممالك النصرانية ، وتحفز هذه الممالك دائماً إلى التدخل فى شئون مملكتهم وضغطها عليهم لاقتضاء الجزية ، أو لاقتطاع بعض مدنهم وحصونهم ، ويحاولون بسياسة التسامح المطلق نحو رعاياهم النصارى ، أن يجتنبوا الدسائس والاضطرابات الداخلية ، وأن يغنموا حياد الملوك النصارى وجنوحهم إلى المهادنة . وكان المقتدر بن هود . وهو أعظم ملوك سرقسطة من أشد أنصار هذا التسامح ، وكان بين وزرائه المقربين وزير نصرانى هو أبو عامر بن غند شلب Gundisalvo ، وكان أديباً شاعراً . أجل وقعت فى سرقسطة فى سنة ١٠٦٥ م فى عهد المقتدر مذبحة للنصارى ، وذلك على أثر عدوان النورمان الشنيع على مسلمى بربشتر ، وكان فيه من الروع والاستثارة ما فيه . بيد أنه كان حادثاً مستقلا ، ولم يلبث أن استدركت عواقبه . وقد رأينا من جهة أخرى كيف كان بنو هود ، يعتمدون على محالفة جيرانهم من الملوك النصارى ، ويحشدون المرتزقة النصارى فى جيوشهم بصفة مستمرة ، وكيف كانوا أول من استخدم السيد إلكمبيادور ، واعتمدوا على محالفته زمنا(١) .

بيد أن هناك حقيقة يجب التنويه بها ، وهو أن النصارى المعاهدين ، بالرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح ، التى كان يتبعها نحوهم ملوك الطوائف ،

---

(١) Is. de las Cagigas : ibid., T. II. p. 448, 451, 452, 454, 462 & 463

سواء لبواعث كانت ترغمهم على اتباعها، أو لسياسة مستنيرة كانوا يؤثرونها، لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة، التى كانت تبذل وسعها لحمايتهم واسترضائهم، بل لبثوا دائماً على ضغنهم وخصومتهم لها وتربصهم بها. ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها، وممالأة الملوك النصارى، ومعونتهم بكل وسيلة على محاربتها، وتسهيل مهمتهم فى غزوها والتنكيل بها. ولدينا فى تاريخ الطوائف من ذلك أمثلة لاحصر لها. ففى حصار قلمرية وافتتاحها (٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م) لعب النصارى المعاهدون — وقد كانوا كثرة هذه المنطقة — دوراً بارزاً فى معاونة الجيش القشتالى المحاصر، وعاونه رهبان دير لورفان القريب من قلمرية بمؤنهم المختزنة، وسهلوا له بذلك الصمود، حتى اضطرت المدينة المحصورة إلى التسليم[1]. ودأب النصارى المعاهدون فى طليطلة أيام القادر بن ذى النون على تدبير الدسائس، وبث الفتن والاضطرابات داخل المدينة، والاتصال المستمر بألفونسو السادس وأعوانه، ومؤازرة الناقمين من المسلمين ضد الحكومة القائمة، والعمل بذلك على تحطيم كل جبهة للمقاومة الحقيقية، وانتهى الأمر بتذليل السبيل لألفونسو السادس لمحاصرة المدينة المفتوحة. ولعب النصارى المعاهدون فى بلنسية مثل هذا الدور داخل بلنسية، لمعاونة السيد فى مغامراته المتوالية لمحاصرة المدينة والاستيلاء عليها. وهكذا كان النصارى المعاهدون، فى كل موطن وكل فرصة، يعملون ماوسعوا لتحطيم تلك الممالك الإسلامية التى تقوم بحمايتهم ورعايتهم، والتمهيد بذلك للقضاء عليها وسقوطها فى أيدى الملوك النصارى. وهذا ما يعبر عنه الأستاذ پيدال بقوله: «إن نجم المعاهدين قد بزغ ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية وقيام دول الطوائف الضعيفة، واستطاعوا أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية والاسترداد النصرانى[2].

ومن ثم فإنا نجد، عقب سقوط طليطلة، واشتداد روح العدوان من جانب إسبانيا النصرانية، شعور التقاطع والريب، ينمو ويشتد ضد جماعات النصارى المعاهدين فى مختلف القواعد الأندلسية، وترتفع أصوات الفقهاء بالاشتداد فى معاملتهم، وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح، التى كانوا يتمتعون بها من قبل. ومن ذلك مثلا ما دعا إليه ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة وهى

(١) راجع: Is. de las Cagigas : ibid; T. II. p. 455

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 424

التي وضعت في بداية العهد المرابطي، من أنه « يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس » وأنه نظرا لفساد أخلاق القساوسة، يجب أن يؤمروا بالزواج كما في ديار المشرق، ويجب ألا يترك في دار القسيس امرأة ولا عجوز ولا غيرها، كما يجب أن تمتنع النساء الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة إلا في يوم فضل أو عيد، ويجب ألا يباع من اليهود أو النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم، لأنهم يترجمون كتب العلوم، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين، كما يجب أن يمنع الأطباء اليهود أو النصارى من معالجة المسلمين[1]. فهذه الدعوات وأمثالها، إلى التشدد في معاملة المعاهدين، لم تكن إلا صدى لمواقفهم المتسمة بالعدوان والخيانة. وكانت تلقى في ظل الحكم المرابطي، المتسم بروح التزمت الديني قبولا. وقد بلغ اجتراء المعاهدين وخيانتهم ذروتها، حينما عملوا على استدعاء ألفونسو المحارب ملك أراجون، لغزو الأندلس، ووعدوه بأن ينضموا ألوفاً إلى جيشه متى اخترق الأندلس. وقام ألفونسو بالفعل بالغزوة المنشودة، فخرج من سرقسطة في سبتمبر سنة ١١٢٥ م (٥١٩ هـ)، في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف، واخترق الأندلس، من الجانب الشرقي ماراً بقرب بلنسية ودانية ومرسية، وهو يعيث في بسائطها، والمعاهدون يحشدون في جيشه من كل صوب، واستمر في سيره حتى وادي آش، ووصل إلى ظاهر غرناطة في شهر يناير من العام التالي (١١٢٦ م)، ولكنه أدرك أنه لا يستطيع أن ينال منها مأرباً. وهنالك بعث إلى زعيم المعاهدين بغرناطة يلومه لتقصيرهم في معاونته، فردوا عليه بأنه هو الذي أضاع الوقت في زحفه الطويل سدى، ثم أخذت القوات المرابطية بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم تلاحقه وترهقه باستمرار، وهو يتجول بقواته في شمال غرناطة، ووقعت بينه وبين المرابطين في مارس (١١٢٦ م) في فحص الرنيسول موقعة هزم فيها المرابطون. بيد أنه لم يستطع الاستفادة من نصره، فاستمر في زحفه جنوباً، واخترق هضاب البشرات حتى شاطىء البحر المتوسط، ثم عاد إلى الشمال، وقد خسر كثيراً من جنده بسبب الإعياء والوباء.

وكان من أثر هذا العدوان الجسيم، أن قرر أمير المسلمين، وفقاً لفتاوى

---

(١) رسالة ابن عبدون في الحسبة ص ٥٥ و ٥٧.

الفقهاء ، تغريب النصارى المعاهدين ، لأنهم نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة . وأبعدت منهم بناء على ذلك عن الأندلس ألوف عديدة ، فرقت فى مختلف أنحاء إفريقية(١) .

وثمة ظاهرة أخرى برزت فى أواخر عهد الطوائف ، وترتبت على سقوط طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة فى يد القشتاليين ، ثم سقوط سرقسطة وأعمالها بعد ذلك بقليل فى يد ملك أراجون (٥١٢ هـ — ١١١٨ م) . فإلى ذلك الحين كانت المشكلة العنصرية والدينية . تنحصر فى جانب واحد ، وهو أقليات النصارى المعاهدين التى تعيش فى القواعد الأندلسية تحت الحكم الإسلامى . ولكن تبرز من ذلك الحين مشكلة عنصرية دينية مقابلة ، هى مشكلة الأقليات المسلمة التى بقيت فى القواعد الأندلسية المفتوحة تحت الحكم النصرانى ، وأولئك هم المدجّنون ، (وبالإسبانية Mudéjares) الذين يبدأ ذكرهم فى التواريخ الأندلسية ، منذ أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، والذين تزداد جموعهم تباعاً كلما سقطت قاعدة أندلسية جديدة فى أيدى النصارى(٢) .

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ . كذلك R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 425 و F. Codera : Decadencia y Disparicòn de los Almoravides, p. 15 & 16

(٢) تحدثنا عن أحوال المدجنين بإفاضة فى كتابنا «نهاية الأندلس» وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام فى الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٥٥ — ٦٧ .

خاتمة

خواص عصر الطوائف

السياسية والاجتماعية والحضارية

— ١ —

الخـــــواص السـياسية

الآن وقد انتهينا من أخبار ممالك الطوائف ، واستعراض الأحداث التي مرت بها ، منذ إنشائها حتى سقوطها ، وتقديم زعمائها وملوكها ، في صورهم السياسية والأدبية ، ووصف قصورهم وخططهم، نرى لزاماً علينا أن نستعرض خواص هذه الحقبة من تاريخ اسبانيا المسلمة ، وهي حقبة فياضة بالأحداث والمحن المثيرة ، وأن نستعرض خواص مجتمع الطوائف ، وأحواله المادية والأدبية والاجتماعية .

لقد شغل عصر الطوائف من حياة الأمة الأندلسية نحو ثمانين عاماً ، وكان عصر تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل ، بالرغم مما كان يبدو في بعض نواحيه من جوانب براقة . والواقع أن هذه الدول الصغيرة ، التي قامت على أنقاض الأندلس الكبرى، والتي كانت تتسم بسمة الملك ، وتزعم لنفسها الاستقلال بشئونها ، كانت تنقصها من الناحية النظامية ، عناصر الدولة المستقرة ، ولم تكن — إذا استثنينا القليل منها — سواء برقاعها الإقليمة، ومواردها المادية ، تستطيع الحياة بمفردها ، أو تستطيع الاستقلال بشئونها السياسية أو العسكرية ، وإنما كانت دول الطوائف أقرب منها إلى وحدات الإقطاع ، وإلى عصبة الأسرة القوية ذات العصبية ؛ أو الجماعة القبلية في حالة الإمارات البربرية ، ومن ثم فإنه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح،تكون مهمتها الأساسية ، أن تعمل لخير الشعب ورخائه ، وصون الأمن والنظام ، وإنما كانت بها أسر أو زعامات ، تعمل قبل كل شيء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطانها وبذخها . وكان الشعب في ظل هذه الأسر أو الزعامات القوية ، لاحساب له ، وليس عليه إلا أن يخضع لما يفرض عليه من مختلف المغارم والفروض ، التي يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم أولا ، ثم لحشد الجند الذين هم سياج ملكه

وسلطانه ، وأخيراً لتنفيذ مشاريعه السياسية والعسكرية ، وهى لا تخرج غالباً عن مهاجمة زميله وجاره الأضعف منه ، وانتزاع ما فى يده ، وقلما تتجه إلى القضية الكبرى ، قضية الدفاع عن الأندلس ضد عدوها الخالد ، الدائب لمقارعتها وتحطيمها ، ونعنى اسبانيا النصرانية .

ولقد كان ملوك الطوائف فى ذلك أسوأ قدوة . كانوا ملوكاً ضعافاً فى وطنيتهم ، ضعافاً فى دينهم ، غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود ، ونسوا فى غمارها وطنهم ، ودينهم ، بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية ، واستساغوا لأنفسهم أن يتراموا على أعتاب الملوك النصارى ، وأن يستعدوهم بعضهم على بعض ، لا فى سبيل قضية محترمة ، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة ، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين وقد انتهى أمراء الطوائف فى ذلك إلى درك ، يستحق أن يوصف بأقسى النعوت ، ويكفى أن نستعرض فى ذلك ، موقف ملوك الطوائف إزاء نكبة طليطلة ، وتخاذلهم جميعاً عن إنجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على أخذها ، وهم جميعاً — إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس الشهم — ينظرون إلى استشهاد المدينة المسلمة ، جامدين لا يطمعون إلا فى رضاء ملك قشتالة ، وفى سلامة أنفسهم . وقد كان ملك قشتالة يعاملهم حسبما رأينا فى غير موطن ، معاملة الأتباع ، ويبتز منهم الأموال الطائلة ، باسم الجزية ، ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم ، ويكفى أن نتلو فى ذلك ما سطره ابن بسام فى الذخيرة ، من وصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة ، وقت نزوله أمام طليطلة ، وهى على وشك التسليم إليه ، وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع ، وفقد كل كرامة قومية(١) .

ولم يكن ملوك الطوائف فى سياستهم الداخلية ، وإزاء شعوبهم ، أفضل موقفاً ، ولا أكرم تصرفاً . فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم ، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم وبذخهم ، ولم يكن يردعهم فى ذلك رادع ، لا من الدين ، ولا من الأخلاق . وقد كانت سياستهم الداخلية هذه ، مثل سياستهم الخارجية ، موضع السخط من شعوبهم ، والطعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين . وقد صدرت

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

للفيلسوف ابن حزم، وهو من أعظم مفكرى عصر الطوائف، عن فتنة الطوائف، ودولها، وأمرائها المستهترين، ومجتمعها المنحل، وحكوماتها الباغية، طائفة من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت فى رسالته المعنونة « التلخيص لوجوه التخليص »[١]. وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة فى شئون دينية وفقهية، وجهت إليه من بعض أصدقائه، ومنها سؤال يتعلق بأمر الفتنة، وآخر عن وجه السلامة فى المطعم والملبس والمكسب، وتتضمن هذه الأقوال من النظرات الثاقبة، والأحكام القاطعة، ما يدمغ مجتمع الطوائف بشدة وقسوة، وهى مع سلامة منطقها، وعدالتها، مما يبعث إلى النفس أشد ضروب الأسى والألم، فهو يصف لنا فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى:

« وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء، أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع فى الأرض بفساد. والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية، والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم، فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم »[١].

وقد كان الفقهاء فى الواقع، فى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية، أكبر عضد لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم،

---

(١) نشر الأستاذ ميجيل آسين بلا ثيوس M. Asin Palacios بعض مقتطفات من هذه الرسالة فى مجلة الأندلس Al-Andalus (ano 1934), p. 35-37 . ثم نشرت الرسالة بعد ذلك كاملة ضمن مجموعة رسائل أخرى لابن حزم بعنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى » (القاهرة سنة ١٩٦٠) ، ص ١٣٩ — ١٨٥

وتزكية تصرفاتهم، وابتزازهم لأموال الرعية ، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة، ويتقلبون فى خدمات كل قصر ، ليحرزوا النفوذ والمال ، ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم بالأخص فى ظل دول الطوائف مجال العمل والاستغلال والدس ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء . ولم يفت مؤرخ العصر أبومروان ابن حيان، أن ينوه بهذا التآلف والتضامن بين الأمراء والفقهاء : فى تأييد الظلم والفساد ، والخروج على أحكام الدين ، وإليك مايقوله لنا فى ذلك :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح : فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لاكفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، وخابط فى أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتقية فى صدقهم »(١) .

وقد قاسى الشعب الأندلسى فى ظل طغيان الطوائف ، كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم ، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة ، التى كان يعيش فى غمارها ، وانقلاب الأوضاع فى سائر مناحى الحياة ، وتوالى الفتن والحروب الداخلية ، ولكنه كان يقاسى فى نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغاة ، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة ، يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها ، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستصفون ثرواتهم ، وثمار كدهم ، إرضاء لشهواتهم فى إنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد، والانهماك فى حياة الترف الناعم ، والإغداق على الصحب والمنافقين ، هذا فضلا عن حشد الجند ، لإقامة نيرهم ، وتدعيم طغيانهم . وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية ، واختلط الحق بالباطل، والحلال بالحرام ، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة ، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية ، وتحقيق الكسب بأى الوسائل . وقد شرح لنا الفيلسوف ابن حزم طرفاً من هذه الفوضى الاجتماعية

(١) الذخيرة القسم الثالث – المخطوط لوحة ٣٤ ب . ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٤ .

والأخلاقية ، ووصف لنا إلى أى حد كان يذهب أمراء الطوائف ، فى إرهاق شعوبهم بالمغارم الفادحة ، وإليك ما يقوله فى ذلك :

« وأما الباب الثانى : فهو باب قبول المتشابه ، وهو فى غير زماننا هذا باب جديد لايؤتم صاحبه ، ولايؤجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون إليه فى أقواتهم ومكاسبهم ، إذ كان الأغلب هو الحلال ، وكان الحرام مغموراً . وأما فى زماننا هذا وبلادنا هذه : فإنما هو باب أغلق عينيك ، واضرب بيديك ، ولك ما تخرجه إما تمرة وإما جمرة . وإنما فرقت بين زماننا هذا والزمان الذى قبله ، لأن الغارات فى أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هى اليوم ، والمغارم التى كان يقبضها السلاطين ، فإنما كانت على الأرضين خاصة ، فكانت تقرب مما فرض عُمر على الأرض . وأما اليوم فإنما هى جزية على رؤوس المسلمين ، يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شىء ما ، وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع فى الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد ، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ، ونقض شرائع الإسلام ، وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلى من الله عز وجل » .

ويحمل ابن حزم بعنف ، على استهتار أمراء الطوائف بأحكام الدين ، وما اتسموا به من ضعف الإيمان والعقيدة ، ويؤكد لنا أنهم لو وجدوا فى اعتناق النصرانية ، وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم ، لما ترددوا فى اعتناقها ، ونحن نقتبس هنا عباراته اللاذعة المؤسية معاً :

« والله لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى ، فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخلوها من الإسلام ، وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه »[1] .

(١) راجع أقوال ابن حزم التى نشرت بعناية الأستاذ بلاثيوس فى مجلة «الأندلس» : Al-Andalus, (ano 1934) p. 37 وفى الرسالة التى سبقت الإشارة إليها ص ١٧٣ — ١٧٧ .

ونحن لانستطيع أن نتهم ابن حزم، وهو فيلسوف عصره المتزن، البعيد النظر، النافذ الملاحظة، بالمبالغة والتحامل، وهو قد شهد بنفسه أحداث العصر، وفضائح ملوك الطوائف، وأصدر عليها تلك الأحكام القاسية، التى نراها ماثلة فى غير موضع من تعليقاته على حوادث عصره[1]. وقد توفى ابن حزم فى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)، وممالك الطوائف فى إبان قوتها وعنفوانها، وقبل أن تنحدر إلى ما انحدرت إليه فيما بعد من الإنحلال المعنوى الشامل، وقبل أن يتهالك أمراؤها فى الترامى على أعتاب ملك قشتالة، وينحدرون على يديه إلى أسفل درك من الذلة والمهانة. ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الأخيرة من انحلال ممالك الطوائف، لكان بلا ريب فى تعليقاته وأحكامه أشد قسوة وعنفاً.

— ٢ —

الخواص العلمية والأدبية

على أنه لما يلفت النظر حقاً، أن ممالك الطوائف، كانت خلال هذا الانحلال الشامل، تبدو فى أثواب لامعة زاهية. وإذا لم يكن يسودها النظام والاستقرار دائماً، فقد كانت فى الفترات القليلة التى تجانب فيها الحرب الأهلية، تتمتع بقسط لابأس به من الرخاء، وتغمرها الحركة والنشاط. وكان ملوك الطوائف، بالرغم من طغيانهم المطبق، ومن الصفات المثيرة التى كان يتصف بها الكثير منهم، من حماة العلوم والآداب. وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء، وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسى، والفكر الإسلامى بصفة عامة.

ولنبدأ الحديث فى ذلك عن قصور عصر الطوائف وأمرائه. فلقد كانت هذه القصور المنتثرة فى رقعة الوطن الأندلسى الكبرى، وكل منها يدعى السيادة على مدن ورقاع محدودة، تسطع ليس فقط بفخامتها وروعتها وبذخها، ولكن كذلك بأمرائها ووزرائها وكتابها، الأدباء والشعراء. وقد ازدهر الشعر الأندلسى

---

(١) تراجع تعليقات ابن حزم على بعض فضائح عصره فى «نقط العروس» ص ٨٣ و ٨٤ و ٨٩.

بالأخص فى عصر الطوائف ، وبلغ فى ذلك مدى لم يبلغه فى أى آخر عصر. ويعلل الأستاذ نيكل ذلك بأنه يرجع بالأخص إلى ماكان يتسم به هذا العصر من حريات ، ترتب عليها الإغضاء عن كثير من القيود الدينية ، ولاسيما ماتعلق منها بتحريم الخمر ، وحجب المرأة ، وإلى ذيوع العلاقات الغرامية بين الجنسين(١) كان ملوك الطوائف حسبما تقدم ، يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة ، والاستهتار بأحكام الدين ، وكان الكثير منهم يجاهرون بالمعاصى ، وارتكاب الأمور المحرمة ، وهو ما يسجله عليهم الفيلسوف ابن حزم فيما تقدم من أقواله . وقد كانت قصورهم المترفة الأنيقة ، كما تزدان بمجالس الشعر والأدب ، تحفل فى الوقت نفسه بمجالس الأنس والطرب ، والنساء والغلمان والخمر ، وهى أمور تشغل حيزاً كبيراً فى آداب العصر وشعره . وكانت مجتمعات الطوائف المرهقة المنحلة ، تتأثر بهذه الروح الإباحية ، وتجنح إلى اجتناء المتعة المادية والملاذ الحسية بمختلف ضروبها . وكان هذا الانحلال الشامل يجتاح يومئذ سائر طبقات المجتمع الأندلسى .

على أن النهضة الأدبية والفكرية التى امتاز بها عصر الطوائف ، ترتفع مع ذلك فوق مستوى هذا الانحلال وتبرز قوية وضاءة . ولقد كانت هذه القصور المترفة المرحة نفسها ، أكبر مبعث لهذه النهضة ، وكان أولئك الملوك المستهترون أنفسهم دعاتها وحماتها ، وكانت قصور الطوائف تتنافس فى هذا الميدان وتتسابق ، شعوراً منها بما تجتنيه من وراء ذلك من فخار ومجد ؛ وما تسجله روائع المنظوم والمنثور من ذخر وذكر . وكان من بين هذه القصور ثلاثة امتازت بنوع خاص ، بمشاركتها فى النهضة الأدبية والشعرية ، هى بلاط بنى عباد بإشبيلية ، وبلاط بنى الأفطس ببطليوس ، وبلاط بنى ممادح بألمرية .

كان بنو عباد ، وهم كما رأينا ، أعظم ملوك الطوائف قوة وجاها وملكاً ، من أعظم رواد هذه النهضة الأدبية والفكرية التى سادت هذا العصر ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما امتازت به هذه الأسرة النابهة من نبوغ فى ميدان الشعر والأدب ، وقد برز منهم بالأخص المعتضد بن عباد ، وولده المعتمد ، وترك لنا كلاهما طائفة كبيرة من روائع نظمه . ويمتاز شعر المعتضد بنزعة إلى الفخر والمجد وشهرة

---

(١) الشعر الأندلسى A. R. Nykl : Hispano-Arabic Poetry : (Baltimore : 1946, p. 72

الجود . أما المعتمد بن عباد فقد كان بلا ريب من أعظم شعراء عصر الطوائف ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً . ويرى الأستاذ نكل أنه « أبرز ممثل للشعراء الأندلسيين العرب فى النصف الثانى للقرن الحادى عشر» وأنه « يتزعم هذا العصر بشخصيته المتسمة بالفروسية ، ويعتبر أسطع نجم فى باقة النجوم الكبرى لملوك الطوائف الآخرين »(١) . وقد ترك لنا المعتمد بنوع خاص طائفة من أروع القصائد التى نظمها أيام مجده ، ثم بعد ذلك خلال محنته ، فى التلهف على ماضيه والبكاء على مصيره ، وقد أوردنا فيما تقدم مقتطفات من شعره ، فى مختلف المناسبات والأحداث .

وكان بنو عباد فضلا عن مواهبهم الأدبية والشعرية الرفيعة ، يجمعون فى بلاطهم ، وهو أزهى قصور الطوائف فى هذا المضمار ، جمهرة من أكابر شعراء العصر وكتابه ، سواء برسم الوزارة أو الكتابة أو الانتظام بين صحب الأمير ومستشاريه ، أو لمجرد الرعاية والحماية . وكان من هؤلاء حسبما أسلفنا شعراء عظام مثل أبى بكر بن عمار الشاعر الذكى المبدع ، وقد أتينا على أحداث حياته فيما تقدم ، وأبى الوليد بن زيدون الذى يصفه الأستاذ نكل بأنه « شاعر عظيم للحب »، ويعتبره مثلا « لأبدع نموذج للأسلوب العربى الكلاسيكى ، وفى وسعنا أن نقارنه بالمتنبى والبحترى » .

وقد قارن العلامة دوزى ، ابن زيدون فى حياته الغرامية بالشاعر اللاتينى تيبولوس فى حبه « لدِليا » ، ولكن الأستاذ نكل لايقر هذه المقارنة إلا من حيث الناحية الغرامية ، وعنده أن المظاهر الشعرية تختلف بين الشاعرين الأندلسى واللاتينى ، « كما تختلف الأزهار لوناً وعطراً »(٢) . والواقع أن حب ابن زيدون لولادة بنت الخليفة المستكفى(٣) ، كان أعظم حدث فى حياته ، وكان أعظم وحى لروائع شعره . وكانت ولادة ابنة جارية نصرانية ، وكانت ناصعة المحيا ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الحسن . ويصفها ابن بسام بقوله : « وكانت فى

(١) A. R. Nykl : Ibid., p. 72 & 130

(٢) A. R. Nykl : ibid · p. 109

(٣) وهو محمد بن عبد الله بن الناصر لدين الله . تولى الخلافة فى ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ باسم المستكفى بالله ، ثم خلع وفر من قرطبة فى ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) واغتاله فى الطريق بعض أصحابه .

نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب . على أنها ، سمح الله لها وتغمد زللها ، طرحت التحصيل ، وأوجدت للقول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها »(١) . وهام ابن زيدون فى شبابه بولادة أيام خدمته لبنى جهور ، وتوثقت علائقه بها مدة من الزمن ، ونظم فى حبها طائفة من أروع قصائده ، ثم ساءت العلائق بينهما ، وهجرته ولادة وهو يستعطفها بقصائد مؤثرة . وكان ينافسه فى ودها رجل من سراة قرطبة يدعى أبو عامر بن عبدوس تزوجته ولادة فيما بعد ، وانتهى الأمر بأن زج ابن زيدون إلى السجن إما لريبة علقت بولائه لابن جهور ، أو نتيجة لمكيدة دبرها له خصمه ومنافسه ابن عبدوس . وقد وجه ابن زيدون إلى منافسه وخصمه ابن عبدوس هذا ، رسالة ، لوم وتقريع ، تفيض بألوان مؤلمة من التهكم والتشبيهات ، والمقارنات ، وينعته فى أولها « بالمصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره » . ثم يفيض فى وصفه وتشبيهه بأسلوب ساخر مقذع ، وقد اشتهرت رسالة ابن زيدون هذه ، واعتبرت من الطرائف الأدبية وعملت لها شروح عديدة(٢) . ثم فر ابن زيدون من سجنه ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية وذلك فى سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) والتحق ببلاط المعتضد بن عباد ، وخدمه وعلت مكانته لديه . ولما توفى المعتضد استمر فى خدمة ولده المعتمد ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وقد ترك لنا ابن زيدون ثروة كبيرة منوعة من نظمه الرائق ، ومنها قصائد تعتبر من أروع ما يحتويه الشعر الأندلسى(٣) ، وفيها يبلغ النسيب ذروة الإبداع الروحى والحسى ،

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٧٦

(٢) ومنها شرح مخطوط لابن نباته المصرى عنوانه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » يحفظ بالمتحف البريطانى برقم Or. 8578 وقد طبع هذا الشرح بمصر غير مرة .

(٣) راجع فى حياة ابن زيدون وشعره : الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٢٨٩ — ٣٧٦ ، وقلائد العقيان ص ٧٠ — ٨٣ .

وكان لحبه لولادة بلا ريب أعمق تأثير فى نفسه وروحه ، وهو تأثير يشيد به النقد الحديث . يقول الأستاذ نكل « وبغير هذا التأثير كان شعر ابن زيدون يبقى ناقصاً بعضاً من أثمن جواهره »(١) .

وإلى جانب هذين الشاعرين العظيمين ، ابن عمار وابن زيدون ، كان بلاط إشبيلية يضم طائفة أخرى من أكابر شعراء العصر ، منهم أبوبكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانه وأصله من دانية ، كما يدل على ذلك اسمه؛ وبرع فى الشعر منذ صباه، واتخذه وسيلة للتكسب والعيش، وتجول بين قصور الطوائف يمتدح ملوكهم . ثم اتصل ببلاط إشبيلية، وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه ، وقد نظم فى مديحه كثيراً من قصائده . ولما ذهبت دولة المعتمد ، ونفى أسيراً إلى المغرب ، زاره أبو بكر بأغمات ، وله فى دولة المعتمد وأيامه ، وفى محنته وأسره ، قصائد كثيرة ، وله كتاب فى تاريخ بنى عباد سبقت الإشارة إليه . ولحق فى أواخر أيامه بجزيرة ميورقة،ومدح صاحبها مبشر العامرى وحظى لديه. ومنهم عبد الجليل بن وهبون ، وهو صديق ابن عمار ومرثيه ؛ وأبو الحسن الحصرى ، وأصله من القيروان ، وقد خدم المعتضد ثم المعتمد ، وتوفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ . ومنهم شاعر فذ من الوافدين على الأندلس ، هو عبد الجبار ابن أبى بكر بن محمد الأزدى الصقلى المعروف بابن حمديس، وقد ولد بسرقوسة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، ولما غزا النورمان صقلية فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) سار إلى تونس ثم إلى إشبيلية والتحق ببلاط المعتمد ، ونظم فى مديحه كثيراً من القصائد ، وظهر بروعة افتنانه ولاسيما فى شعره الوصفى . ولما أسر المعتمد زاره فى أغمات وأقام لديه مدة، ثم سار ابن حمديس بعد ذلك إلى المهدية وخدم ملكها وتوفى سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) .

وأما عن الكتاب الذين خدموا فى بلاط إشبيلية، وازدهروا فى ظل بنى عباد، فقد أشرنا إلى الكثير منهم ، خلال حديثنا عن أخبار مملكة إشبيلية ، وإنما أردنا أن نخص الشعراء بالذكر هنا لما كان لبنى عباد فى هذا الميدان من رياسة ومواهب عالية ، ولما كان لدولة الشعر فى ظلهم من رعاية خاصة ، وقد كان بنو عبا-

(١) A. R. Nykl : ibid; p. 119

أوفر أمراء الطوائف عناية بالحركة الأدبية وإمدادها بالبذل الوفير[1] . ولم يكن يجاريهم فى ذلك أى بلاط آخر من قصور الطوائف.

وكان بنو الأفطس ، ملوك بطليوس ، كذلك من حماة الشعر والأدب ، وكان بلاطهم ولاسيا فى عهد عميدهم المظفر ، وولده عمر المتوكل ، ملاذاً لطائفة من أعظم شعراء العصر ، وفى مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ (١١٢٦ م) ، وبنو القبطرنة الثلاثة أبوبكر وأبومحمد وأبوالحسن أبناء عبد العزيز البطليوسى ، وقد كانوا أيضاً من وزراء بنى الأفطس، ومن شعرائهم المجيدين . وقد ذكرهم ابن بسام فى الذخيرة ووصفهم بأنهم من « أسرة أصالة ، وبيت جلالة ، أخذوا العلم أولا عن آخر ، وورثوه كابراً عن كابر ، ثلاثة كهقعة الجوزاء ، وان أربوا عن الشهر فى السنا والسناء » ووصفهم ابن الخطيب بأنهم «كانوا عيونا من عيون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف والشرف والجلالة » . وقد برع ثلاثتهم فى النظم والكتابة ، وكتبوا بعد بنى الأفطس لعاهل لمتونة ، يوسف بن تاشفين . ومن نظم أبى محمد قوله :

هلم إلى روضنا يا زهـير ولح فى سماء المنى يا قمـر
وفوّق إلى الأنس سهم الأخـا ء فقد عطلت قوسه والوتر
إذا لم تكن عنـدنا حاضرا فمـا بغصـون الأمانى ثمـر
وقعتَ من القلب وقـع المنى وحُزت من العين حسن الحوَر

ومن شعر أبى بكر قوله :

يا أخى قم تر النسيم عليـلا باكر الروض والمـدام شمولا
فى رياض تعانق الزهر فيهـا مثل ما عانق الخليل خليـلا
لا تنم واغتـنم مسرة يوم إن تحت التراب نوما طويلا[2]

وأما ابن عبدون فقد اشتهر بالأخص بمرثيته الشهيرة لبنى الأفطس عقب ذهاب دولتهم؛ وهى قصيدته المعروفة «بالعبدونية » ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم . ويصفها الأستاذ نكل بأنها « مزيج مدهش من الشعور العميق ، والمتانة

---

(١) نفح الطيب (عن رسالة الشقندى) ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) راجع كتاب « الإحاطة فى اخبار غرناطة » (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢٧ — ٥٣٠ .

التاريخية » . وكان المظفر بن الأفطس نفسه من أكبر أدباء عصره وأغزرهم مادة، وقد اشتهر بكتابه أو مصنفه الأدبي والتاريخي الكبير المسمى « بالمظفرى » والذى قيل إنه كان يحتوى على مائة مجلد مليئة بالإخبار والفنون الأدبية(١) . وكذا كان ولده عمر المتوكل عالماً وشاعراً كبيراً .

وكان يجتمع فى بلاط ألمرية حول بنى صمادح ، جمهرة من أقطاب الشعر والأدب ، فى مقدمتهم أبوعبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وابن الحداد الوادى آشى وغيرهم ، ممن سبق أن ذكرناهم فى أخبار مملكة ألمرية . وقد كان ابن القزاز من أهل مالقة وكان أبرع الوشاحين فى عصر الطوائف. ووصفه ابن بسام « بأنه من مشاهير الأدباء والشعراء ، وأكثر ماذكرا اسمه وحفظ نظمه فى أوزان الموشحات » . وقيل فى حقه « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز» . ومن أشهر موشحاته :

بـدر تم شمـس ضحـا غصـن نقا مسـك شم

ما أتم مـا أوضـحا مـا أورقـا مـا أتـم

لا جرم مـن لمحـا قد عشـقا قد حرم(٢)

وأما ابن شرف ، فهو جعفر بن محمد بن سعيد بن شرف الجذامى القيروانى ، أصله من القيروان وبها ولد سنة ٤٤٤ هـ . ولما اضطرمت فتنة العرب فى إفريقية غادرها إلى الأندلس واستوطن برجة . وكان من أعظم شعراء عصر الطوائف ، وكان فوق ذلك أديبا موهوبا وله مؤلفات فى الأمثال والأخبار والآداب . وتوفى سنة ٥٣٤هـ (٣) . وأما ابن الحداد ، فهو أبوعبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى . وكان من أكابر الشعراء ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط ألمرية حسبما تقدم ذكره . وهو الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب .وكان بنو صمادح ، كبنى عباد أسرة شاعرة موهوبة ، وكان المعتصم من أكبر شعراء عصره،وكذلك كان ولداه يحيى الملقب برفيع الدولة ،وأبوجعفر الملقب برشيد الدولة ، وإبنته أم الكرام ، من الشعراء الموهوبين . واشتهر منهم

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٦ و ١٤١ .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة (بولاق) ص ٥١٩ ، والذخيرة القسم للثانى من المجلد الأول ص ٢٩٩ .

(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٢٩٨ .

بالأخص رفيع الدولة ، وكان أشعرهم جميعاً(١) . ويجب ألا ننسى أن العلامة اللغوى والجغرافى الكبير ، أبوعبيد البكرى قد عاش حيناً فى ألمرية ، تحت كنف المعتصم ورعايته ، ووضع فى ظل هذه الرعاية موسوعته الجغرافية الشهيرة وبعض كتبه الأخرى . وهو أبو عبيد عبدالله بن أبى مصعب عبدالعزيز بن أبى زيد محمد ابن أيوب بن عمرو البكرى . وهو سليل أسرة من الأمراء حكمت ولبة ، وجزيرة شلطيش حيناً ، واستمرت رياسة أبيه بها حتى سنة ٤٤٣ هـ ، حينما أجلاه عنها المعتضد بن عباد . ودرس أبو عبيد على ابن حيان ، والحافظ ابن عبد البر ، وأبى العباس العذرى وغيرهم من أقطاب العصر . وله عدة مؤلفات قيمة فى مقدمتها موسوعته الجغرافية المسماة المسالك والممالك ، وكتاب معجم ما استعجم ، وهو قاموس لغوى جغرافى ، وكتاب اللآلىء فى شرح أمالى القالى ، وكتاب أعلام نبوة نبينا محمد . وكان البكرى من أقطاب الأدب فى عصره ، وكان آية فى التبحر واللغة ومن أساتذة الأنساب والأخبار ، وأهل الضبط . وتوفى البكرى فى سنة ٤٨٧ هـ(٢)

وقال ابن الأبار : « وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتواليفه قلائد فى أجياد الأيام »(٣)

بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الرعاية لدولة الشعر والأدب ، لم تبلغ فى القصور البربرية مبلغاً كبيراً ، فلم تزدهر النهضة الأدبية فى ظل بنى ذى النون بطليطلة ولم تجتمع فى بلاطهم سوى قلة من الأدباء والشعراء ، وإن كان قد نبغ فى ظلهم بعض العلماء البارزين فى الفلك والزراعة . وكذلك لم تشهد غرناطة فى ظل بنى مناد البربر أية نهضة أدبية ذات شأن .

أما قصور الطوائف فى شرق الأندلس ، وفى سرقسطة ، فكان لها شأن خاص فى رعاية الحركة الأدبية والفكرية بوجه عام . وكان بلاط سرقسطة ، شأنه شأن بقية قصور الطوائف يسبغ رعايته على عدد من أكابر الشعراء والكتاب ، وكان فى مقدمة هؤلاء ، أبو عمر أحمد بن محمد درّاج القسطلى ، وهو من أبرز شعراء عهد انهيار الخلافة وبداية عهد الطوائف . ولد بقسطلة الغرب سنة ٣٤٧ هـ من أصل بربرى وتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وكان فى شبابه من كتاب المنصور بن أبى عامر

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٦ . والقاهرة ج ٢ ص ٩٢ .
(٢) ترجمته فى الصلة رقم ٦٣٢ .
(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٥ .

وشعرائه ، وذاع اسمه بين ألمع شعراء الطوائف ، ومدح عدداً من أمرائهم ، ولا سيما الفتيان العامريين أمثال مجاهد ومظفر ومبارك وخيران ، ثم التحق ببلاط سرقسطة ، ومدح المنذر بن هود ثم ابنه يحيى . وقد وصفه الثعالبي فى يتيمة الدهر ، بأنه كان بين شعراء الأندلس ، كالمتنبي بين شعراء المشرق ، وقد ترك لنا ابن درّاج ديوان شعر ضخم يضم عدداً كبيراً من أروع القصائد فى مختلف الأغراض(١) . وقد اشتهر ابن دراج كذلك ببلاغته فى الترسل ، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة من رسائله إلى جانب ما أورده من منظومه . وقد أوردنا نحن فيما تقدم شيئاً من نظمه . وكان من بين أمراء سرقسطة فى الوقت نفسه ، بعض الأدباء والعلماء البارزين ، وهؤلاء سوف نذكرهم خلال حديثنا فيما يلى عن النهضة الفكرية العامة فى عصر الطوائف.

— ٣ —

إلى جانب هذه النهضة الأدبية والشعرية الزاهرة، يمتاز عصر الطوائف بنبوغ جماعة من العلماء الأفذاذ الذين يرتفعون إلى الذروة ، فى تفكيرهم ومستواهم العلمى الرفيع . وفى مقدمة هؤلاء العلامة الفيلسوف أبومحمد على بن حزم ، وقد كان آية عصره فى نضوج الذهن ودقة البحث ، وعمق التفكير . ولد بقرطبة فى سنة ٣٨٣ هـ (٩٨٤ م) فى أواخر عهد المنصور ، وكان أبوه أحمد بن حزم من وزراء المنصور المقربين ، ثم وزر من بعده لابنه عبد الملك . وقضى ابن حزم حداثته أيام الفتنة بقرطبة ، ثم تجول حيناً فى ألمرية وبلنسية فى كنف الفتيان العامريين ، وكان مثلهم يؤيد قضية الخلافة الأموية ، ولما هدأت الأحوال نوعاً عاد إلى قرطبة ، وتابع دراسته فى المسجد الجامع . وبرع ابن حزم بالأخص فى الفقه والعلوم الدينية والشرعية ، وأصول المذاهب والنحل، وفى المنطق والفلسفة واللغة، والمعرفة بالسير والأخبار. وتولى الوزارة فى شبابه للخليفة المستظهر الأموى، ثم نزح إلى شاطبة ، وهنالك كتب كتابه «طوق الحمامة» ، وهو دراسة نفسية تحليلية بديعة للحب وبواعثه وأشكاله، ومنه نعرف فضلا عن ذلك ، الكثير عن حياة الفيلسوف،

---

(١) نشر هذا الديوان بدمشق سنة ١٩٦١ بتحقيق الدكتور محمود على مكى . وتراجع ترجمة ابن دراج فى ابن خلكان ج ١ ص ٥١ ، وفى بغية الملتمس . الترجمة رقم ٣٤٢ . وأورد له الدكتور مكى فى صدر الديوان ترجمة طويلة (ص ٢١ — ٨٠) .

وعن منازل أسرته وعن خطط قرطبة المعاصرة . وكتب بعد ذلك عشرات من الكتب والرسائل فى مختلف الموضوعات الفقهية والفلسفية والتاريخية منها كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » ، وكتاب فى الإجماع ومسائله على أبواب الفقه ، وكتاب فى مراتب العلوم ، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، ومنها كتاب « جوامع السيرة » ، وهو عرض لسيرة الرسول وغزواته وذكر أصحابه ، ومن روى عنه ، وذكر نبذ من فتوح الإسلام بعد الرسول ، و« جمهرة أنساب العرب » وهو وثيقة جامعة لأصول القبائل العربية وأنسابها ، ومن نزل منها بالأندلس ، « ونقط العروس » وهو يتضمن سلسلة من النوادر والحوادث ، والمقارنات والنظائر التاريخية الفريدة . وإذا كان ابن حزم يصف لنا التاريخ بأنه « علم الأخبار » ، ويعتبر علم النسب جزءا من علم الخبر ، فإنه يحق لنا بعد الذى تقدم من ذكر كتبه ، أن نعتبره مؤرخا بكل معانى الكلمة. على أن ابن حزم لم يكن مع ذلك مؤرخا عاديا ، بل كان بالعكس مؤرخا من طراز خاص ، بل ومن طراز نادر ، من طراز أولئك المؤرخين الذين تعتبر كلماتهم ، عن حوادث عصرهم وشخصياته ، أحكاماً لاتقبل الجدل . وقد عاش ابن حزم فى عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة ، هو عصر انحلال الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف ، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته ، ومن تصرفات أمراء الطوائف ، ومثالبهم ، وبغيهم ، واستهتارهم ، وهزت هذه الأحداث مشاعره إلى الأعماق ، ومن ثم كانت أقواله وأحكامه الصادقة التى أصدرها فى حق الطوائف ، والتى نقلناها فيما تقدم . بيد أن ابن حزم يشتهر بنوع خاص سواء فى الشرق أو فى الغرب ، بكتابه الجامع « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » . ويشيد البحث الحديث بابن حزم ، وروعة علمه وتفكيره ، ويخصص له العلامة الإسبانى آسين بلاثيوس كتاباً يتناول فيه حياته وكتابه « الفصل » ويعتبره « مفكراً وعالماً لاهوتياً ، ومؤرخا ناقداً للأديان والمدارس الفلسفية الدينية »(١) . ويعتبره الأستاذ نكل « أديباً وشاعراً وفقيهاً ، ومؤرخاً سياسياً وعالماً أخلاقياً »(٢).

---

(١) A. Asin Palacios : Abenhàzm de Córdoba y su Historia de las Ideas religiosas.

(٢) A. R. Nykl : ibid., p. 73

وكان ابن حزم بالأخص داعية من أشد دعاة المذهب الظاهرى ، وقد غلبت هذه النزعة على سائر بحوثه الفقهية والكلامية ، واعتبر حجة هذا المذهب وإمامه فى عصره . وكان يتشدد كل التشدد فى تطبيقه على العقائد ، والأحكام ، وهو لايأخذ فى تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين فى صوغ الأحكام . وقد اشتهر باعتناقه لهذا المذهب حتى أن أنصاره سموا فيما بعد « بالحزمية » نسبة إليه . وقضى ابن حزم حياة فكرية عميقة خصبة . وأثار فى الوقت نفسه ، بآرائه ونظرياته الأصولية والدينية من حوله خصومات كثيرة ، واتهمه البعض بالمروق والزندقة ، وأحرقت كتبه فى إشبيلية بأمر المعتضد ابن عباد[1]. ونزح فى أواخر حياته إلى دار أسرته بقرية منت ليشم من أعمال لبلة ، وهنالك توفى فى شعبان سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)[2] .

وكان من أقران ابن حزم الذين طرقوا مثل ميدانه فى التفكير الدينى والشرعى ، العلامة أبو الوليد الباجى ، وهو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبى الباجى الحافظ . ولد بمدينة بطليوس غربى الأندلس سنة ٤٠٣هـ ودرس فى قرطبة ، ثم سافر إلى المشرق ودرس حيناً بمكة ثم فى بغداد . ولما عاد إلى الأندلس عاش حيناً فى بلاط ميورقة ، وحيناً آخر فى كنف المقتدر بن هود ، واشتهر بردوده على ابن حزم ، وكان قرينه فى غزارة العلم وسعة المعرفة . وقد وصف بأنه من أئمة المسلمين . وتوفى فى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) . ومن شعره :

إذا كنت أعلم علما يقينا ... بأن جميع حياتى كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها ... وأجعلها فى صلاح وطاعة [3]

ونبغ إلى جانب ابن حزم عالم ومفكر جبار آخر ، هو العلامة اللغوى الأعمى أبو الحسن على بن سيده ، المتوفى فى سنة ٤٥٨ (١٠٦٦م) . وكان آية فى الحفظ

---

(١) ترجمته فى جذوة المقتبس ص ٢٩٠ – ٢٩٣ ، وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٨ – ٤٣١ .

(٢) فى شهر مايو (من ١٢ – ١٨ منه سنة ١٩٦٣) نظم بمدينة قرطبة مهرجان رسمى فخم للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة العلامة ابن حزم « القرطبى » وأقامت له بلدية قرطبة تمثالا بالحجم الطبيعى أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع . وأقيمت كذلك لوحة تذكارية لابن حزم بالإسبانية ، أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التى أقيمت مكان الجامع الذى كان يتوسط بلاط مغيث وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم . ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية ، وطائفة من الحفلات الفخمة . وقد كان مؤلف هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخى العظيم .

(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٤٥٣ .

وقوة الذاكرة، وقد عاش بدانية فى كنف أميرها العالم مجاهد العامرى ، وانقطع إليه ، ولما توفى مجاهد ، توجس من ولده على إقبال الدولة ، فغادر دانية إلى بعض الأنحاء المجاورة . واشتهر ابن سيده بكتابه « المحكم » وهو قاموس لغوى ضخم ، وكتاب « السماء » .

وكان من كتاب الموسوعات أيضاً العلامة اللغوى الجغرافى أبو عبيد البكرى الذى سبق ذكره . وقد اشتهر بمعجمه اللغوى الجغرافى المسمى « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » ، وهو مؤلف انتفع به الملك ألفونسو العالم فى تاريخه العـام Crónica General

ويخص العلامة الأستاذ منندیث پیدال كتابى « الفصل » لابن حزم و « المحكم » لابن سيده بالذكر ، وينوه بنفاستهما ، ويقول : « إن النضوج العقلى اللازم لإخراج كتاب فى تاريخ الأديان ، أو قاموس للفكر المتشابهة ، على مثل النمط الذى كتبت به هذه المصنفات الإسبانية الإسلامية ، لم تصل إليه أوربا حتى القرن التاسع عشر »(١)

ومن أولئك العلماء الممتازين أيضاً العلامة ابن عبد البر ، وهو أبو عمر يوسف ابن عبد الله النمرى القرطبى ، ولد سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) ، وقضى شطراً من حياته فى دانية وبلنسية وشاطبة ، ثم لحق أخيراً ببلاط بنى الأفطس ببطليوس وعينه المظفر بن الأفطس قاضياً لأشبونة ، ثم شنترين ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وكان من أوفر كتاب عصره علماً ومعرفة ، وأشهر مؤلفاته كتاب « بهجة المجالس وأنس المُجالس » ويمتاز شعره بالرصانة والأنفة . وقد خدم ولده أبو محمد عبد الله بن عبد البر فى بلاط بنى عباد ، حسبما تقدم ذكره فى موضعه(٢)

ويمكننا أن نذكر ضمن هذا الثبت من العلماء الأعلام ، أميرين من أمراء الطوائف ، هما مجاهد العامرى صاحب دانية ، وأبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر صاحب مرسية . وكان مجاهد من أكابر علماء عصره فى اللغة وعلوم القرآن ، وكان بلاطه مجمعاً لطائفة من أشهر علماء العصر ، وفى مقدمتهم ابن عبد البر ، وابن سيده وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر

---

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 81

(٢) نفح الطيب (عن رسالة ابن حزم فى ذكر علماء الأندلس) ج ٢ ص ١٣١ .

كذلك من أعظم علماء الأندلس وكتابها أيام الطوائف ، ويشيد معاصره ابن بسام حسبما تقدم بذكره وذكر أدبه فى الذخيرة، وينوه بجمال رسائله وروعتها . وقد وقفنا على نص صك من إنشائه بتقديم صاحب أحكام على بعض جهات مرسية أيام رياسته لها يقول فيه : « قلدت فلانا وفقه الله النظر فى أحكام فلانة ، وتخيرته لها بعد ما خبرته ، واستخلفته واثقا بدينه ، راجيا لتحصنه ، لأنه احتاط فعلم ، وإن أضاع فأثم ، فليقم الحق على أركانه ، وليضع العدل ، وليسر بين خصومه ، وليأخذ من الظالم لمظلومه ، فعف فى الحكم عند اشتباهه ، وبعده عند اتجاهه ، ولا تقبل غير المرضى فى شهادته ، ولاتعرف سوى الاشتغال من علاته ، ولتعلم أن الله مطلع على خفياته ، وسلام يوم علاماته »(١)

هذا وقد كان عصر الطوائف ، فضلا عن هذه النهضة الأدبية والفكرية الشاملة ، يمتاز كذلك بازدهار الدراسات العلمية الممتازة . وقد نبغت فيه طائفة من أكابر الرياضيين والفلكيين ، الذين كانت بحوثهم فيما بعدمستقى خصباً لاقتباس الغرب . وكان من هؤلاء أبو اسحق ابن اهيم بن يحيى الزرقالى القرطبي صاحب الجداول الفلكية الشهيرة أصله من طليطلة ، ويعرف فى الغرب باسم Azarquiel وقد ذاعت جداوله الفلكية ، ذيوعا عظيما ، وكانت فى كثير من المواطن أصح من غيرها من الجداول القديمة ، وتوفى الزرقالى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) . وأبو القاسم أصبغ بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٣٨ هـ (١٠٣٨ م) ، وكان بارعاً فى الهندسة والفلك ، وله كتب قيمة فى الهندسة وزيج فلكى . وأبو الوليد هشام الوقشى ، وكان أبرع علماء عصره فى الهندسة والفلسفة والنحو واللغة ؛ وتلميذه أبو القاسم سعيد بن أحمد الطليطلى صاحب كتاب « طبقات الأمم » وهو تاريخ للعلوم . وقد كانت الجداول الفلكية التى وضعها أولئك العلماء المسلمون فيما بعد ، أقيم مرجع لألفونسو ملك قشتالة فى اقتباس جداوله . وقد اشتهر ألفونسو العالم بالأخص باعتماده على مصادر العلوم الأندلسية ، ولاسيما فى عصر الطوائف، واقتباسه تقاليد العلماء الأندلسيين فى هذا العصر، الذى سبقه بنحو قرنين . وكانت سرقسطة ، وطليطلة ، وقرطبة ، من أعظم مراكز

(١) أورده ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » — الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

الدراسات الفلسفية والرياضية فى القرن الحادى عشر الميلادى . وكان المقتدر بن هود وولده المؤتمن ، من العلماء المبرزين فى الفلسفة والرياضيات والفلك . وكتب المؤتمن رسالته « الإستكمال » فى الرياضية . وأثارت بحوث هذين الأميرين العالمين إعجاب الدوائر العلمية فى العصور الوسطى[١] .

كانت هذه الجمهرة الحاشدة من الأدباء والشعراء والعلماء ، التى حفل بها عصر الطوائف تملأ قصور الطوائف ، وتعيش فى كنف أمرائها ، سواء بطريق الخدمة فى الوزارة أو الكتابة أو القضاء أو غيرها ، أو فى ظل الصحبة والرعاية المجردة لأولئك الأمراء . وكان أولئك العلماء والأدباء ، ينتقل معظمهم من دولة إلى أخرى ، ومن قصر إلى قصر ، وفقاً للأحوال والظروف ، إذ كانت هذه القصور جميعاً تتنافس فى اجتذاب أعلام الكتاب والأدباء إليها ، وفى رعايتهم والإغداق عليهم ، وكان بعضهم ينقطع إلى أمير بذاته ، ويعيش فى كنفه وتحت رعايته ، وكان بعضهم يستحوذ على سياسة الدولة ، ويسيرها وفق رأيه ، أو يخوض غمار الدسائس والفتن فيذهب ضحية تدخله . وقد كان ابن عباس وزير زهير العامرى ، وأبو عبد الله البزليانى وزير المعتضد بن عباد ، وابن عمار وزير ولده المعتمد ، أسطع أمثلة لأولئك الوزراء المغامرين ، وقد دفع كل منهم حياته ثمناً لمغامراته .

وكان من آثار ازدهار الحركة الفكرية فى عصر الطوائف ، ذيوع المكتبات العامة والخاصة ذيوعاً يلفت النظر . ذلك أن كل مدينة أندلسية غدت عاصمة لمملكة كبيرة أو صغيرة . وكان أمراء الطوائف يتنافسون فى اقتناء الكتب النفيسة والنادرة ، وقد كانت تنهال على شبه الجزيرة من سائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد لبثت قرطبة بالرغم مما أصابها من آثار الفتن والحروب الأهلية ، مركز العلوم والدراسات الممتازة ، وبقيت بالرغم مما أصاب المكتبة الأموية الكبرى من التبديد المؤلم ، مثوى لكثير من المجموعات النفيسة الخاصة . وكانت إشبيلية ، حاضرة بنى عباد ، هى الثانية بعد قرطبة ، فى تقدم العلوم والثقافة ، وكانت تحتوى ، فضلا عن مكتبة بنى عباد الملوكية العظيمة ، على عدد كبير من المكتبات الخاصة . وكانت ألمرية أيضاً من الحواضر التى اشتهرت بمكتباتها القيمة . وكان

---

(١) يراجع فى تفاصيل النهضة الفكرية فى عصر الطوائف رسالة ابن حزم عن الحركة العلمية بالأندلس ، وقد نشرت فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها ، ورسالة الشقندى وقد نشرت أيضاً فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها . ويراجع أيضاً R. M. Pidal : ibid', p. 79-84

الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامرى ، فضلا عن علمه الغزير ، من أعظم هواة الكتب. ، ويقال إن مكتبته العظيمة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد . واشتهرت بطليوس فى ظل بنى الأفطس بتقدمها العلمي والثقافى . وكذا كانت طليطلة فى ظل بنى ذى النون مركزاً عظيما للبحوث العلمية . واشتهر بنو ذى النون كذلك بجمع الكتب ، وكانت لديهم مكتبة عظيمة . وكانت توجد غير المكتبات الملكية ، مكتبات كثيرة أخرى خاصة وعامة ، فى سائر القواعد الأندلسية . وكان لهذه الثروات المكتبية، تأثيرها بلا ريب ، فى تقدم الحركة الفكرية والثقافية ، فى عهد الطوائف(١) .

وقد امتدت هذة النهضة الفكرية والأدبية التى ازدهرت فى عصر الطوائف إلى عهد المرابطين . وقد كان أولئك المرابطون يتسمون بالخشونة والبداوة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة، فركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب ، وانفرط عقد الحلقات الأدبية الزاهرة ، التى كانت تحفل بها قصور الطوائف ، ومع ذلك فقد بزغت فى عهدهم بعض أضواء مستمدة من تراث عصر الطوائف، وظهرت فيه عدة من الشخصيات اللامعة، مثل أبى القاسم خلف بن عباس القرطبي الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥٦٦هـ (١١٢٢ م)، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٢٩ م) . وأبو بكر الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)، والفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، وابن بسام الشنترينى المتوفى سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧ م) . بيد أن ظهور هؤلاء العلماء والأدباء الأعلام فى هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية فى عصر الطوائف.

* * *

وقد حظى عصر الطوائف ، بعدة من أكابر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين عنوا بتاريخه وتدوين حوادثه وخواصه ، وتاريخ أعلامه . وفى مقدمة هؤلاء الفيلسوف ابن حزم . وبالرغم من أن ابن حزم لم يكن مؤرخا بالمعنى الصحيح لعصر

---

(١) راجع فى ذلك فصلا للأستاذ خوليان ريبرا عنوانه : **Bibliofilos y Bibliotecas** فى كتابه **Disertaciônes y Opûsculos en la Espana Musulmana** . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ، ج ١ ص ٢٦٧ .

الطوائف ، إلا أنه يقدم لنا فى رسالته المسماة « نقط العروس » ، وفى بعض رسائله الأخرى، طائفة من الوقائع والملاحظات الصادقة عن عصرالطوائف وشخصياته، أشرنا إليها واقتبسنا منها فيما تقدم . ثم المؤرخ الكبير أبومروان حيان بن خلف ابن حيان، وقد ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) وتوفى بها سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)، وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبى عامر . وبرع ابن حيان فى الأدب والرواية حتى غدا من إعلامها وخاصة محققيها، وكانت نشأته الأرستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية . وشهد ابن حيان فى شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم سقوطها ، وقيام دول الطوائف فى بداية القرن الخامس الهجرى ، وتولى هو الوزارة لبنى جهور ، وشهد سقوط دولتهم ، وخصص لها كتابا من كتبه . ولاريب أن هذه الأحداث المثيرة ، التى مزقت وحدة الوطن الأندلسى ، قد أذكت مخيلة ابن حيان ، وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية ، التى نراها ماثلة فى معظم ماكتبه عن حوادث عصره . وأعظم آثار ابن حيان كتابه « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » وهو تاريخ ضخم للأندلس حتى عصره أى عصر الطوائف . وقد انتهت الينامنه عدة قطع مخطوطة(١) . وقد ضمنه ابن حيان ، عن عصر الطوائف وأحداثه التى شهد الكثير منها بنفسه ، أقيم الروايات وأنفسها، وأحفلها بالتعليقات النقدية . وكتب ابن حيان غير المقتبس، كتابه « المتين » وهو أيضاً تاريخ للأندلس تبالغ الرواية فى ضخامته ، ولكن لم يصل إلينا شىء منه ، وكتاب المآثر العامرية ، وهو أيضاً كتاب ضخم يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور ابن أبى عامر وغزواته، ولكنه لم يصل كذلك الينا. وأسلوبه التاريخى يتسم بروح علمى ونقدى بارز . ويشيد ابن بسام بمجهوده التاريخى ، وينقل عنه شذوراً ضافية ، ولكنه يحمل عليه لمواقفه المتناقضة أحياناً

---

(١) يوجد منه جزء كبير مخطوط عن عهد عبد الرحمن الناصر بالخزانة الملكية بالرباط ، وقطعتان مخطوطتان أخريان بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، وقطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد . وهذا عدا الجزء الذى نشره المستشرق الإسبانى الأب ملشيور انتونيا (باريس سنة ١٩٣٧) . (راجع فى ذلك كتابى دولة الاسلام فى الأندلس — الطبعة الرابعة ص ٧ — ٩) .

بين المديح والذم ، والتقدير والانتقاص ، وذلك حسبما أشرنا إليه فى موضعه فى أخبار دولة بنى جهور[١] . وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ؛ وقد عنى فى معجم تراجمه[٢] ، بترجمة كثير من العلماء والأدباء ، والفقهاء والمحدثين ، فى عصر الطوائف . وكتب المؤرخ والأديب الكبير أبو الحسن على بن بسام الشنترينى معجمه التاريخى والأدبى الضخم بقرطبة ، عقب انتهاء عهد الطوائف بقليل ، فى سنتى ٥٠٢ و ٥٠٣ هـ . وقد عاصر ابن بسام ، قبل أن يغادر موطنه مدينة شنترين البرتغالية نحو سنة ٤٨٠ هـ ، قبيل استيلاء النصارى عليها بأعوام قلائل[٣] ، أواخر عهد الطوائف ، وأوائل عهد المرابطين ، وعاش وقتاً فى إشبيلية ، ثم غادرها إلى قرطبة ، حيث كتب مؤلفه . ويعتبر كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » وهو مؤلف ضخم يحتوى على أربعة مجلدات أو أقسام كبيرة ، من أقيم وأنفس مصادرنا عن الطوائف سواء من النواحى التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية . وبالرغم من أن الصفة الأدبية تغلب عليه ، بما يورده من تراجم أكابر الأدباء والكتاب والشعراء ، ومن منثورهم ومنظومهم ، فإنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من الفصول والشذور التاريخية ، المنقولة عن ابن حيان وغيره من المؤرخين المعاصرين ، أو المكتوبة بقلم ابن بسام ذاته . ويصارحنا ابن بسام فى مقدمته بالدافع النفسى الذى دفعه إلى تصنيف « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره إلى أدب المشرق والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال أدب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنه ، من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن الإحسان ليس مقصورا على أهل المشرق . ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه فى محاسن أهل الجزيرة أى جزيرة الأندلس ، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبى صاحب

---

(١) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ .

(٢) وهو المسمى «جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس» . وقد صدرت منه طبعة جديدة بالقاهرة فى سنة ١٣٧٢ هـ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨ . وقد سقطت شنترين فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

« يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن قطره .

ونجد إلى جانب ابن بسام كاتباً أديباً ومؤرخاً آخر ، هو الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤م) صاحب كتابى « القلائد » و« المطمح ». وقد أورد لنا فى « القلائد »(١) تاريخ طائفة كبيرة من أمراء الطوائف ووزرائهم من الكتاب والشعراء والقضاة ، يقدمهم إلينا فى أسلوب مسجع ، يغلب عليه التكلف ، ويتضمن مع ذلك نبذاً وحقائق تاريخية هامة ، وكذا فى المطمح أو« مطمح الأنفس ومسرح التأنس » فقد تحدث عن طائفة من الأعيان الذين تناولهم فى القلائد ، وتحدث عن غيرهم بنفس الأسلوب المسجع . ونجد أخيراً شاعراً وكاتباً كبيراً ، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وزير بنى الأفطس والرائى لدولتهم ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وهو الذى سبق ذكره ، يقدم لنا فى رسالته عن« القضاء والحسبة » صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة ، وما يتعلق بها من أحوال الناس والمجتمع فى عهد الطوائف ، تبدو فيها روح النقد والتشاؤم ، وهو ينوه فى رسالته بما كان يجرى فى إشبيلية ، حيث كان يقيم ، من ضروب الفساد ، ويدعو إلى الكف عن أمور كانت تجرى فى عهده ، منها ألا يدخل النساء المسلمات الكنائس المشفوعة تحوطاً من فسق القساوسة ، وألا تقرع النواقيس فى بلاد المسلمين ، إذ هى لاتضرب إلا ببلاد النصارى ، وألا يبيع النصارى واليهود كتب العلوم الإسلامية لأنهم يترجمونها وينسبونها إلى أعيانهم ، وألا يتولى الأطباء اليهود والنصارى علاج المسلمين . إلى غير ذلك مما سبق أن أشرنا إليه . ومما جاء فى ختام رسالته قوله : « وبالجملة فإن الناس قد فسدت أديانهم وإنما ... الدنيا الفانية والزمان على آخره . وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج ، وداعية الفساد ، وانقضاء العالم . ولا يصلح ذلك إلا نبى بإذن الله . فإن لم يكن زمن نبى ، فالقاضى مسئول عن ذلك كله ، ومن كان فى عون المسلمين ، كان الله فى عونه ، فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى إلى الإصلاح والعدل

---

(١) هو كتاب « قلائد العقيان » وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ .

والتخلص ، وينظر لنفسه ، فعسى يتخلص ، والله بعزته يسدده ، ويوفقه للخير ... »(١) .

— ٣ —

الخواص الفنيـــة

وكما ازدهرت العلوم والآداب فى عصر الطوائف، فكذلك ازدهرت الفنون والصناعات ، وكانت قصور الطوائف مثوى للفنون الجميلة ، ومظهراً حياً لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف وترف وإناقة ، وكانت بالأخص منتديات زاهرة للموسيقى ، وما يتبعها من الغناء . وكان معظم أمراء الطوائف من عشاق الموسيقى يتنافسون فى اقتناء القينات الحسان البارعات فى العزف والغناء، ويبذلون فى ذلك الأموال الطائلة ، حتى لقد بذل أحدهم ، وهو هذيل بن رزين صاحب شنتمرية الشرق ثلاثة آلاف دينار ثمناً لإحدى هؤلاء القينات ، وكان فى قصورهم منهن أسراب وأسراب ، ولاسيما فى قصور بنى عباد بإشبيلية ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وكان المعتمد بن عباد يعشق الموسيقى ، ويصحب الموسيقيين معه أثناء حملاته الحربية .

وكذلك ازدهرت الزراعة بالأندلس فى عصر الطوائف . ونحن نعرف ما امتاز به أهل الأندلس من البراعة فى الفنون الزراعية ، وكيف حولوا وديان الأندلس إلى مهاد ورياض نضرة ، وكيف اتخذت فنون الزراعة على أيديهم طابعاً علمياً واضحاً . وقد كان أهل الأندلس فى الواقع من أنبغ الشعوب فى فلاحة الأرض وتربية الماشية ، وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى والصرف، ومعرفة أحوال الجو، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم، مضرب الأمثال فى الجودة والتنسيق والنماء . ويرجع ازدهار الزراعة فى عصر الطوائف إلى شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق والبساتين اليانعة، وتربية الغراس والزهور النادرة . وقد ظهر فى عصر الطوائف ، عدة من علماء النبات

---

(١) نشرت رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ضمن مجموعة تتضمن ثلاث رسائل فى الحسبة ، نشرت بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وصدرت ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة .

والزراعة ، ولاسيما فى طليطلة وإشبيلية ، حيث كانت حدائق بنى ذى النون فى الأولى ، وحدائق بنى عباد فى الثانية ، تشغل مساحات واسعة ، وتتطلب عناية الخبراء الممتازين . وكان من علماء النبات والفلاحة البارعين فى طليطلة ابن وافد الطبيب المشهور ، وكان يشرف على حدائق بنى ذى النون . وأبو عبد الله بن بصّال العالم الزراعى ، الذى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد اشتهر ابن بصال بتجاربه العلمية الناجحة فى توليد الغراس ، ومكافحة الآفات الزراعية ، وكتابه « الفلاحة » الذى انتهى إلينا ، وهو المشتق من دراساته وتجاربه العملية ، يشهد ببراعته وتفوقه فى هذا الميدان . ولما سقطت طليطلة فى أيدى النصارى ، غادر ابن بصال طليطلة إلى إشبيلية ، وعهد إليه هنالك بالإشراف على بساتين بنى عباد . وكان من هؤلاء العلماء أيضاً أبوعمر أحمد بن محمد بن حجاج ، وقد عاش فى إشبيلية ، وألف كتاباً فى الزراعة اسمه « المقنع » لم يصل إلينا . وأبو عبد الله محمد ابن مالك الطغنرى ، وهو غرناطى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر ، وتتلمذ على ابن بصال ، ووضع كتاباً فى الفلاحة سماه « زهر البستان ونزهة الأذهان » . وكان منهم بقرطبة ابن لونكو الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وكان أيضاً من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الزاهرة . وقد توفى فى سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤)[١] .

وأما عن الصناعات ، فقد كانت كذلك فى عصر الطوائف رائجة زاهرة ، وكانت تشمل كثيراً من الصناعات الهامة مثل صناعات الحديد والنحاس والزجاج والنسيج . وكانت صناعة النسيج بالأخص ، من أهم وأشهر الصناعات أيام الطوائف ، وكان بمدينة ألمرية وحدها ، خمسة آلاف منسج ، تنتج أفخم وأجمل أنواع الأقمشة . وكانت السفن من مختلف ثغور المشرق ، ومن الثغور الإيطالية ، تقصد إلى ألمرية وغيرها من الثغور الأندلسية محملة بالسلع من كل ضرب ، ثم تعود محملة بالسلع الأندلسية . وكانت دول الطوائف ذات الثغور ، مثل إشبيلية وألمرية ، وبلنسية ودانية وسرقسطة ، تجنى من التجارة الخارجية أرباحاً طائلة .

(١) راجع مقدمة كتاب الفلاحة لابن بصال المنشور بعناية المستشرق الإسبانى Millas Vallicrosa الأستاذ محمد عزيمان (تطوان ١٩٥٥) .

والخلاصة أن دول الطوائف تقدم إلينا ذلك المزيج المدهش من الضعف والقوة ، ضعف البناء السياسي والعسكرى ، وقوة التراث المادى والحضارى ، ومن الانحلال الاجتماعى الشامل ، والتقدم الفكرى اللامع . وقد كان أبرز ما فى ذلك المزيج المتناقض ، ضعف الروح الدينية والوطنية ، بصورة لم تعرفها الأمة الأندلسية فى تاريخها من قبل قط ، بل ولم تعرفها فيما بعد ، حتى فى أسوأ عصور الفتنة ، والتفكك السياسى والعسكرى ، التى كان يقابلها من الناحية الأخرى فترات قوة وتفوق من جانب الممالك الإسبانية النصرانية . ولكن الأندلس لم تبد قط فى أية فترة من هذه الفترات تجاه اسبانيا النصرانية ، مثل ما أبدته أيام الطوائف من التخاذل والاستسلام ، ومن ضعف العقيدة الدينية والوطنية ، ومن إهدار لمقتضيات الكرامة القومية ، فعصر الطوائف وحده هو الذى يقدم إلينا تلك الخواص المؤلمة ، التى تتناقض فى مجموعها وفى تفاصيلها ، مع طبيعة الأمة الأندلسية ، ومع ما اتصفت به طوال تاريخها ، من الشجاعة والشهامة والإباء ، والتفانى فى الذود عن الدين والوطن .

وفى وسعنا أن نلمح فى تاريخ الإمارات والجمهوريات الإيطالية فى عصر الإحياء ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كثيراً من آثار تلك الخواص التى غلبت على عصر الطوائف بالأندلس . فهنالك الأمراء الطغاة ، والحروب الأهلية الطاحنة ، تمزق وحدتها وتفرق كلمتها . وهنالك استعداء العدو الخارجى كل منها على الأخرى ، ثم التخاذل فى الدفاع عن الوطن . وهنالك الانحلال الدينى والأخلاقى والاجتماعى الشامل . ونجد إلى جانب ذلك كله نهضة علمية وأدبية وفنية زاهرة ، من أروع ما عرفته إيطاليا فى تاريخها ، يرعاها الأمراء الطغاة ، ويمدونها بالبذل الوفير . وهنالك أخيراً تجارة وصناعات رائجة ، ورخاء شامل ، وحياة كلها متعة واستهتار . ولاريب أن هذا التماثل فى الخواص بين العصرين ، يرجع إلى حد كبير ، إلى التماثل بين ما كان يجوزه كل منهما من الظروف السياسية والاجتماعية .

الوثائق والملحقات

رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية . يصف فيها بلاد الغرب ، وجوازه للأندلس للجهاد بها ، وهزيمته للأذفونش أمير النصارى فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٤٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال (Fol. 49R. –53V.) وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له) .

« الحمد لله الذى من علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلايه ، والسبوغ من سر الله ونعمائه . كان من قضايه جل شأوه ، وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم فى بلاد المغرب ، سبّب لنا إليهم المطلب ، فقفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الدّين ، ومهدنا بها المسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت إلى الله تعالى نياتهم ، وسرايرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لا إله غيره وهو أرحم الراحمين . ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله ، على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ، وإيطايهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان . فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز باباً ، ولا لدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الريس الأجل المعتمد على الله ، المولاّ بنصر الله ، أحسن الله فى كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو ، وجوزنا للعدو أسوداً ضارية ، وسباعاً عادية ، شيباً وشبانا ، بسواعد قوية ، وقلوب فى سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها ، فهى المهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزءرون إليها زءر الأسود ، فشحنا بهم القوارب ،

وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا فى مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل أفق إليهم ، ووفدوا من كل قطر إليهم ، متعجبين من هيأتهم ، محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف ، وغرض للحتوف ، وسعد للأرماح ، ونهب للسلاح ، فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى إلينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، بخيول كالفحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون إلى اللقاء فى الفضاء ، تسابق الحين والقضاء . ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا ، قطعة من صنهاجة بنى عمى ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستصرخنا البارى تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان فى جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامى ، حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين فى مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة ، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ، ونسلموا إليه الشوانى والقوارب ، ليرد علينا ويقاتلنا فى مأمننا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن فى ذلك كله لما نقل إلينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطئين سريرة المخبتين ، لابسين قسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرته ، عمرت ببقايه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا إلى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم فى بلادهم ، وأضعفوهم ، وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنقاذ

العباد . فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه ، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصدنا قصدنا ، وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام ، ودخوله فى ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى ، وبين لنا فى كتابه ؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبا وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الإقبال علينا ، وحث فى الورود علينا ، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياماً ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلايع إليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبنينا على لقايه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . فلما كان يوم الجمعة ثانية ، ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق ؛ وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق ؛ قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا فى سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأ من الخمور ، يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن فى أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم ، لايقدرون عسكراً إلا عسكره ، ولا رجال إلا رجاله ، ولا عديداً إلا عديده ، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه ، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل ، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فروا يطلبون معقلا يعصمهم ، ولا عاصم إلا الله ، ولا هارباً منه إلا إليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرامات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، وأسلموه أيده الله ، وحده فى طرف الأخبية ، مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء ، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرايس ، يعظمون الكنايس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل إلا البعض ، ولجأ فى الأخبية ، بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته فى المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه ، لايروعه أحد منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم ،

ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم ، عسكر داود وأخبيته ، فجالوا فيها جولاناً ، وقتلوا من الخلق ألواناً ، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله ، ونحن فى ذلك كله غافلون ؛ حتى ورد علينا وارد ، وقصد إلينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب . فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلين لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للمنون الذى لا بد منه ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا ، فلنموتوا شهداء ، فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولى النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه . وأضعف الرعب أيديهم ، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، حتى أن هاربهم لا يرى غير شىء إلا ظنه رجلا ، وفتكت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح ، فشكوهم بها فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ، الكل يجر عنانه ، كأنه معقل بعقاله ، ونحن راكبون على الجواد الميمون ، العربى المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان ، وبيدنا الثالث ، عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا فى الأرض مجدلين ، موتى معفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلون بإزاء المحلات ، حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ، ومدد لا يحزر ، والتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . وانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل أو أقل ، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا ، قد أثخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب فى المقام ، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون فى أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجازرين ، إلى أن جن الليل وأرخى

سدوله، ولواهاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دِلاص على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد . وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك . وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون فى الانتقال ، ولا يسئمون من تشريط الأموال ، ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التى قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وتراميهم للشهادة ؛ قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم ،وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهدت نجدته فى المغرب ، وانقلبت خير منقلب . ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقايه ، وأقمنا عنده أياماً ، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع ؛ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجح إلى أحدهم نفس ، يذكرون ما لقوا ، ويتذاكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم أن كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حى ، ولا يحس منهم أنسى . والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى ، وهذا كله منّاً منه علينا لا منّاً عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته » .

بعض « فصول » الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة .

(منقولة عن كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس – طبعة أو بسالة ص ٩٦ – ٩٨) .

« أما بعد حمد الله ، المتكفل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه ، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله ، وأكرم خلقه وأسره ، فإن العدو الطاغية ، لعنه الله ، لما قربنا من حماه ، وتوافقنا بإزائه ، بلغناه الدعوة ، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه ، على الملاقات فى يوم الاثنين الخامس عشر لرجب ، وقال الجمعة عيد المسلمين ، والسبت عيد اليهود ، وفى عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فافترقنا على ذلك وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ، ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ، ليرفعوا إلينا أحوالهم ، فأتتنا الأنباء فى سحر يوم الجمعة الثانى عشر من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرا أنه قد اغتنم فرصته فى ذلك الحين ، فنبذت إليه أبطال المسلمين ، وفرسان المجاهدين ، فتغشته قبل أن يتغشاها ، وتعدته قبل أن يتعداها ، وانقضت جيوش المسلمين فى جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة فى سائر المشهدة المنتشرة ، ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفنش ، فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهدة المنتشرة ، ونظروا إلى مواكبنا المنتظمة المظفرة ، وأغشتهم بروق الصفاح ، وأضلتهم سحائب الرماح ، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفنش ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة ، وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، وأقبل سيل الدماء فى هرج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى ألفنش مطعوناً فى إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه فى خمس مائة فارس من ثمانين

ألف فارس ومائتى ألف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك، ونظروا النهب والنيران فى محلته من كل جانب ، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ، ويحيد عنها صبراً ، ولا يستطيع عنها دفعاً ، ولا لها نصراً ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة فى ظلام الليل ، وأمير المسلمين محمد الله قد ثبت فى وسط مواكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور الجهاد ، مرفوع الأعداد ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، فقد سرح الغارات فى محلاتهم تهدم بناءها ، وتصطلم ذخائرها وأسبابها ، وتريه رأى العين دمارها ونهبها ، والفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه ، فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار ، فتراجعوا حذاراً من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ، أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المؤمنين ، وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل ، والصنع الجميل ، وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وكانت هذه النعمة العظيمة ، والمنة الجسيمة ، يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة ، موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى » .

رسالة لابن (إسحق) عن المقتدر بالله إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة.

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال Fot. 118V-119R)

« سيدى ، وأعلى عددى ، وأقوى عمدى ، وأزكى ذخرى لأبدى ، ونعمة الله المستطيلة بيدى ، المناهضة بعضدى ، ومن أطال الله بقاه فى عز رفيع المراتب ، وحرز منيع الجوانب ، إذ أحكام الفتن ، وحوادث الزمن ، لاتزال تحل على كل ما لايقع بإيثار ، ولا يجرى على حكم واختيار ، فرب كريهة لا يلقى المرء عن اقتحامها معدلا ، ومساءة لا يزال عن التزامها مرحلا ، وقديماً جدّ الجفاء العقوق ، وأبطل التجنى الحقوق ، وقد يحرج الحليم ، ويتغيس الحميم ، وتقطع الرحم ، وتنبذ الذمم ، لا سيما عن مجاذبة ما يمنع الحسد ، باتراً أواصر الإخاء والإجمال ، وتحاسد القرابة داء قديم ، وخلق فى الناس معلوم ، وإنى أيدك الله ، بليت من المظفر أخى بظالم لا يؤمل منه إنصاف ، ومتحمل لاتستنزله ألطاف ، وحاسد لايرجى استرضاؤه ، وموجب لنفسه حقاً لا يوجب مضاؤه ، إذا سألته نصفة أبدا منه أنفه ، وإن سمته عدلا مال إلى الجور ميلا ، وإن خفضت له جناح الذل ، أوطأنى جهر الجفا ، وإن أقبلت عليه بناظر الود ، أول من صفحة الإبداء ، وإن استدنيته شحط ، وإن استرضيته سخط ، وإن حكمته تشطط ، وإن أغضيت له تسلط ، وأنا فى أثناء ذلك كله أحاوله على أخلاقه ، وألبسه على أخلاقه ، وأستمع منه بغير مستمع ، وأرفع منه بغير مرفع ، وعقارب مضرته تدب ، وعواصف معرته تهب ، وأذاه قاصد إلى فى خاصتى ، ومفسد على بطانتى ، لايألو فى مساعى سعياه اجتهاداً ، ولا آلو إلى مسرته تأنياً وانقياداً ، آخذاً بالحجة عليه ، وتقدماً بالجميل إليه ، وطمعت أن تكون نظرة تريه مواقع ظلمه ، وتعرفه جور حكمه ، ولا يزداد إلا اغتراراً ، ولايبدى إلا استكباراً إلى أن سولت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام ، وحاول أحوالا تمامها هادية ... ورام معاجلتى بالتى ليس فيها استبقاء ، ولا بعدها بقاء ، وسألنى مع هذا الاجتماع بى ليسوسنى ... الإذعان إلى مطالبه ، والموافقة فى مذاهبه ، فأجبته

رجاء أن تكون المشافهة تستلبه، والملاطفة تلينه وتغريه فأبى إلا ..... وانبساطاً. فلما رأيته عن سوء معتقده غير ...... وعن فساد رأيه غير راجع، وغرنى جماحه، وأعوزنى استصلاحه، ونقلنى عن سجيتى بكره، وكدر صفوى من كل وجه، راجحت فى أمره بين أن أرضى الله عز وجل فى قطيعته بالنظر لعباده، والحماية لبلاده، فما أطمع .... وطأ نواحيها، وأمنع ممن رامه، وأدفع عنه من أراد اهتضامه، وأن أبتهل .... برحم عن نفسى، فرفع الله عن ذلك منزلتها، وبسط عليه مقدرتها، فرأيت النظر فى قطع مضرته أولى، والسعى فى حسم علته ومعرته أحمى، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه، وألزمته البقاء بقصبة منتشون، وللنفس يعلم الله مما حملنى عليه ارتماض وشفاق، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا، ولا جعلنى إلى سواه مخيلا، وكان فيما يأتيه أعق، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق، وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهباً، ويركب حد السيف إذا لم يجد سواه مركباً، والله يشهد لقد طوى جوانحى مما ساقنى إليه على لواعج مزعجة، وخرق منضجة، وكتابى هذا من لاردة، وقد استقرت بحمد الله على الدعة أسباب قريرها، واتصل بجميل عونه تدبيرها، وتقضى أبقاك الله وكيد ما بيننا مقاسمتك الحال، وتعرفك المبدى منها والمآل، فإنك الشريك فى الحلو والمر، والقيم فى النفع والضر، وفى خلال هذا أعزك الله ما وردنى ابن فلان خاصتك سلمه الله بكتابك الكريم، المشتمل على أجفل البر، والمقتضى لأجزل الشكر، ووقف به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط أملى، وأكد جذلى، وعظمت نعم الله ...... وقد صدر أبقاه الله متحملا من صحة ودى، وثبات عهدى، وارتباط عتمدى، .... الأحوال عندى مايطلعك من ذلك كله على الجملة الكافية والحلية الشافية».

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية
أبا عبد الله بن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب
وكتب بها من لاره

(منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى لوحة ٢٦ — ٢٩)

سلام عليك ذا الروى المروى الموقوف قريضه على حللة بجانة ، أرش اليمن ، بزهيد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان الامن غسّان ، أو من آل ذى حسان . وإن كان القوم أقنوك ، وعن العالم أغنوك ، على حسب المذكور ، فما هذا الإعمال للكور ، وترك الوكور . وقل ما تأخذ الشعرة F .26B فى الرحيل إلا عن الربع المحيل ، ولو أن القوم خلطوك بالآل ، لما أحوجك إلى الخبط فى الآل . مه مه ، من أحوجك إلى ركوب المهمة وثقف ، وودك لانقف ، على من اضطرك إلى الايغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المغال ، وعوضك من الأندية ، بجوب الأودية ، ومن المآلف بقطع المتالف ، وحملك على مخالفة الحـصان ، ومحالفة الحِصان ، ووكلك بمسح الأرض ، ذات الطول والعرض ، فإذا يممت تبالة ، تدباله ، وصرت ضغثا على إبالة ، تتعلل باليمين ، ضنا بالعلق الثمين . أأحسبك أزريت ، وبهذا الجيل البجيل ازدريت ، وما دريت ، أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ، ذوى أينق جرب ، أساورة أكاسرة ، مُجد نُجد بُهم ، لا رعاة شويهات ولا بهم ، شغلوا بالماذى والمرّان عن رعى البعران ، وبجلب العز ، عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خـطبة بالخرصان .

ما ضرهم أن شهدوا مجادا   أو كافحوا يوم الوغى الأنداد
أن لايكون لونهم سوادا

أرومة رومية ، وجرثومة أصفرية .

نمتهم ذوو الأحساب والمجد والعلى من الصهب لاراعو غضاً وأفان

من القوم الملس الأدم ، لم تُعرق فيهم الأقباط ، ولا الأنباط ، حسب حرىّ ، ونسب سرىّ ، أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة ، ولا تهايل ، فى التكايل ، فماسسنا قط قرودا ، ولا حكنا برودا ، ولا لكنا عرودا ، فلا تهاجر ، بنى هاجَر ، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ؛ مننّاً عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ، وألحقناكم بالأحرار ؛ فغمطتم F.27A النعمة ، فصفعناكم صفعا ، يشارك سفعا ، اضطركم إلى سكنى الحجاز ، والجأكم إلى ذات المجاز ، رُزُن ، رُصُن .

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم بعد الممات جمال الكتْب والسير

إذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت فى اتساق ؛ وقرعت الظنابيب ؛ وأشرعت الأنابيب ، وقلصت الشفاه ، وفغر الهدان فاه ؛ وولى قفاه ؛ ألفيتهم ذمرة الناس ، عند احمرار الباس ، الطعن بالأسل ؛ أحلى عندهم من العسل .

مستسلمين إلى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحام

من أمنياتهم ، حلول منياتهم ، لهم على القدمة اليدان ؛ على التنائى والتدان .

مين الألى غير زجر الخيل ما عرفوا إذ تعرف العُرب زجر الشّاء والعكر

بُصُرٌ صُبر ، تزدان بهم المحافل والجحافل ، قيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، من العجم ، ضراغمة الأجم ، بتوغاب ، منتفون من كل عاب ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت عليهم سارة الجمال ، ربة الآيات ، شُمخ ، بُذخ ، بررة أقيال ، جررة أذيال . بخ بخ ، أحلتهم سيوفهم سِطة الأرضين ، فما قنعوا بذلك ولا رضين ، حتى دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب .

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كتشهاق العفا همّ بالنهق

شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج ؛ عن

الكلب والفرّوج ، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبائب ، وبالحب عن الحب ، وبالسليل عن الشليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان ، طياتّهم خطياتّهم ، وغلاتّهم آلاتهم وحصونهم ، حصنهم أقيال ، آباؤهم من F. 27B بين الأنام أقتال :

أولئك قومى إن بنوا شيّدوا البنى وإن حاربوا جدّوا وان عقدوا سدّوا

وُضُحٌ رُجح ، لا حفزة عكر ، ولا قفزة أكر ، ملوك جلة ، لا محرِقوا جلة ، ندس ، غنوا بالإستبرق والسندس ، عن البيت المقيظ المشتى ، المجموع من النعيجات الست . بسل لا حراس مسل ، ولا غراس فسل ، مُلّك لقاح ، ليس منهم فى ورد ولا صدر شرّاب درّ اللقاح ، بل شرابهم النبيذ ، وطعامهم الحنيذ ، لا زهيد الهبيد فى البيد ، ولا مكون الوكون ، ولا منهم من احتشا ، بمذموم الكُشا ، ولا فى سائر الاحفاش ، من وليد وناش ، من اغتذى بالأحناش ، فلا يقعقع لهم بالشّنان ، ولا يوعوع لهم بالشنآن ، فكف أيها الشان ، فلهم عظيم الشان ، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الحبشان ، صنيع منبع ، ومنة لا يشوبها منة ، فيالها منحة ، لكنها أعقبت محنة ، إذ صادفت كفرة ، لاشكرة ؛ إيهاً إذ تأبطتم تيهاً ، معشر البداة العداة . اعتقدتم غِلاً ، فاستثرتم صلا . أما علمتم ان الدولة النوشروانية ، والمملكة الأزدشيرية ، بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة بعد عظيم الخبرة ، قالا ذللا ، تتخيرون البنات عند البيات مهورات لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسّانكم ونُعمانكم ، وكان برمه سببا لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جر الذيول ، مدوساً بأخفاف الفيول ؛ والكرام بنو الأصفر ، الأطهر الأظهر ، عطفتهم عليكم الرحم الإبراهيمية ، والعمومة الإسماعيلية ، فسمحوا لكم من الشام بأقصى مكان ، بعد ما كان ، من سيل العرم ما كان ، يؤدى نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم ، الإتاوة على الجماجم .

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعـد أبوالا

F. 28A مهلا بنى الأماء ، عن الغمز والإيماء ، فنحن عُرق غُرّق ، فى الأنساب الصميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا أو يروعنا ،

وقد رسخت فى المجد أصولنا وفروعنا ، ومن يطولنا ، وكل الورى قد شمله فضلنا وطولنا :

شرفٌ ينطح النجوم بروقيــــه وعــزٌ يقلقل الأجيالا

حلُم ، علُم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الاسترلوميق ، والموسيق ، والعلّمة ، بالارتماطيق ، والجومطريق ، والقومة بالألوطيق والبوطيق ، ما شئت من تدقيق ، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية ، لا على وصف الناقة الفدنيّة ، فعلهم ليس بالسفساف ، كفعل نائله وإساف ، أصغر بشأنكم ، إذ بزق خمر ، باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبو رغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستيصالكم .

أزيدك أم كفاك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كنتَ أحمق

فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالفديم ، المفرّى للأديم ، لا كن الفخر يابن عمنا ، الذى بالبركة عمّنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب ، الذى انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، فى الرغام يلفى تبره ، والمسك بعض دم الغزال .

لله مما قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم

وصفوه الصفوة من بينهم محمد النــور أبو القاسم

بهذا النبي الأمى أفاخر من تفخّر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتى بالرسالة ، والمنتّى للأداء F. 28B والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أُصلى على واصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

يابن الأعارب ما علينا باس لم أحك إلا ما حكاه الناس

هذا :

ولم أشتم لكم عرضا ولاكن حدَوت بحيث يُستمع الحداء

ثم أجع بشاعر غسّان ، لاساسان فى هذا العيد بالوعيد ، وأحر فى فى هذا الفصل بعدم الوصل . لقد غمّ آخرك ، لكن بالرغم أخرّك إذ أضربت عن مديح، علقنا الربيح ، معز الدولة، شهمنا الرئيس ومهمنا النفيس قيَل الأمم ، وسيل الأمم ، معنى المعانى ، ومغنى المغانى ، ذى الرياسة الساسانية ، والنفاسة النفسانية ، فاذهب ياغثّ المذهب ، وابتغ فى الأرض نفقا ، أو فى السماء مرتقى ، فهذه أليّة ، جلبت عليك بليّة ، أو حكّك من البسيط المديد ، ما تستجيريه من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمتنا موالى ، وحذار حذار ان تقرع سن الندم ، ولات حين مندم ، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبك ، وكُربك فى كَرَبك ، فمن أبصر أقصر ، وما حرّف ، من صديقه خرّف .

فلا تتبشع ممضّ العتـا ... ب يلقاك يوما بلقياه لاق
فإن الدواء حميد الفعال ... وإن كان مرًّا كريه المذاق

يامعتقل علم الشعر ، والمستقل بقلم النظم والنثر :

قد استحييت منك فلا تكلنى ... إلى شىء سوى عذر جميل
وقد أنفذت ما حقّ عليه ... قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك على انفرادك قوت يوم ... إذا أنفقت إنفاق البخيل
وكيف وأنت علوىّ السجايا ... وليس إلى اقتصادك من سبيل
وقد يُقوى الفصيح فلاتقابل ... ضعيف البر إلا بالقبول
وإن الوزن وهو أصح وزن ... يقام صَغَاه بالحرف العليل
فإن يك ما بعثت به قليلا ... فلى حال أقل من القليل

نجزته من كلام المعرى

والسلام عليك ما سبح الفَلَك وسبّح المَلَك ، ورحمة الله وبركاته .

دول الطـــــوائف

جدول تاريخي مفصل

دولة بني جهور في قرطبة

أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ — ٤٣٥ هـ : ١٠٣١ — ١٠٤٤ م
ابو الوليد محمد جهور ٤٣٥ — ٤٥٧ هـ : ١٠٤٤ — ١٠٦٤ م
عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٧ — ٤٦٣ هـ : ١٠٦٤ — ١٠٧٠ م

المعتمد بن عباد يستولي على قرطبة سنة ٤٦٣ هـ

دولة بني عباد في إشبيلية

القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ٤١٤ — ٤٣٣ هـ : ١٠٢٣ — ١٠٤٢ م
عباد بن محمد المعتضد ٤٣٣ — ٤٦١ هـ ١٠٤٢ — ١٠٦٩ م
محمد بن عباد المعتمد ٤٦١ — ٤٨٤ هـ ١٠٦٩ — ١٠٩١ م

إشبيلية تسقط في أيدي المرابطين

دولة بني الأفطس في بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور ٤١٣ — ٤٣٧ هـ : ١٠٢٢ — ١٠٤٥ م
محمد بن عبد الله المظفر ٤٣٧ — ٤٦١ هـ : ١٠٤٥ — ١٠٦٨ م
يحيي بن محمد المنصور ٤٦١ — ٤٦٤ هـ : ١٠٦٨ — ١٠٧٢ م
عمر بن محمد المتوكل ٤٦٤ — ٤٨٨ هـ : ١٠٧٢ — ١٠٩٤ م

بطليوس تسقط في أيدي المرابطين

دولة بني يحيي في لبلة

أبو العباس أحمد بن يحيي ٤١٤ — ٤٣٤ هـ : ١٠٢٣ — ١٠٤٢ م
محمد بن يحيي عز الدولة ٤٣٤ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٥١ م
فتح بن خلف ناصر الدولة ٤٤٣ — ٤٤٥ هـ : ١٠٥١ — ١٠٥٣ م

لبلة تسقط في يد المعتضد بن عباد

دولة بني مُزين في باجة وشلب

الحاجب عيسى محمد ٠٠٠ — ٤٣٢ هـ : ٠٠٠ — ١٠٤١ م
محمد بن عيسى عميد الدولة ٤٣٢ — ٤٤٠ هـ : ١٠٤١ — ١٠٤٨ م

عيسى بن مُزين المظفر ٤٤٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤٨ — ١٠٥٣ م
محمد بن عيسى الناصر ٤٤٥ — ٤٥٠ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٨ م
عيسى بن محمد المظفر ٤٥٠ — ٤٥٥ هـ : ١٠٥٨ — ١٠٦٣ م

شلب تسقط فى يد المعتضد بن عباد

دولة بنى البكرى فى ولبه وجزيرة شلطيش

عبد العزيز البكرى عز الدولة ٤٠٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠١٢ — ١٠٥١ م

ولبة وشلطيش تسقطان فى يد المعتضد

دولة بنى هارون فى شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون ٤١٧ — ٤٣٣ هـ : ١٠٢٦ — ١٠٤١ م
محمد بن سعيد المعتصم ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م

شنتمرية الغرب تسقط فى يد المعتضد

دولة بنى ذى النون فى طليطلة

إسماعيل بن ذى النون الظافر ٤٢٧ — ٤٣٥ هـ : ١٠٣٦ — ١٠٤٣ م
يحيى بن إسماعيل المأمون ٤٣٥ — ٤٦٧ هـ : ١٠٤٣ — ١٠٧٥ م
يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر ٤٦٧ — ٤٧٨ هـ : ١٠٧٥ — ١٠٨٥ م

طليطلة تسقط فى يد ألفونسو السادس

دولة بنى مناد فى غرناطة

زاوى بن زيرى ٤٠٣ — ٤١٠ هـ : ١٠١٣ — ١٠١٩ م
حبوس بن ماكسن ٤١١ — ٤٢٨ هـ : ١٠٢٠ — ١٠٣٧ م
باديس بن حبوس المظفر ٤٢٨ — ٤٦٥ هـ : ١٠٣٧ — ١٠٧٣ م
عبد الله بن بلقين ٤٦٥ — ٤٨٣ هـ : ١٠٧٣ — ١٠٩٠ م

المرابطون يستولون على غرناطة

دولة بنى برزال فى قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ — ٤٣٤ هـ : ١٠١٣ — ١٠٤٢ م
عزيز بن محمد المستظهر ٤٣٤ — ٤٥٩ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٦٧ م

قرمونة تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى دمّر فى مورور

نوح بن أبى تزيرى الدمرى ٤٠٣ — ٤٣٣ هـ : ١٠١٣ — ١٠٤١ م

محمد بن نوح عز الدولة ٤٣٣ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥٣ م
مناد بن محمد عماد الدولة ٤٤٥ — ٤٥٨ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٦ م

مورور تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى خزرون فى أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة ٤٠٢ — ٤٢٠ هـ : ١٠١١ — ١٠٢٩ م
عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٥٣ م
محمد بن محمد بن خزرون القائم ٤٤٥ — ٤٦١ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٨ م

أركش تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى يفرن فى رندة

هلال بن أبى قرة اليفرنى ٤٠٦ — ٤٤٥ هـ : ١٠١٥ — ١٠٥٣ م
باديس بن هلال ٤٤٥ — ٤٤٩ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٧ م
أبو نصر فتوح بن هلال ٤٤٩ — ٤٥٧ هـ : ١٠٥٧ — ١٠٦٥ م

رندة تسقط فى يد ابن عباد

مملكة ألمرية

١ — خيران العامرى ٤٠٥ — ٤١٩ هـ : ١٠١٤ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
عبد العزيز المنصور ٤٢٩ — ٤٣٣ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٤١ م
٢ — معن بن صمادح ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م
محمد بن معن المعتصم ٤٤٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٥١ — ١٠٩١ م
أحمد بن محمد معز الدولة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على ألمرية

مملكة مرسية

١ — خيران العامرى ٤٠٣ — ٤١٩ هـ : ١٠١٢ — ١٠٢٨ م
زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م
أبو بكر بن طاهر ٤٢٩ — ٤٥٥ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٦٣ م
أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ — ٤٧١ هـ : ١٠٦٣ — ١٠٧٨ م

(حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك)
المعتمد بن عباد يستولى على مرسية

٢ — ابن عمار ٤٧١ — ٤٧٣ هـ : ١٠٧٨ — ١٠٨١ م

ابن رشيق ٤٧٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ هـ .

المرابطون يستولون على مرسية

مملكة دانية والجزائر

١ — مجاهد العامرى الموفق ٤٠٠ — ٤٣٦ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٤٤ م

على بن مجاهد إقبال الدولة ٤٣٦ — ٤٦٨ هـ : ١٠٤٤ — ١٠٧٦ م

٢ — المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ٤٦٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٧٦ — ١٠٨١

المنذر بن هود ٤٧٤ — ٤٨٣ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على دانيــة

مملكة بلنســية

الفتيان مظفر ومبارك ٤٠٠ — ٤٠٨ هـ : ١٠٠٩ — ١٠١٧ م

لبيب العامرى ٤٠٨ — ٤١١ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢١ م

عبد العزيز المنصور ٤١١ — ٤٥٢ هـ : ١٠٢١ — ١٠٦١ م

عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ — ٤٥٧ هـ : ١٠٦١ — ١٠٦٥ م

المأمون بن ذى النون يستولى على بلنسية

نائبه أبو بكر بن عبد العزيز ٤٥٧ —٤٧٨ هـ : ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م

عثمان بن أبى بكر ٤٧٨ — ٠٠٠ هـ : ١٠٨٥ — ٠٠٠ م

القادر بن ذى النون ٤٧٨ — ٤٨٥ هـ : ١٠٨٥ — ١٠٩٢ م

القاضى ابن جحّاف ٤٨٥ — ٤٨٧ هـ : ١٠٩٢ — ١٠٩٤ م

السيد إلكمبيادور والقشتاليون ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٣ — ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على بلنسية

إمارة شنتمرية الشرق

هذيل بن عبد الملك بن رَزين ٤٠٣ — ٤٣٦ هـ : ١٠١٢ — ١٠٤٥ م

عبد الملك بن هذيل ٤٣٦ — ٤٩٦ هـ : ١٠٤٦ — ١١٠٣ م

يحيى حسام الدولة ٤٩٦ — ٤٩٧ هـ : ١١٠٣ — ١١٠٤ م

المرابطون يستولون على شنتمرية الشرق

إمارة ألبونت

عبد الله بن قاسم ٤٠٠ — ٤٣١ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٣٩ م

محمد بن عبد الله يمن الدولة ٤٣١ — ٤٣٤ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٢ م
أحمد بن محمد عز الدولة ٤٣٤ — ٤٤٠ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٤٨ م
عبد الله بن محمد جناح الدولة ٤٤٠ — ٤٩٥ هـ : ١٠٤٨—١١٠٢ م

المرابطون يستولون على ألبونت

مملكة سرقسطة

١ — المنذر بن يحي التجيبى ٤٠٨ — ٤١٤ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢٣ م
يحي بن المنذر المظفر ٤١٤ — ٤٢٠ هـ : ١٠٢٣ — ١٠٢٩ م
المنذر بن يحي معز الدولة ٤٢٠ — ٤٣٠ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٣٩ م
٢ — سليمان بن هود المستعين ٤٣١ — ٤٣٨ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٦ م
أحمد بن سليمان المقتدر ٤٣٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٤٦ — ١٠٨١ م
يوسف بن أحمد المؤتمن ٤٧٤ — ٤٧٨ هـ : ١٠٨١ — ١٠٨٥ م
أحمد بن يوسف المستعين ٤٧٨ — ٥٠٣ هـ : ١٠٨٥ — ١١١٠ م
عبد الملك بن أحمد عماد الدولة ٥٠٣ — ٠٠٠ هـ : ١١١٠ — ٠٠٠ م

المرابطون يستولون على سرقسطة

ثبت المراجـــع

— ١ —

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر (بولاق) .

تاريخ ابن الأثير (الطبعه الأهلية ١٣٠٣ هـ) .

وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .

نهاية الأرب للنويرى . (القسم التاريخى ، ومعظمه لا يزال مخطوطا) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (الطبعة الأهلية ١٣٠٢هـ)

البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى (الجزء الثانى المنشور بعناية العلامة دوزى (١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (باريس ١٩٣٠) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (المجلدات الثلاثة المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة وما نشر منه فى موسوعة دوزى عن بنى عباد .Hist. Abbad ، والقسم المخطوط المنوه عنه فيما بعد .

كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية، والقاهرة سنة ١٩٥٥)

التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعى (ضمن المكتبة الأندلسية) .

بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى (ضمن المكتبة الأندلسية والقاهرة ١٩٥٥) .

الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المنشور بعناية العلامة دوزى ليدن ١٨٤٧) . والأصل الكامل المخطوط المنوه عنه فيما بعد .

(وطبعة القاهرة الصادرة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس (١٩٦٤) فى مجلدين

جذوة المقتبس لأبى عبد الله الحميدى (القاهرة) .

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢هـ) .

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع الفاسى المنشور بعناية المستشرق كارل تورنبرج (أبسالة ١٨٤٣) .

الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (طبع تونس) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .

المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى المنشور بعناية الدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٥٣ و ١٩٥٥) .

كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٣ هـ) .

نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمدعبدالله عنان (الطبعة الثانية ١٩٥٨) .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .

طوق الحمامة لابن حزم (طبع دمشق ١٣٤٩ هـ) .

رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشورة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى عدد ديسمبر ١٩٥١) .

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى (القاهرة ١٩٤٨) .

المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى ، والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان (الطبعة الثانية) .

سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى (القاهرة ١٩٣٥) .

معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٩٠٦) .

كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأبى العباس أحمد بن يحيى الونشريشى (طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ) .

رسالة ابن عبدون فى الحسبة (المنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال طبع معهد الآثار الفرنسى بالقاهرة) .

كتاب الفلاحة لابن بصّال المنشور بعناية المستشرق مياس بييكروسا والأستاذ محمد عزيمان (تطوان سنة ١٩٥٥) .

مصادر مخطوطة

ابن حيان : السفر الثانى من كتاب « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » . قطعة مخطوطة ، محفوظة فى خزانة جامع القرويين بفاس .

أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القرويين بفاس .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، الجزء الكبير المخطوط المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٧٣ الغزيرى .

الحلة السيراء لابن الأبار ، النسخة الكاملة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٤ الغزيرى .

إعتاب الكتاب لابن الأبار ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٣١ الغزيرى .

المجموعة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٤٨٨ الغزيرى ، وبها عدة رسائل مرابطية هامة .

المجموعة المخطوطة المسماة « رسائل تاريخية وأدبية » المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٥٣٨ الغزيرى .

تحفة العروس لأبى عبد الله التيجانى الأندلسى المالكى ، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة الإسكوريال رقم ٥٩٩ الغزيرى .

— ٢ —

R. Dozy : Scriptorum Arabum loci de Abbaditis (Historia Abbadidarum) (Leiden 1848—1852, 3 vol.).

„ „ : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (Leiden 3 ème Ed.).

„ „ : Le Cid d'après de nouveaux documents.

„ „ : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquète des Almoravides (Leiden 1932).

R.A. Nykl : Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old Provençal Troubadours (Baltimore 1946).

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid, 1955).

Padre Enrique Florez : Espana Sagrada (Madrid, 1797-1886).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Madrid, 1861).

Estudios de Erudición Oriental. Homenaje a F. Codera.
F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (Zaragoza, 1899).
Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid, 1926).
R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid, 1947).
„ „ „ : Origenes del Espanol.
M. Caspar Rimero : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza, 1905).
A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901).
Is. de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid, 1949).
J. Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos (Madrid, 1928).
A. Asin Palacios : Abenhazm de Córdoba y su historia de las ideas religiosas.
A. Campaner y Fuentes : Bosequejo Historico de la Dominacion Islamita en las Islas Baleares (Palma, 1868).
A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana (Cuarta Ed).
„ „ „ Influencia de la Civilizacion Arabe (Madrid 1931).
M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868).
Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada.
J. Aschbach : Geschichte Spaniens zur Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden (Frankfurt am Main 1833).
(وترجمه العربية محمد عبد الله عنان)
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

الحسن بن رشيق : مما يزهدنى فى أرض أندلس ١٥

ابن زيدون أبو الوليد

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم ٢٦

لقد سرنى أن النعى موكل ٥٧

ابو بكر بن اللبانة

من بنى المنذر بن ماء السماء ٣٣

ملك يروعك فى حلى ريعـــانه ٢١٠

نسيت الا غداة النهر كونهم ٣٥٦

القاضي ابن عباد : ولابد يوما أن أسود على الورى ٣٩

المعتضد بن عباد

حميت ذمار المجـد بالبيض والسمر ٥٧

لقد حصـلت يارندة ٥٧

المعتمد بن عباد

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر ٦٠

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر ١٣٢

ان يسلب القوم العـــدا ٣٥٥

أنباء أسرك قد طبق آفاقا ٣٥٩

غريب بأرض المغربين أسير ٣٥٩

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ٣٥٩

بكيت الى سرب القطـا اذ مرون ٣٦٠

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما ٣٦٠

قبر الغريب سقاك الرائح الغـادى ٣٦١

ابو بكر بن عمار

ألا حى بالغرب حيا جلالا ٦٨

سجاياك ان عافيت أندى وأســمح ٦٩

بشر بلنسية وكانت جنة ١٨٢و١٨٣

عمر بن الافطس (المتوكل) : انهض أبا طالب الينا ٨٨

رثاء مدينة طليطلة : لثكلك كيف تبتسم الثغور ١١٨

ابو اسحاق الالبيرى : الا قل لصنهاجة أجمعين ١٣٥و١٣٦

ابن دراج القسطلى

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران ١٦٢

انورك أم أوقدت بالليـل نارك ٢١٩

بشراك من طول الترحل والسرى ٢٦٨

ابن الحداد الوادى آشي : لعلك بالوادى المقدس شاطىء ١٦٩

المعتصم بن صمادح

وتحت الفلائل معنى غريب ١٧٠

ترفق بدمعك لا تفنه ١٧٢

تمتعت بالنعماء حتى مللتها ١٧٢

ابو جعفر البتي : أترضى عن الدنيا فقد تتشوف ١٨٢

ابو عبد الرحمن بن طاهر : أيها الأخيف مهلا ١٨٦

ابو اسحاق بن خفاجة : عاثت بساحتك العدا يادار ٢٤٦

ابو عيسى بن لبون : نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها ٢٥٧

عبد الملك بن رزين

انا ملك تجمع فى خمس ٢٥٨

يا رب ليل أطال الليل مدته ٢٥٩

اترى الزمان يسرنا بتلاق ٢٥٩

عبد الله بن محمد بن قاسم

خلعت عن الملك لكننى ٢٦٢

أما لكل نبيه فى العلا حيل ٢٦٢

المقتدر بن هود ، ابو جعفر

قصر السرور ومجلس الذهب ٢٨٣

لست لدى خالقى وجيها ٢٨٣

السميسر

صانع أذفونش والنصارى ٣٤٠

ابو بحر بن عبد الصمد : ملك الملوك أسامع فانادى . . . ٣٦٢

ابن الخطيب ، لسان الدين : قد زرت قبرك عن طوع بأغمات . ٣٦٣

ابن عبدون (ابو محمد عبد المجيد) : الدهر يفجع بعد العين بالأثر . ٣٦٩

ابو محمد بن عبد العزيز البطليوسى

هلم الى روضك يا زهير ٤٢٨

ابو بكر بن عبد العزيز البطليموسى

يا أخى قم تر النسيم عليلا ٤٢٨

عبادة بن القزاز

بدرتم شمس ضحا ٤٢٩

ابو الوليد الباجي

اذا كنت أعلم علما يقينا ٤٣٣

فهرست الموضوعات

صفحة

مقـدمة ٣

تصـدير ٧

تمهيد : نذر الإنحلال والتفكك ١١

الكتاب الأول

قرطبـة

ودول الطوائف فى الأندلس الغربية والوسطى

الفصل الأول : دولة بنى جهور فى قرطبة ٢٠

الفصل الثانى : بنو عباد ومملكة إشبيلية — القسم الأول ٣١

إمارات غرب الأندلس ٤٠

الإمارات البربرية ٤٤

الفصل الثالث : بنو عباد ومملكة إشبيلية — القسم الثانى ٥٩

الفصل الرابع : بنو الأفطس ومملكة بطليوس ٨١

الفصل الخامس : مملكة بنى ذى النون فى طليطلة ٩٤

الكتاب الثـانى

الدول البربرية فى جنوبى الأندلس

الفصل الأول : دولة بنى مناد البربرية فى غرناطة ومالقة ١٢٠

الفصل الثانى : الإمارات البربرية الأخرى فى جنوبى الأندلس ... ١٤٧

الكتاب الثالث

دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم

فى شرق الأندلس

الفصل الأول : مملكة ألمرية ١٥٨

الفصل الثانى : مملكة مرسية ١٧٤

الفصل الثالث : مملكة دانية والجزائر ١٨٧

صفحة

الكتاب الرابع

دول الطوائف فى منطقة بلنسية

الفصل الأول : مملكة بلنسية

١ – عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون ... ٢١٦

الفصل الثانى : مملكة بلنسية

٢ – السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية ... ٢٣١

الفصل الثالث : إمارة شنتمرية الشرق ٢٥٣

الفصل الرابع : إمارة ألبونت ٢٦٠

الكتاب الخامس

دول الطوائف فى الثغر الأعلى

الفصل الأول : مملكة سرقسطة حتى نهاية عصر المقتدر بن هود ... ٢٦٤

الفصل الثانى : مملكة سرقسطة منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها فى أيدى المرابطين ٢٨٤

الكتاب السادس

موقعة الزلاّقة والفتح المرابطى

الفصل الأول : نشأة المرابطين وقيام الدولة المرابطية بالمغرب ... ٢٩٨

الفصل الثانى : موقعة الزلاّقة ٣٢٠

الفصل الثالث : الفتح المرابطى – القسم الأول ٣٣٣

الفصل الرابع : الفتح المرابطى – القسم الثانى ٣٤٩

الكتاب السابع

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال القرن الحادى عشر الميلادى

الفصل الأول : المملكة الإسبانية الكبرى فى عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول ٣٧٦

صفحة

الفصل الثانى : إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول .. ...
عصر ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد ٣٨٨
الفصل الثالث : النصارى المعاهدون ٤٠٩

خواص عصر الطوائف
السياسية والاجتماعية والحضارية ٤١٨

وثائق وملحقات

١ — رسالة كتبها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس يصف فيها فتح بلاد الغرب وجوازه للأندلس للجهاد بها. ٤٤٦
٢ — بعض فصول الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة ٤٥١
٣ — رسالة المقتدر بن هود إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة ٤٥٣
٤ — رسالة أبى عامر بن غرسية فى تفضيل العجم على العرب ... ٤٥٥
دول الطوائف : جدول تاريخى مفصل ٤٦٠
ثبت المراجع ٤٦٥
فهرست الشعر والشعراء ٤٦٩

فهرست الخرائط

١ — دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية بعد انهيار الخلافة ... ٢٧
٢ — دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية عقب سقوط طليطلة ... ١١٧
٣ — موقعة الزلاّقة ٣٢٧
٤ — الدولة المرابطية الكبرى عقب افتتاح الأندلس ٣٦٧

فهرست الكتب والرسائل

الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٢٥٢
الإحكام لأصول الأحكام ، لابن حزم ؛ ٤٢٠
الإستكمال للمؤتمن بن هود ؛ ٢٨٦ ، ٤٣٦
إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
أعلام نبوة نبينا محمد ، لابى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠
أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ؛ ٣٦٣
البطشة الكبرى ، لابن حيان ؛ ٢٩
بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، لابى عمر بن عبد البر ؛ ٥٧ ، ٤٣٤
البيان المغرب ، لابن عذارى المراكشى ؛ ٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٣٤٧
البيان الواضح فى الملم الفادح ، لابن علقمة ؛ ٢٤٣ ، ٢٥١
تاريخ ألفونسو العالم ؛ ٢٥٢ ، ٤٣٤
تاريخ رهبان سيلوس ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٥
جداول الزرقالى الفلكية ؛ ٤٣٥
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ؛ ٧٥ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٣٤٥
ديوان ابن دراج القسطلى ؛ ٤٣١
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام الشنترينى ؛ ٥٦ ، ٧١ ، ١٠٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٣٩ ، ٢٩٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
رسالة ابن زيدون فى هجاء ابن عبدوس ؛ ٢٤٦
رسالة القضاء والحسبة لابن عبدون ؛ ٤١٣ ، ٤٤٠
روض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى ؛ ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٥٣
الروض المعطار لعبد المنعم الحميرى ؛ ٢٧٧
زهر البستان ونزهة الاذهان ، للطغنرى ؛ ٤٤٢
السجيع فى علوم الأوائل الرياضية ، ليوسف ابن نغزالة ؛ ١٣٣
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى ؛ ٢٩٤
سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر ، لابن بسام ؛ ١٧٨
طبقات الامم ، لابن سعيد ؛ ١٠٦ ، ٤٣٥
طوق الحمامة ، لابن حزم ؛ ٤٣١
العبدونية ، قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ؛ ٤٢٨
غريب القرآن ، لابى يحيى بن صمادح ؛ ١٦٥
الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٤
قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان ؛ ١٤١ ، ٤٤٠
كتاب فى الإجماع ومسائله ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب التبيان للامير عبدالله بن بلقين ؛ ١٤٦ ، ٣٤٢
كتاب التلخيص لوجوه التخليص ، لابن حزم ؛ ٤٢٠
كتاب جوامع السيرة ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب السماء ، لابن سيدة ؛ ٤٣٤
كتاب الفلاحة ، لابن بصال ، ٤٤٢
كتاب فى مراتب العلوم ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب المحكم لابن سيدة ؛ ١٩٨ ، ٤٣٤
كتاب المظفرى ، للمظفر بن الأفطس ؛ ٨٧ ، ٤٢٩
اللآلىء فى شرح أمالى القالى ، لابى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠
المآثر العامرية ، لابن حيان ؛ ٤٣٨
المتين ، لابن حيان ، ٤٣٨
المسالك والممالك ، لأبى عبيد البكرى ؛ ١٧٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٤٣٠
المسهب للحجارى ؛ ٢٨٢
مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان ؛ ١٠٤
معجم ما استعجم ، لأبى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠ ، ٤٣١
المعيار المغرب والجامع المغرب ، عن فتاوى أهل افريقية والمغرب ، للونشريشى ؛ ٣٤٨
نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية ، لأبى بكر بن اللبانة ؛ ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٤٢٧
نفاضة الجراب ، لابن الخطيب ؛ ٣٦٣
نقط العروس ، لابن حزم ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٨
يتيمة الدهر للثعالبى ؛ ٤٣١ ، ٤٤٠

فهرست القبائل والطوائف والدول

أ ـ ب

الإباضية ؛ ١٥٤

الادارسة ؛ ٣٠٣ ، ٣٧٩

الأرجونيون ؛ ٣٢٤ ، ٢٧٩

الأزد ؛ ٢٧٠

إزداجة ، قبيلة ؛ ١٢٣

الإسبان ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٤٠٢

الألمان ؛ ١٨٨

آل برنجير ؛ ٢٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨

آل بوريل ؛ ٤٠٧

آل مديتشى ؛ ٢٣

إمارة ألبونت ؛ ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٦٨

إمارة برشلونة ؛ ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٢

إمارة رندة ؛ ٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥

إمارة شذونة ؛ ١٤٨ ، ١٥٥

إمارة شلب ؛ ٤٣

إمارة شنتمرية الشرق؛ ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٣٦٨

إمارة قرمونة ؛ ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢

إمارة قرطبة ؛ ١٧ ، ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٥٦

إمارة قطلونية ؛ ٤٠٨

إمارة مورور ؛ ١٤٨

الأندلسيون ؛ ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨

الإيطاليون ؛ ١٨٨

البابوية ؛ ١٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٢

البجلية ، طائفة ؛ ٣٠٥

البرانس ، قبيلة ؛ ٢١ ، ٢٥٣ ، ٢٩٩

البربر؛ ١٢ — ١٤ ، ١٩ ، ٢١ — ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٤ — ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ — ٤٧ ، ٦١ — ٦٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٢٠ — ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ — ١٣٢ ، ١٣٩ — ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧ ، ٤١٠

برغواطة ، قبيلة ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

البشكنس ؛ ٧٣ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠

بنو الأفطس ؛ ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٥٠ ، ٣٦٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠

بنو أمية ؛ ١١ — ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ ، ٣٨١

بنو برزال ؛ ٣٦ ، ٤٧ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩

بنو بيطر ؛ ٢٩٠

بنو تجيب ؛ أنظر بنو هاشم

بنو جهور ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ١٠٣ ، ٤٢٦

بنو حماد ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٣٦٦

بنو حمود ؛ ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ — ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ٣١٢ ، ٣٨٩

بنو خزرون ؛ ١٥٢ ، ١٥٥ ، ٣٠٤

بنو خطاب ؛ ١٩٧

بنو دمر ؛ ٤٦ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤

بنو ذو النون ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٢٢٨ ، ٣٤٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢

بنو رزين ؛ ١٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩

بنو زيرى ؛ أنظر بنو مناد

بنو صمادح ؛ ١٦٤ ، ١٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ ·

بنو طاهر ؛ ١٧٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٤٢
بنو الطويل ؛ ٤١٢
بنو عامر ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٠
بنو عباد ؛ ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٠ — ٦٢ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٢ — ٨٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢٩٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٤١
بنو العباس ؛ ٥١
بنو قاسم ؛ ٢٦٠ ، ٢٦٢
بنو القبطرنة ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ٤٢٨
بنو قسي ؛ ٢٦٥ ، ٤١٢
بنو مرين ؛ ٣١٠
بنو مزين ؛ ٤٤
بنو مسلمة ؛ أنظر بنو الأفطس
بنو معنصر ؛ ٣١١
بنو مناد ؛ ٢٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٤١١ ، ٤٣٠
بنو هاشم (التجيبيون ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، ٢٩٣ ، ٤١٢
بنو هود ؛ ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
بنو وانودين ؛ ٣٠٤
بنو يرنيان ؛ ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦
بنو يفرن ؛ ٤٦ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١١
البيزيون ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢
تجيب ، قبيلة ؛ ٨٢ ، ١٦٥

ج — ز

جدميوه ، قبيلة ؛ ٣٠٥
جزولة ، قبيلة ؛ ٣٠٨ ، ٣١١
الجلالقة ؛ ٧٣ ، ١٨٨ ، ٣٩٢
الجماعة ، حكومة ؛ ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٧ ، ١٦٣ ، ٢٤١ ، ٤٠٩
الجمهوريات الإيطالية ؛ ١٩٣ ، ٤٤٣
الجنويون ؛ ١٩٣
حمير ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣١٣
الخلافة ؛ ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٨٢ ، ١٢٣ ، ١٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٣٨١ ، ٤٣٠
الخلافة الأموية، والدولة ؛ ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٨٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٥ ، ٣٨٢ ، ٤١٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨
الخلافة العباسية ؛ ٣١٤
الخلافة الفاطمية ؛ ٢٠٣
خلافة قرطبة ؛ أنظر الخلافة الأموية
الدعوة الفاطمية ؛ ١٢٢
دول (وملوك) الطوائف ؛ ١٤ — ١٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٨—٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٠ — ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ — ٢٢٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ — ٢٩٦ ، ٢٩٩

٣١٤ — ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،
٣٣٢ ، ٣٣٥ — ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ،
٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٣٧٦ ، ٣٨١ — ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ —
٤٠٠ ، ٤٠٩ — ٤١٥ ، ٤١٨ — ٤٢٥ ،
٤٢٨ — ٤٣١ ، ٤٣٥ — ٤٤٣
دولة بنى الأفطس : ١٢١
دولة بنى برزال ؛ ١٥١
دولة بنى دمر ؛ ١٥٤ ، ١٥٥
دولة بنى ذى النون ؛ ١٢١ ، ١٣٩
دولة بنى رزين ؛ ٢٥٩
دولة بنى مرين ؛ ٣١٠
دولة بنى مزين ؛ ٤٤
دولة بنى مناد ؛ ١٦ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٧ ،
١٤٨
دولة بنى يفرن ؛ ١٢٣
الدولة البيزنطية ؛ ١٩١
الدولة الجهورية ؛ ٢٥ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ١٦٠
الدولة الحمودية ، ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٤٥ ، ١٢١
الدولة العامرية ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٣٢ ، ١٢١ —
١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،
١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
٢٦٦ ، ٤٠٧
الدولة اللمتونية ؛ ٣٠٨
الدولة المرابطية ؛ ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٦٢ ،
٣٧٣
الروم ؛ ١٤٤ ، ١٩٥
الرومان ؛ ٢٩٩
زناتة ، قبيلة ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
٣٠٤ — ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١
زواغة ، قبيلة ؛ ٣١١

س — ك

السرادنة ؛ ١٩٥
الشيعة ؛ ١٤٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦
شفشاوة ، قبيلة ؛ ٣٠٥
صدينة ، قبيلة ؛ ٣١١
الصقالبة (والفتيان) ؛ ١٢ ، ١٣ ، ١٢٩ ،
١٥٨ — ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
٢٧٤ ، ٤٠٩ ، ٤١١
صنهاجة ، قبيلة ؛ ١٢١ — ١٢٤ ، ١٢٦ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،
١٤١ — ١٤٣ ، ١٤٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٤١١
العبيديون (الفاطميون) ؛ ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٤٩
العجم ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٨
العرب ؛ ١٢ ، ٦٢ ، ١٤٤ ، ١٩١ ، ٢٠٤ ،
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ،
٣٥٣
العصبية العربية ؛ ١٢ ، ١٤
عصر الإحياء ؛ ٢٣ ، ٤٤٣
غمارة ، قبائل ؛ ٣١٢
الفتيان العامريون ؛ ١٣ ، ٣٨ ، ١٠١ ،
١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٩ — ١٦٤ ، ١٧٥ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ —
٢٢٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ،
٢٧٣ ، ٤١٠ ، ٤٣١
الفرس ؛ ٥١
الفرنج ؛ ١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٧٢
الفرنسيون ؛ ٣٩٨
القبائل البربرية ؛ ٤٥ ، ١٢١ ، ١٥٢
القشتاليون ؛ ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١١٣ ،
١٧٨ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ —
٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
٢٨٤ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ،
٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
٣٩٤ ، ٣٩٩ — ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤١٥ ،
القرطبيون ؛ ٢٠ ، ١٥٩
القطلان ؛ ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠

القوط ؛ ٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٩٦
كدالة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣
الكرسى الرسولى ؛ ٢٧٤، ٤٠٢
الكنيسة الإسبانية ؛ ٣٩٧ ، ٤٠٢

ل — ى

لخم ، قبيلة ؛ ٣٢ ، ٦٢
اللنبارد ؛ ١٨٨ ، ١٩١
الليونيون ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٢
لماية ، قبيلة ؛ ٣١١
لمتونة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٧٢
لمطة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
لواتة ، قبيلة ؛ ٣١١
مداسة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
المدجنون ؛ ٤١٥
مديونة ، قبيلة ؛ ٣١١
المرابطون ؛ ١٦ ، ٧٧—٧٩، ٩١، ١١٦ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ — ١٨٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ — ٢٤٣ ، ٢٤٧، ٢٤٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ — ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٥ — ٣١٨ ، ٣٢١ — ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ — ٣٣٥ ، ٣٣٩ — ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ — ٣٥٣ ، ٣٥٥—٣٥٧، ٣٦٥—٣٧٣، ٣٧٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤١٤، ٤٣٧، ٤٣٩
مسراتة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
المستعربون ؛ أنظر النصارى المعاهدون
المسلمون ؛ ٧٣ ، ٨٥ — ٨٧ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١٩٢ — ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ — ٢٣٧ ، ٢٤٤ — ٢٤٧ ، ٢٧٤ — ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٧٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ — ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ — ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ — ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠
مسوفة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩
المصامدة ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٧٢
مغراوة ، قبيلة ؛ ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١
مغيلة ، قبيلة ؛ ٣١١
الملثمون ؛ ٢٩٩
ملوك الطوائف ؛ أنظر دول الطوائف
الممالك الإسبانية النصرانية ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٤٣
الممالك البربرية ؛ ٦٢ ، ١٤٧ — ١٥٠
مملكة أراجون ؛ ٢٨٩ ، ٣٧٨ ، ٤٠٦
مملكة أشتوريش ؛ ٣٧٨
مملكة إشبيلية ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٥٥ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
مملكة المرية ؛ ١٣٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٧، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٢١ ، ٣٦٦
مملكة برشلونة ؛ ٢١٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٣٧٨
مملكة بطليوس ؛ ٤١ ، ٤٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٣١٥ ، ٣٦٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٤٠٠
مملكة بلنسية ؛ ١٦٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٤٠٨
مملكة بنى هود ؛ أنظر مملكة سرقسطة
مملكة جليقية ؛ ٤٠٤

مملكة دانية ؛ ١٨٨ ، ١٩٨ — ٢٠٣ ، ٢٠٩ ،
٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٨١ ، ٤١١
مملكة سرقسطة ؛ ٩٥ ، ١٣١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
٢٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ — ٢٨٢ ، ٢٨٨ ،
٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ،
٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
مملكة طليطلة ؛ ٤٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ — ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١ ،
١١٤ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٧١ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ،
٣٩١ ، ٣٩٥
مملكة غانة ؛ ٣٠٥
مملكة غرناطة ؛ ١٦ ، ٦١ — ٦٣ ، ١٤٢ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٦١
مملكة الفرنج ؛ ٤٠٧
مملكة قشتالة ؛ ١٦ ، ١١٥ ، ١٨٨ ، ٣٧٧ ،
٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
المملكة القوطية ؛ ١١٦
مملكة ليون ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١
مملكة مالى ؛ ٣٠٢
مملكة مرسية (وإمارة) ؛ ١٧٨
مملكة نافار (نبره) ؛ ٢٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
الموالى ؛ ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٥٤
الموحدون ؛ ١٦ ، ٤٢ ، ٣٣٢

المولدون ؛ ١٢ ، ٢٠٧ ، ٢٦٥ ، ٤١٢
النافاريون ؛ ٣٨٠ ، ٣٨١
النصارى ؛ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ،
٢٤٥ — ٢٤٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٨ ، ٣٢١ —
٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ — ٣٣٥ ،
٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ،
٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ،
٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ — ٤١٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢
النصارى المعاهدون ؛ ٧٥ ، ١١٢ ، ٢٠٣ ،
٢٤٤ ، ٤٠٩ — ٤١٥
نفيس قبيلة ؛ ٣٠٥
النورمان ؛ ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢٧٤ — ٢٧٨ ،
٣٩٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٧
هوارة ، قبيلة ؛ ٢٥٣
وتريكة ، قبيلة ، ٢٩٩
وردة ، قبيلة ، ٣٠٥
اليهود ، ٧٥ ، ١٣٣ — ١٣٥ : ١٣٧ ،
٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤١١
٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠

فهرست البلدان والأماكن

— أ —

أبدة ؛ ٢٢ ؛ ٣٤٩

أبلة ؛ ٤٢

أتابوركا ، موقعة ؛ ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥

أذكون ؛ ٢٥٨

أراجون ؛ ١٠٨ ، ١١١ ، ٢٤٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٢

أرجونة ، ٢٢

أرشدونة ؛ ١٤٥

أرتلة ؛ ٤٠٧

أركش ؛ ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦

أزمور ؛ ٣٠٦

إسبانيا المسلمة ؛ ١١٠ ، ١٣٠ ، ٢٣٤ ، ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٧١ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٨

إسبانيا النصرانية؛ ١١ ، ١٦ ، ١١٦ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٧٥ ، ٣١٤ ، ٣٣٠ — ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٤٣

إستجة ؛ ١٤ ، ٢١ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٥ ، ٣٧١

آسفى ؛ ٣٠٦

الإسكندرية ؛ ٢٠٢ ، ٢٩٥

الاسكوريال ؛ ٢٠٦

أشبونة ؛ ٢٤ ، ٣٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٤٣٤

اشبيلية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٢ — ٣٧ ، ٣٩ — ٤١ ، ٤٣ — ٤٩ ، ٥٥ — ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ — ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ — ٤٤٢

أشتوريش ؛ ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤

أشونة ؛ ٣٨ ، ١٤٩ ، ٣١٤

أغمات ؛ ١٤٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ — ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧—٣٥٩ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٤٢٧

أفراغة ؛ ٢٦٥

إفريقية ؛ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٤١٥ ، ٤٢٩

إقليش (حصن وموقعة) ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٩٢ ، ٣٤٦ — ٣٤٨ ، ٣٦٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤

ألبونت ؛ ٢٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ — ٢٦٢

إلبيرة (وولاية) ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٩

ألش ؛ ١٧٨

ألفنت ؛ ١٢٨ ، ١٦٣

ألمرية ؛ ١٤ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٨—١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨—١٧٣ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ — ٤٣١ ، ٤٤٢

المهدية ؛ ٤٢٧

أليدو ؛ أنظر حصن ليبط

أنتقيرة ؛ ١٤٥

الأندلس ؛ ١١ — ١٦ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ — ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٧ — ٨٠ ، ٩٠ — ٩٥ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ — ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٤ — ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ — ٣٣٥ ، ٣٣٧ — ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ — ٣٦٥ ، ٣٧١ — ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٩ — ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٣

أندوجر ؛ ٢٢

أودفست ؛ ٣٠٥

أوريولة ؛ ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٩٠

أوسيدا ؛ ٣٨٣

أوكانيا ؛ ٣٤٧

إيطاليا ؛ ١٩٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٤٤٣

ب — ث

باب إشبيلية ؛ ٤٧

باب إلبيرة ؛ ١٣٧

باب شيزورا ؛ ٢٧٨

باجة (وكورة) ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٥٠

بازو ؛ ٨١ ، ٨٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

ببشتر ؛ ٣٨

بجاية ؛ ١٧٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٩

بربشتر ؛ ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ — ٢٧٩ ، ٤٠٦ ، ٤١٢

البرتغال ؛ ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠٤

برجة ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩

برجونية ؛ ٣٣١

برشلونة ؛ ٦٥ ، ١١١ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٧

برغش ؛ ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤

برناط ؛ ٣٠٦

البرنيه ؛ أنظر جبال البرنيه

بروفانس ؛ ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢١١

بستان الملك ؛ ١١١

بسطة ؛ ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥

البشرات ؛ ٤١٤

بسكونية ؛ أنظر نافار — نبره

بطرنة ، موقعة ؛ ١٠٢ ، ١٧٨ ، ٢٢٤

بطليوس ؛ ٢٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٥٠ ، ٢٩٠ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٦٩ — ٣٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧

بغداد ؛ ٥٤ ، ٣١٤

بلاد جلميوه ؛ ٣٠٥

بلاد جزولة ؛ ٣٠٥

بلاد الزاب ؛ ١٤٨ ، ٣١٩

بلاد السودان ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤

بلاد السوس ؛ ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٤٢

بلاد غمارة ؛ ٣١١
بلاد فازاز ؛ ٣٠٨ ، ٣١١
بلاد القبلة ؛ ٣٠٨
بلاد المصامدة ؛ ٣٠٥ ، ٣١٠
بلاط الشهداء ؛ ٢٦٠ ، ٣٣٠
بلا نتادا ؛ ٣٨٩
بلتيرة ؛ ٢٩١
بلمة ؛ ٣٥١
بلنسية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ — ١١٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٦ — ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٨ — ٢٢١ ، ٢٢٣ — ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ — ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ — ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
بله نوبه ؛ ٢٤٢
بنبلونة ؛ ٤٠٦
بواتو ؛ ٣٣١
بياسة ؛ ٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٣٤٩
بيرة ؛ ٥٨
بيزة ؛ ٥٨ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
تادلا ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩
تارودنت ؛ ٣٠٥
تاكرونا ؛ ١٥٢
تامارون ، موقعة ؛ ٣٧٨
تامسنا ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٧
تدمير (وولاية) ؛ ٧١ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٦٨
تدمير الشام ؛ ١٧٤
ترجالة ؛ ٩٥
تطيلة ؛ ٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٣١
تلمسان ؛ ٣١٣
تنبكتو ؛ ٣٠٢
تورو ؛ ٣٨٩ ، ٣٩٢
تولوشة ؛ ٣٣١
تونس ؛ ١٥٤ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٤٢٧
الثغر الأعلى ؛ ١٧ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٤١٢
الثغر الأوسط ؛ ١٧ ، ٩٤ ، ٢٥٣
الثغر القوطى (الاسبانى) ؛ ٤٠٧

ج — ز

جامع المرية ؛ ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٨
جامع بلنسية ؛ ٢١٨
جامع طليطلة ؛ ١٠٥ ، ١١٣ ، ٣٩٧
جامع غرناطة ؛ ١٤٠
جامع قرطبة ؛ ٣٣ ، ٤٣١
جامع الكتبيين ؛ ٣١٠
جامع وشقة ؛ ٢٨٩
جبال الأطلس ؛ ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣
جبال البرنيه ؛ ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٧٨ ، ٣٠٦ ، ٤٠٧ ،
جبال البونت ؛ ٢٣٨
جبال بنى رزين ؛ ٢٥٣
جبال درن ؛ ٣١٠ ، ٣٧٢
جبالة (كبالة) ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٨
جبل الشارات ؛ ٢١ ، ٧٣ ، ٨١
جبل شلير ؛ ١٢٤
جبل طارق ، مضيق ؛ ٧٩ ، ٢١١
جبل العيون ؛ ٤١
جبل منديرا ، ٢٤٧

جرادوس ، موقعة ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٥
الجزائر الشرقية ؛ ٢٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ – ٢١٣ ، ٢٢٢
الجزيرة الخضراء ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ – ٤٩ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٥٦ ، ٣١٨ – ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣
الجزيرة (جزيرة شقر) ؛ ٢٤٧
جزيرة شلطيش ؛ ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٣ ، ٤٣٠
جزيرة فورمنتيرا ؛ ١٨٩ ، ٢١١
جزيرة منورقة ؛ ١٨٩
جزيرة ميورقة ؛ ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٠ – ٢١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣
جزيرة يابسة ؛ ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٣
جلبياريس ؛ ٣٨٩
جليقية ؛ ١١٢ ، ١٤٤ ، ٣٢٢ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٣
جنجالة ؛ ٩٧
جنوه ؛ ٢٣ ، ١٩٢ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
جويانسا ؛ ٣٨٧
جيان (وولاية) ؛ ٢٢ ، ٦٣ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤
حصن أركش ؛ ٣٦١
حصن أشتر ؛ ١٢٥
حصن إقليش ؛ أنظر إقليش
حصن البلاط ؛ ٣٤٩
حصن المدور ؛ ٢٨ ، ٧٣ ، ١٥١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥١
حصن برغش ؛ ٣٩٠
حصن بلج ؛ ٦٥ ، ١٨١
حصن روطة (وقلعة) ؛ ٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
حصن الزهراء ؛ ٤٩
حصن سرية ؛ ١٠٨
حصن شقورة ؛ ٦٦ ، ١٨٤
حصن غرماج ؛ ٢٨٠
حصن فتورية ؛ ١٠٨
حصن قبرة ؛ ٦٣
حصن قناليش ؛ ١٠٨
حصن فونقة ؛ ١١٥
حصن لونا ؛ ٣٩٤
حصن لبيط ؛ ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٦٥ ، ٣٩٩
حصن مونتشون ؛ ٢٨٥
حصن مورور ؛ ١٥٥
حصن وادي آش ؛ ١٦٧
حصن وبذه ؛ ١٠٨
الحمراء (حمراء غرناطة) ؛ ١٣٩
حمص ؛ ٣٣ ، ٣٦٣
الخندق ، موقعة ؛ ١٢
دار السرور ؛ ٢٨٣
دانية ؛ ٢٤ ، ٦٦ ، ١١٤ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٧ – ١٩٠ ، ١٩٢ – ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٦٦ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
درعة ؛ ٣٠٤
دروقة ؛ ٢٦٥
دير أونيا ؛ ٣٩٢
دير سان بيدرو دي كاردينا ؛ ٢٤٩
دير ساهاجون ؛ ٣٤٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٢
دير سيلوس ؛ ٣٩١
دير لورقان ؛ ٣٨٥ ، ٤١٣
رباجورسا ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨
ربض قرطبة ؛ ٢٨
الرصافة (بلنسية) ؛ ٢٢٨ ، ٢٤٢

ركانة ؛ ٢٣٨
رندة ؛ ١٤ ، ٤٥ ــ ٤٧ ، ٦٢ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢
رومة ؛ ٣٧٩
ريه ، كورة ؛ ١٧ ، ٤٦ ، ١٥٢
ريوخا ؛ ٢٤٢
الزلاقة ، موقعة (وسهل) ؛ ٨٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٧ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ــ ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٨
الزهراء ، مدينة ؛ ٤٩ ، ١٥٩

س ــ غ

سبتة ؛ ٧٧ ، ١٣١ ، ١٦٠ ، ٢٤٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٧١
سجلماسة ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩
سردانية ، جزيرة ؛ ١٩٠ ــ ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
سرقسطة ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ــ ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ــ ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ــ ٢٨٨ ، ٢٩٠ ــ ٢٩٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢
سرقوسة ؛ ٤٢٧
سرية ؛ ٩٣
سلا ؛ ٣٠٤
سمورة ؛ ١٠٢ ، ٢٣٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
السهلة ؛ ١٢١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
سوبرابى ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
السودان ؛ أنظر بلاد السودان
شاطبة ؛ ١٠١ ، ١٢٨ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٦٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٤
الشام ؛ ٣٣
شبه الجزيرة الإسبانية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٧١ ، ١١٥ ، ١٧١ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ــ ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٣٦
شذونة ؛ ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٣٠٦
شرطانية ؛ ٤٠٧
الشرق الإسلامى ؛ ٢٠٧
شرق الأندلس ؛ ١٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ــ ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ــ ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ــ ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١١
شقورة ؛ ٦٤ ، ٦٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٦
شلب (وولاية) ؛ ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٤
شنبوس ؛ ٦٤
شنت برية ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ٢٢٤
شنت ياقب ؛ ٣٨٤
شنترة ؛ ٨١ ، ٣٦٨
شنترين ؛ ٨١ ، ٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٦٨ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩

شنتمرية الشرق ؛ ٩٥ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ — ٢٦٢

شنتمرية الغرب ؛ ٤٣

شوذر ؛ ١٩٧ ، ٢٢٢

صقلية ؛ ١٩٣ ، ٤٢٧

الصمادحية ، بستان وقصر ؛ ١٦٨ ، ١٦٩

طرطوشة ؛ ١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣١

طركونة ؛ ٢١٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦

طريف ؛ ٧٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٩

طشانة ؛ ٣٣

طلبيرة ؛ ٩٥ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ٢٧١

طلمنكة ؛ ٣٨٣

طليطلة ؛ ١٧ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ — ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ — ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٣١٥ — ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢

طنجة ؛ ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٥٧ ، ٤٢٧

العدوة (عدوة المغرب) ؛ ٧٤ ، ٧٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٦٦

الغرب (غربي الأندلس) ؛ ١٧ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٨١ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٤٠٠ ، ٤٣٣

الغرب الإسلامي ؛ ٣١٤

غرناطة (وولاية) ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٤ — ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ — ١٤٣ ، ١٤٧ — ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ — ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٤١٤ ، ٤٣٠

ف — ق — ك

فارو ؛ ٤٣

فاس ؛ ٧٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٧٣

فحص البلوط ؛ ٨٢

فحص الرينسول ؛ ٤١٤

فحص غرناطة ؛ ٣٤٠

الفرنتيرة ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٧١ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ٣٣٩

فرنسا ؛ ٢١١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٤٠٧

فلورنس ؛ ٢٣

فيانا ، موقعة ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٥

قبر المعتمد بن عباد ؛ ٣٦٣

قرطبة ؛ ١١ — ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ — ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ — ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٨ — ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،

٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٣٢١ ، ٣٤٣ — ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩—٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢

قرقشونة ؛ ٤٠٧

قرمونة ؛ ١٤ ، ٣٥ ، ٣٦ — ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٦ ، ٣٧١

قسطلة ؛ ٤٣٠

قسطلونة ؛ ١٠١ ، ٢٦٠

قسطنطينية ؛ ٢٧٧

قشتالة ؛ ٤٨ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤١٢

قصبة ألمرية ؛ ١٦١ ، ١٦٨

قصبة بربشتر ؛ ٢٧٥ ، ٢٧٦

قصبة بطليوس ؛ ٨٢ ، ٣٦٩

قصبة شلبة ؛ ٢٢٥

قصبة غرناطة ؛ ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩

قصبة مالقة ؛ ١٣١ ، ١٣٩

قصبة منتشون ؛ ٢٨١

قصبة المنكب ؛ ٣٤٠

قصر إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ٣٥٤ — ٣٥٦

قصر الجعفرية ؛ ٢٦٩ ، ٢٨٣

قصر الزاهي ؛ ٥٥

قصر طليطلة ؛ ١١٣ ، ١١٥

قصر قرطبة ؛ ٣٧ ، ١٦٠

القصر المبارك ؛ ٥٥ ، ٦٩

قصر المدينة ؛ ٢١٢

قصر المكرم ؛ ١٠٤

قطلونية ؛ ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦

قلشانة ؛ ١٥٥

القلعة (المغرب) ؛ ١٧٣ ، ٣٦٦

قلعة أغمات ؛ ٣٥٧ ، ٣٦٠

قلعة أيوب ؛ ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢

قلعة تافالا ؛ ٣٧٩

قلعة جابر ؛ ٣٩

القلعة الحمراء ؛ ٦٣ ، ١٣٩

قلعة حمير ؛ ٢١٠

قلعة رباح ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ٣٤٩

قلعة فازاز ؛ ٣١١

قلعة قونقة ؛ ٩٦ ، ١٠٢

قلعة المنار ؛ ٢٨٥

قلعة النهر ؛ ٩٩ ، ٢٧١ ، ٣٨٣

قلمرية ؛ ٥٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤ — ٣٨٦ ، ٤١٣

قلهرة (وقلعة) ؛ ٩٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٥

قنطرة القنطرة ؛ ٣٩٠

قورية ؛ ٩١ ، ٩٥ ، ١١٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٦

قونقة ؛ ٧١ ، ٩٥ — ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٦٠ ، ٣٤٧ ، ٤٠٠

القيروان ؛ ١٢٥ ، ٣٠١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩

كالا موشا ؛ ٢٧٥

كاليارى ؛ ٩١ ، ١٩٢

كتندة ؛ ١٧٨

الكدية ؛ ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢

الكرازة ، موقعة ؛ ٤٠٦

كريفلة ؛ ٣٠٧

كنتبريا ؛ ٣٧٦

الكنيسة الاسبانية ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧

كنيسة سان إيسدورو ؛ ٣٨٤

كوارت ؛ ٢٤٧

كوليرا ؛ ٢٤٨
كونسويجرا ؛ ٢٤٧ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢

ل — ى

لاردة ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠
لاميجو ؛ ٨٥ ، ٣٨٣
لانجدوك ؛ ٤٠٧
لبلة ؛ ٢٩ ، ٤٠ — ٤٣ ، ٧٣ ، ٨٤ ؛ ٤٣٣
لقنت ؛ ١٨٧
لوبية ؛ ٢٩٩
لوجرنيو ؛ ٢٤٠
لواتة ، مدينة ؛ ٣٠٨
لورقة ؛ ٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٩٩
لوزيتانيا ؛ ٣٨٢
لون ؛ ١٩٢
ليجوريا ؛ ٢١١
ليون (القطر والمدينة) ؛ ٧٣ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ٢٢٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٦ — ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤
ماردة ؛ ٨١ ، ٨٢ ، ١١١ ، ٢٠٤
ماسة ؛ ٣٠٥
مالقة ؛ ١٤ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣٧ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦
مجريط ؛ ٣٩٥
مجلس الذهب ؛ ٢٨٣
المدور ؛ ٢٢ ، ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩
مدينة سالم ؛ ٩٥ ، ١٠٠ ، ٢٤٩ ، ٣٨٣
مراكش ؛ ٢٩٢ ، ٣١٠ — ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
مربلة ؛ ١٤٧
المرج (مرج غرناطة) ؛ ٦٣
مرسية ؛ ١٩ ، ٦٤ — ٦٦ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ — ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣٣٤ — ٣٣٧ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٣٤
مرشانة ؛ ٤٧
مسلاقة ؛ ٢٤٧
المسيلة ؛ ١٤٨ ، ١٤٩
المشرق ؛ ١٢٧ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٦٤ ، ٤٠٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢
مصر ؛ ١٢١ ، ٢٠٢ ، ٢٩٤ ، ٣٣٨
المعدن ؛ ٧١ ، ٩٥
المغرب ؛ ١٢٠ — ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ — ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ — ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ — ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ — ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٤٢٧
المغرب الأوسط ؛ ١٤٩ ، ٣١٣
مكة ؛ ٤٣٣
مكناسة ؛ ٨٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٧
منت ليشم ؛ ٤٣٣
منديز ؛ ٤٠٦
المنكب ؛ ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٤٤
المنية ، بطليطلة ؛ ١١٢
مورة ؛ ٩٥
مورور ؛ ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦
موريتانيا ؛ ٢٩٩
موريلا ؛ ٢٨٦
مولة ؛ ١٧٨ ، ١٨١
مونتشون ؛ ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٤٠٦
ميرتلة ؛ ٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

ميورقة (مدينة) ؛ ٢٠٠،٢١١،٢١٢،٢١٣
ناجرة ؛ ٣٨١
نافار (نبرة) ؛ ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٢
نهر إبره (الإيبرو) ؛ ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
نهر أراد ؛ ٢٩
النهر الأحمر ؛ ٤٢
نهر أوديل ؛ ٤٣
نهر يسيرجا ؛ ٣٨٩
نهر التاجه ؛ ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١١٢ — ١١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠
نهر تورمس ؛ ٣٨٢
نهر جريرو ؛ ٣٢٢
نهر خالون ؛ ٢٥٣ ، ٢٩٣
نهر دويرة ؛ ٨٥ ، ٨٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩
نهر شجرى ؛ ٢٦٥
نهر شقورة ؛ ١٧٤ ، ١٧٩
نهر شنيل ؛ ١٢٤ ، ١٤٠
نهر طوريا ؛ ٢٣٨ ، ٢٦٠
نهر كريون ؛ ٣٩٠
نهر منهو (منديجو) ؛ ٨٧ ، ٣٨٦
نهر النيجر ؛ ٣٠٢
نهر النيل ؛ ٣٠٢
نهر الوادى الكبير ؛ ١٤ ، ٢١ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦
نهر وادى لكه ؛ ١٥٢ ، ١٥٤
نهر وادى يانه ؛ ٧١ ، ٨٤ ، ٣٢٢
نورمانديا ؛ ٢٧٤ ، ٣٣١
وادى آش ؛ ١٢٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ٤١٤
وادى الحجارة ؛ ١١٤ ، ٢٧١ ، ٣٨٣
وادى سبو ؛ ٣٣٥
وادى منى ؛ ٣١٢
وبذة ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٤٧
وجدة ؛ ٣١٣
وشقة ؛ ٩٩ ، ١٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٦
والبة ؛ ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٣٠
وهران ؛ ٣١٦
يابرة ؛ ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩
يومين ؛ ٣٣ ، ٦٨

فهرست الأعلام

— أ —

ابراهيم بن اسحاق اللمتونى ؛ ٣٥١
إبراهيم بن يحيى الكدالى ؛ ٣٠٠
ابن أبي جوش حاكم وادى آش ؛ ١٤٤
ابن أبي حصاد ؛ ٤٩
ابن أبي زرع الفاسى ؛ ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠
ابن أبي زمنين ؛ ١٢٥
ابن أرفع رأس ؛ ١٠٦
ابن الأبار القضاعى ؛ ٦٠ ، ٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٤٣٠
ابن الأثير ؛ ٣٦٤
ابن التاكرونى ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
ابن التيانى ، أبو غالب ؛ ١٩٩
ابن الحاج ، أبو عبد الله ؛ ٢٩٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧١
ابن الحداد الوادى آشى ؛ ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٤٢٩
ابن الحضرمى ؛ ٨٩
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ١٥ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ — ٣٦٤ ، ٤٢٨
ابن السقاء ، إبراهيم ؛ ٢٦ ، ١٠٣
ابن الشهيد ؛ ١٦٩
ابن الطويل ، حاكم بربشتر ؛ ٢٧٦
ابن الفرج ؛ ٢٢٧ ، ٢٤١
ابن القزاز (محمد بن عبادة) ؛ ١٦٨ ، ١٦٩ ؛ ٤٢٩
ابن القطان ؛ ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٦
ابن اللبانة ، أبو بكر بن عيسى الدانى ؛ ٧١ ، ٢٦٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٤٢٧
ابن المرجرى الاشبيلى ؛ ٤١١
ابن باجة ، أبو بكر بن الصائغ ؛ ٢٩٤ ؛ ٤٣٧
ابن بدرون ؛ ١٠٥
ابن بسام ؛ ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩
ابن بصال الطليطلى ، أبو عبد الله ؛ ١٠٦ ، ٤٤٢
ابن بطوطة ؛ ٣٠٢
ابن تفرتاش ، أمير البحر ؛ ٢١٢
ابن جابر ؛ ١٠٤ ، ١٠٦
ابن جحاف ، أبو أحمد جعفر ؛ ١٨٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢
ابن جهور ، أبو الحزم (جهور بن محمد) ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٨
ابن جهور ، أبو الوليد (محمد بن جهور) ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١ — ٤٣ ، ٦١ ، ٨٣ — ٨٥ ، ١٢٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٦
ابن حزم ، الوزير ؛ ١٢٩ ، ٤٣١
ابن حزم ، أبو محمد ؛ ٣٨ ، ٢٠٧ ، ٢٩٤ ، ٤٢٠ — ٤٢٣ ، ٤٣١ - ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨
ابن حمديس ، عبد الجبار بن أبي أبكر ؛ ٤٢٧
ابن حيان ؛ ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ — ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٢ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٤٢١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

ابن خلدون ؛ ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦
ابن خلكان ؛ ٣٥٠
ابن دراج القسطلي ؛ ١٦٢ ، ٢١٩ ، ٢٦٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣١
ابن رزين ، هذيل بن عبد الملك ؛ ٢٣٧ ، ٢٥٣ — ٢٥٥ ؛ ٤٤١
ابن رزين ، عبد الملك بن هذيل ؛ ٢٥٥ — ٢٥٩ ، ٢٦١
ابن رشد الحفيد ، أبو الوليد ؛ ٢٩٤
ابن رشيق ، عبد الرحمن ؛ ٦٥ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٩٩
ابن رويش (محمد بن مروان بن عبد العزيز) ؛ ٢٢٣
ابن زيدون ، أبو الوليد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ — ٤٢٧
ابن زيدون ، أبو بكر ؛ ٥٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٧
ابن سعيد الرياضي ؛ ١٠٦
ابن سعيد بن الفرج ؛ ٩٨ ، ١٠٧
ابن سيده ؛ ١٩٨ ؛ ٣٣ ؛ ٤٣٤
ابن شاليب ؛ ٧٣ ، ٣١٦
ابن شبيب ؛ ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
ابن طالوت ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
ابن طيفور ؛ ٣٦ ، ٤٤
ابن عائشة ، داود ؛ ٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨
ابن عائشة ، محمد ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٤٠٠
ابن عباس ، الكاتب ؛ ٢٢١
ابن عبد البر ، أبو عمر ؛ ١٩٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
ابن عبد البر ، أبو محمد ؛ ٥٠ ، ٥٧ ، ٤٣٤
ابن عبد العزيز ؛ ٢٢١
ابن عبد الملك المراكشي ؛ ١٧٨
ابن عبدون ، أبو محمد عبد الحميد ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ٣٦٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٤٠
ابن عديس ؛ ٢٤٤
ابن عذارى ، المؤرخ ؛ ٢٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٧١
ابن عكاشة ، حريز ؛ ١٠٤
ابن عكاشة ، حكم ؛ ٦١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٣٩٤
ابن علقمة ؛ ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
ابن عمار ، أبو بكر ؛ ٦٠ ، ٦٣ — ٧١ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٩ — ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٣٤٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٤٦
ابن عيسى ، قاضي بربشتر ؛ ٢٧٦
ابن لبون الطليطلي ؛ ٩٨
ابن لونكو ؛ ٤٤٢
ابن مبارك ؛ ٦٦ ، ١٨٤
ابن مثنى ؛ ٢٢٣
ابن مرتين ، محمد ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣ ، ٤١١
ابن مروس ، أبو العباس ؛ ٢٦٨
ابن مسرة الطليطلي ؛ ٩٧
ابن مشعل ؛ ٧٤
ابن معمر اللغوى ؛ ١٩٨
ابن مقانا ، أبو اسحاق ؛ ٤١٧
ابن مهلب ؛ ٢١٩
ابن واجب ؛ ٢٦٨
ابن وافد ؛ ٤٤٢
ابن يحيى ، صاحب لبلة ؛ ٢٩ ، ٤٣ ، ٨٤
ابن يعقوب ؛ ٤٧ ، ١٥٣
ابن يعيش ؛ ٩٧
ابن نغزالة ، إسماعيل ؛ ١٣٣ ، ١٤٠
ابن نغزالة ، يوسف ؛ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٣ — ١٣٨ ، ١٦٧
أبو إسحاق الإلبيرى ؛ ١٣٥
أبو إسحاق بن خفاجة ؛ ٢٤٦
أبو الأصبغ بن أرقم ؛ ١٦٨ ، ٢٠٣
أبو الحسن بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو الحسن بن اليسع ؛ ١٨٤
أبو الحسن الحصرى ؛ ٤٢٧
أبو الربيع سليمان ؛ ٢١٢
أبو العباس ، كاتب باريس ؛ ١٢٧
أبو العباس العذرى ؛ ٤٣٠
أبو الفضل بن حسداى السرقسطي ؛ ٢٨٠ ، ٢٩٥

أبو القاسم القرطبى ؛ ٤٣٧
أبو القاسم بن عباد ؛ أنظر محمد بن إسماعيل
أبو المطرف التجيبى ؛ ٢٧٠
أبو المطرف ابن الدباغ ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٥
أبو المغيرة بن حزم ؛ ٢٦٩
أبو الوليد الباجى ؛ ٩١ ، ١١١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٤٣٣
أبو الوليد الوقشى ؛ ٢٤٣
أبو بحر بن عبد الصمد ؛ ٣٦٢
أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى ؛ ٢٩٤
أبو بكر بن القصيرة ؛ ٧٧
أبو بكر بن الحديدى ؛ ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٧
أبو بكر بن طاهر (أحمد بن اسحاق) ؛ ٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ٢٢٢
أبو بكر بن عبد العزيز ؛ ٦٨ ، ١٠٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٢٥
أبو بكر بن عبد العزيز (ابن رويش) ؛ ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٨٦
أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو بكر بن عمر اللمتونى ؛ ٣٠٥ — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٣ ، ٣٧٣
أبو بكر بن قاسم الشلبى ؛ ٧١
أبو بكر بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣٢٩
أبو بكر الرميمى ؛ ١٦٣
أبو بكر الطرطوشي ؛ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ٤٣٧
أبو بكر بن المعتمد بن عباد (المعتد) ؛ ٣٥٢ ، ٣٥٦
أبو تزيرى الدمرى ؛ ١٥٤
أبو جعفر البتى ؛ ١٨٢ ، ٢٤٦
أبو جعفر القليعى ؛ ٣١٧
أبو خروب ، أمير البحر ؛ ١٩٠ ، ١٩٢
أبو حفص بن عبد الله بن أبى غفير ؛ ٣٠٧
أبو زكريا بن واسنو ؛ ٣٤٣ ، ٣٦٦
أبو طالب بن غانم ؛ ٨٨
أبو عامر بن أزرق ؛ ٢٦٨
أبو عامر بن خطاب ؛ ١٧٦
أبو عامر بن عبدوس ؛ ٤٢٦
أبو عامر بن غرسية ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٤٢٩
أبو عامر بن غند شلب ؛ ٤١٢
أبو عبد الرحمن بن طاهر ؛ ٦٤ ، ٦٥ ، ١٧٧ — ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٤٣٤
أبو عبد الله بن أبى الخصال ؛ ٢٠٦
أبو عبد الله البزليانى ؛ ٥٨ ، ٤٣٦
أبو عبد الله الحميدى ؛ ٥٦ ، ٤٣٩
أبو عبد الله الزبيدى ؛ ٣٤ ، ٤٠
أبو عبد الله الشيعى ؛ ٣٠٥
أبو عبد الله المعيطى ؛ ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤
أبو عبيد البكرى ؛ ١٦٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
أبو عمران الفاسى ؛ ٣٠١
أبو عمر بن خطاب ؛ ١٧٦ : ١٩٥
أبو عمر بن القلاس ؛ ٢٩٥
أبو عمرو بن سعيد الدانى ؛ ١٩٨
أبو عمرو الباجى ؛ ١٢٩
أبو عيسى بن لبون ؛ ٢٣٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
أبو غفير محمد بن معاذ ؛ ٣٠٦
أبو محمد المزدلى ؛ ٢٤٨ ، ٢٩٠
أبو محمد بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو منصور الثعالبى ؛ ٤٣١ ، ٤٣٩
أبو ناصر المرابطى ؛ ٢٤١
أبو نصر بن أبى نور ؛ ٤٧ ، ١٤٠ ، ١٥٣
أبو نصر فتح بن خلف ؛ ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧
أبو نور بن أبى قرة اليفرنى ؛ ٤٥ ، ٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ — ١٥٥
أبو يحيى بن صمادح ؛ ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٦٥
أبو يحيى بن مسعدة ؛ ٢٠٦
أبو يوسف المرينى ، السلطان ؛ ٧٩
الآثر بن بطين اللمتونى ؛ ٣٠٠
أحمد بن الدودين البلنسى ؛ ٢٠٤
أحمد بن رشيق ، أبو العباس ؛ ١٩
أحمد بن صمادح ، معز الدولة ؛ ١٧٣

أحمد بن عباس ؛ ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٢ — ١٦٤ ، ٢٢٢ ، ٤٣٦ ؛ ٤٣٧
أحمد بن عبد الملك بن هود (سيف الدولة) ؛ ٢٩٣
أحمد بن محمد بن حجاج ؛ ٤٤٢
أحمد بن محمد بن قاسم (عز الدولة) ؛ ٢٦١
أحمد بن يحيى اليحصبي ؛ ٤٠
إدريس المتأيد بالله ؛ ٣٩ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٣٠ ، ١٥٢
إدريس بن يحيى السامي ؛ ١٣١ ، ١٤٠
إدريس بن يحيى العالي ؛ ٣٨ ، ١٣١
أرمزندة ؛ ٤٠٥
آرياس كونثالث ؛ ٣٩٢
الإسترداد ؛ ١١٦ ، ٤١٣
إسحاق بن عبد الله البرزالي ؛ ٨٤
إسحاق بن محمد البرزالي ؛ ١٥١
إسكندر الثاني ، البابا ؛ ٢٧٤
الإسلام ؛ ٦٢ ، ٩١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٥ ، ٤١١
إسماعيل بن عباد ، القاضي ؛ ٢٤ ، ٣٢ — ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٦١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٠
إسماعيل بن ذى النون (الظافر) ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩
إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٥٠
إسماعيل بن المعتضد بن عباد ؛ ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٤ ، ١٣٥
إسيدورو ، القديس ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢
آسين بلاثيوس ؛ ٤٣٢
أصبغ بن السمح ؛ ٤٣٥
إعتماد الرميكية ؛ ٦٤ ، ٦٦ — ٦٨ ، ١٨٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ — ٣٦٣
الأغلب ، حاكم ميورقة ؛ ١٩٧ ، ٢٠٢
أفلح الصقلبي ؛ ١٥٩ ، ١٧٥
الأفضل شاهنشاه ؛ ٢٩٤
الإقطاع ؛ ٤٠٢ ، ٤٠٣
آلبارهانيس ؛ ١١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥١
إلبيرة ابنة سانشو غرسيه ؛ ٣٧٧
إلبيرة ابنة فرناندو ؛ ٣٨٩ ، ٣٩٢
ألفونسو الأول الأرجونى ؛ ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٤
ألفونسو الخامس ؛ ١٠٢ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣
ألفونسو السادس ؛ ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٠٨ — ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٦ — ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ — ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ — ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ — ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣
ألفونسو بن فرناندو ، ملك ليون ؛ ٢٣٣
ألفونسو العالم ؛ ٢٥٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥
ألفونسو ريمونديس ؛ ٢٩٣ ، ٤٠٤
ألفونسو المحارب (ابن ردمير) ؛ ٢٩١ — ٢٩٣
أمارى ، المستشرق ؛ ١٨٨ ، ١٩٣
أم الكرام بنت المعتصم ؛ ١٧٠ ، ٤٢٩
أودو أمير برجونية ؛ ٣٣١
أوراكا ، ابنة فرناندو ؛ ١٠٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ — ٣٩٤
أوراكا ابنة ألفونسو السادس ؛ ٤٠٤ ، ٤٠٦
أوربان الثانى ؛ ٤٠٢

ب — ث

البابوية ؛ ١٩٢
باديس بن حبوس ؛ ١٤ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ — ٦٣ ، ٨٣ ، ١٢٦ — ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ — ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٣٤١
باديس بن المنصور ؛ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥

باديس بن أبي نور اليفرني ؛ ٤٦ ، ١٥٣
البحتري ، الشاعر ؛ ٤٢٥
برنجير ، الكونت ؛ ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٤٠٨
برتولا ؛ ٣٩١
برمودو الثاني ؛ ٣٧٧
برمودو الثالث ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠
برنار ، الأسقف ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢
بشير الفتى ؛ ١٠٨
بطى بن إسماعيل ؛ ٣٤٤ ، ٣٤٩
بقى بن مخلد؛ ٢٠٧
بلج بن بشر القشيري ؛ ٣٣
بلقين بن باديس ، سيف الدولة ؛ ٦٣ ، ١٣٤
بلقين بن حبوس ؛ ١٢٧ ، ١٦٣
بلقين بن زيرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ٣٠٦
بلقين بن ماكسن ؛ ١٢٩ ، ١٦٣
بندكت ، القديس ؛ ٣٨٧
بندكتوس الثاني ، البابا ؛ ١٩٢
بيدال ، منديث ؛ ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٥، ٣٢٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٣ ، ٤٣٤
بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٤٠٦
تميم بن الآثر ؛ ٣٠٠
تميم بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
تميم بن يوسف ، أبو الطاهر ؛ ٢٩٢ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
تيبولوس ، الشاعر اللاتيني ؛ ٤٢٥
التيجاني ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٨
تيولوثان بن تيكلان الصنهاجي ؛ ٣٠٠
ثابت بن محمد الجرجاني ، أبو الفتوح ؛ ١٢٧، ١٣٠ ، ١٣١

ج — ز

جابر بن المعتضد؛ ٦٢ ، ١٣٢
جبر الدولة الحاجب ؛ أنظر ابن رزين ، عبد الملك
جرور الحبشي ؛ ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
جعفر بن إبراهيم (ابن الحاج اللورقي) ؛ ٣٧٠
جعفر بن شرف ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩
جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ؛ ١٤٨ ، ١٤٩
جلالي بن زاوى ؛ ١٢٦
جود النصرانية أم مجاهد ؛ ١٩٣ ، ١٩٥
جولدسيهر ، المستشرق ؛ ٢٠٧ ، ٢٠٨
جوهر الصقلي ؛ ١٢١
جهور بن عبد الملك البختى ؛ ٢١
جيوم دى مونرى ؛ ٢٧٤
الحاج بن محقور ؛ ٩٨
الحاجب المنصور ، أنظر المنصور بن أبي عامر
حباسة بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ٢٣
حبوس بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ — ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٣
الحجاري ، صاحب المسهب ؛ ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٣٥٨
الحروب الصليبية ؛ ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٢
حسن بن مجاهد (سعد الدولة) ؛ ١٩٥ ، ٢٠٠، ٢٠١
الحصرى الضرير ؛ ٣٥٧
الحكم المستنصر ؛ ١١ ، ٨١ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٤٩
الحكم بن هشام ؛ ٢١ ، ٤٠٧
خلف الحصرى ؛ ٣٧ ، ٣٨
خلف بن حيان ؛ ٤٣٨
خلف بن عباس القرطبي ؛ ٤٣٧
خلف بن فرج ، السميسر ؛ ١٦٩ ، ٣٤٠
خلف بن نجاح ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣
خمينا ، زوجة السيد ؛ ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٤٠٠
خوستا ، القديسة ؛ ٤٨ ، ٣٨٤
خيران العامري ؛ ٦٤ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٥٨ — ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٦٢ ،
٢٦٦ ، ٤٣١
خيرة الصقلبي ؛ ٢١٨
دقلديانوس ؛ ٣٨٤
دوزى ، رينهارت ؛ ١٩٩ ، ٢٥١ ، ٣٦٤
دون ديجو ، ابن السيد ؛ ٢٤٧
ذو النون بن سليمان ؛ ٩٥
رامون برنجير ، الكونت ؛ ٦٥ ، ١٨٠ ،
٢٣٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
٢٨٧ ، ٣٧٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
رامون برنجير ، الثالث؛ ٢١١، ٢١٢، ٤٠٨
رامون بوريل ؛ ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٧
راميرو ، الإنفانت (نافار) ؛ ٢٨٥
راميرو الأول ، ملك أراجون ؛ ٢٣٣ ،
٢٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥
راميرو بن سانشو الكبير ؛ ٣٧٨
راندة ، حاكم قلمرية ؛ ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤
رزين البرنسي ؛ ٢٥٣
الرشيد بن المعتمد ؛ ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٨
٧٩ ، ١٨٠
رشيد الدولة بن صمادح ؛ ١٧٠ ، ٤٢٩
رفيع الدولة بن صمادح ؛ ٧١ ، ١٧٠ ،
٤٢٩ ، ٤٣٠
رميك ، مولى اعتماد ؛ ٦٧ ، ٣٦٣
ردريجو دى بيبار ؛ أنظر السيد إلكمبيادور
رهبان سيلوس ؛ ٣٩١ ، ٣٩٥
الريكونكستا(الإسترداد)؛ ١١٦ ، ٣٩٨، ٤١٣
ريمون البرجونى ، الكونت ؛ ٣٧٠ ، ٤٠٤
ريتان ؛ ٢٥١
زاوى بن زيرى ؛ ١٢٢ — ١٢٦ ، ١٩٦ ،
٢٦٦
زائدة الأندلسية ؛ ٧٣ ، ١١٠ ، ٢٩٢ ،
٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
زبيدة ، السلطانة ؛ ٢٤١
الزرقالى القرطبى ؛ ٤٣٥
زهير العامرى ؛ ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩، ١٦١—
١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٨٩ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢١، ٢٢٢، ٤٣٦، ٤٣٧
زيرى بن عطية ؛ ١٥٤ ، ٣٠٤
زيرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٩
زينب بنت إسحاق النفزاوية ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
٣١٢

س — ط

سان جيل ، الكونت دى ؛ ٣٣١
سانشا ، الملكة ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٩
سابور الفارسى ؛ ٨١ ، ٨٢
سانشو ، الإنفانت (ابن زائدة) ؛ ٢٩٢ ،
٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
سانشو ملك أراجون ؛ ٣٨٩
سانشو ملك نافار ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٩
سانشو ملك جليقية ؛ ٤٨، ٧٢
سانشو الكبير ؛ ٨٥ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٨٩
سانشو راميرز ؛ ١٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢ ،
٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
سانشو غرسية (قشالة) ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢
سانشو غرسية (نافار) ؛ ٣٨١
سانشو ابن فرناندو ؛ ٤٨ ، ٧٢ ، ١٠٢ ،
٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٨٩ — ٣٩٤
سراج الدولة بن على بن مجاهد ؛ ٢٠٩
سسندو دافيدس (ششنند) ؛ ٥٨ ، ٨٦ ،
١١٢ ، ١١٤، ١٤٣، ٢٢٦ ، ٣٨٥ ، ٣٩٧
سعيد بن أحمد الطليطلى ؛ ٤٣٥
سعيد بن خيرة ؛ ٨٧
سعيد بن هارون ؛ ٤٣
سكوت البرغواطى ؛ ٧٧ ، ٣١٢
سليمان بن الحكم ، المستعين ؛ ١٣ ، ٣٧ ،
٥٢ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ،
١٦٥ ، ٢٥٤ ، ٣٨٢

سليمان بن مشكيان ؛ ٢٠٢
سليمان بن هود ، سعد الدولة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩٣
سماجة ، الوزير ؛ ١٤٢ ، ١٤٤
سيجورد ، ملك النرويج ؛ ٢١١
السيد الكمبيادور ؛ ٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ — ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٣٣٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣
سير بن أبي بكر اللمتونى ؛ ٣٠٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ — ٣٧٠
سير بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٩٨
شارلكان ، الإمبراطور ؛ ٢٤٩ ، ٤٠٧
الشدة العظمى ؛ ٢٠٢
الصاحب بن عباد ؛ ١٧٨
صالح بن طريف البرناطى ؛ ٣٠٦
صمادح بن صمادح ، أبو عتيبة ؛ ١٦٥ ، ١٦٦
صمادح بن عبد الرحمن ؛ ١٦٤
طارق بن زياد ؛ ٢٥٣
الطغنرى ، محمد بن مالك ؛ ٤٤٢

ع — غ

عباد بن المعتمد ، سراج الدولة ؛ ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤
عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٣٩
العباس بن المتوكل بن الأفطس ؛ ٣٦٩
عبد الجبار بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١
عبد الجليل بن وهبون ؛ ٤٢٧
عبد الرحمن الداخل ؛ ١١ ، ١٣ ، ٢١ ، ٣٠٠
عبد الرحمن الغافقى ؛ ٢٦٠
عبد الرحمن المرتضى ؛ ١٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
عبد الرحمن الناصر ؛ ١١ ، ١٢ ، ٢١ ، ٥١ ، ١٢٢ ، ١٩٦ ، ٣٣٠ ، ٣٨٢
عبد الرحمن بن أسبط ؛ ٧٩ ، ٣١٨
عبد الرحمن بن جهور ؛ ٢٦ ، ٢٩
عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢١ ، ١٧٤
عبد الرحمن بن المنصور ؛ ٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٨— ١٦٠ ، ١٨٨
عبد الرحمن بن ذى النون ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠
عبد الرحمن بن عبد الله المهاجر ؛ ١٦٤
عبد الرحمن بن متيوه ؛ ٩٧
عبد الرحمن بن مطرف التجيبى ؛ ٢٦٦
عبد الرحمن بن يسار ؛ ٢١٦
عبد العزيز البكرى ، أبو زيد ؛ ٢٤ ، ٤٣
عبد العزيز بن أفلح ؛ ٢١٨
عبد العزيز بن سابور ؛ ٢٣ ، ٨٢ ، ٨٣
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ؛ ٢٤ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ — ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٣ ، ٢٦٧
عبد الله ، حاكم ميورقة ؛ ١٩٧
عبد الله المرتضى ، حاكم ميورقة ؛ ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
عبد الله بن الناصر ؛ ٥١
عبد الله بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤١ — ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٣٣ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ — ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
عبد الله بن حكيم ؛ ٢٦٩
عبد الله بن سابور ؛ ٢٤
عبد الله بن سلام ؛ ٤٧ ، ٤٨ ، ٨٤
عبد الله بن قاسم الفهرى ؛ ٢٣٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١
عبد الله بن محمد ، الأمير ؛ ١٢ ، ٢١ ، ٢٦٥
عبد الله بن محمد الأوسى ؛ ٢٠٦
عبد الله بن محمد ، جناح الدولة ؛ ٢٦١ ، ٢٦٢
عبد الله بن مريم ؛ ٣٤ ، ٤٠
عبد الله بن مسلمة ، أنظر المنصور بن الأفطس

عبد الله بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٢٠
عبد الله بن المنصور ؛ ٥١ ، ٢٦٦
عبد الله بن ميمون ؛ ٢١٢
عبد الله بن ياسين الجزولى ؛ ٣٠١ — ٣٠٨ ، ٣١٣
عبد الملك بن السراج ؛ ٢٠٧
عبد الملك بن مروان ؛ ٢١
عبد الملك بن المنصور ؛ ١٢٢ ، ٤٣١
عبد الملك بن جهور ، أنظر ابن جهور ، أبو الوليد
عبد الملك بن سابور ؛ ٨٢ ، ٨٣
عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر ، المظفر ؛ ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠١، ٢٢٣ — ٢٢٥
عبد الملك بن قطن ؛ ٢٦٠
عبد الملك بن متيوه ؛ ٩٧
عبد الملك بن المستعين ، عماد الدولة ؛ ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
عبد الملك بن هذيل ، أنظر ابن رزين
عبد المنعم بن عبد الله التروجي ؛ ٢٠٦
عبد الواحد المراكشي ؛ ١٧١ ، ٢٠٩
عبدون بن خزرون ؛ ٤٥ ، ٥٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥
عبد شمس بن وائل ؛ ٢٩٩
عبيد الله الحراز ؛ ٨٥
عبيد الله بن أدهم ؛ ٣١٧
عثمان بن أبي بكر بن عبد العزيز ؛ ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
عزيز بن محمد البرزالي ، المستظهر ؛ ٤٧ ، ١٥١
عطاف بن نعيم ؛ ٣٣
علي بن حمود ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٦ ،
علي بن عبد الله البجلي ؛ ٣٠٥
علي بن مجاهد ، إقبال الدولة ؛ ٥٦ ، ١٣٨ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ — ٢٠٤ ، ٢٠٨ — ٢١٠ ، ٢٨١ ، ٤١١ ، ٤٣٤
علي بن يوسف بن تاشفين ؛ ٢١٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
عمر بن سليمان المسوفي ؛ ٣٠٩
عمر بن عبد العزيز ؛ ١٥
عنبر الفتى ؛ ١٥٩
عيسى بن أبي الأنصاري ؛ ٣٠٦
عيسى بن محمد ؛ ٤٤
عيسى بن مزين ، المظفر ؛ ٤٤
غرسية أردونس ؛ ٢٨٨ ، ٢٨٩
غرسية ملك نافار ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٠٥
غرسية ملك جليقية ؛ ١٠٢ ، ٣٩٤
غرسية خيمنس ؛ ٣٣٤
غرسية سانشيز ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
غرسية فرناندز ؛ ٣٧٧
غرسية دى قبره ؛ ٤٠١
غزوة برشلونة ؛ ١٧٦
غرسية بن فرناندو ؛ ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
غلبرت ، الأسقف ؛ ٢٠٣
الغزالي ، أبو حامد ؛ ٣٣٨

ف — ق — ك

فاطمة بنت ،ير بن يحيى ؛ ٣١٢
فائق الخادم ؛ ٨١
الفتح بن المعتمد (المأمون) ؛ ١٨١، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٨ ، ٣٥٦
الفتح بن خاقان ؛ ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٤١ ، ٢٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦، ٤٣٧، ٤٤٠
فتح بن خلف اليحصبي ؛ ٤٢
الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٩٦
الفضل بن المتوكل بن الأفطس ؛ ١١١ ، ٣٦٩

فتوح بن أبي نور اليفرني ؛ ٤٦
فرنان كونثالث ، ٣٧٧
فرناندو الأول ؛ ٤٨ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨٥ — ٨٧ ، ٩٨ — ١٠٢ ، ١١٢ ، ١٧٧ ، ٢٢٣ — ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ — ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥
فرناندو أنسوريز ؛ ٣٩٠
فرويلا الثانى ؛ ٢٣٣
القادر بن يحيى بن ذى النون ؛ ٧١ ، ٩٠ ، ١٠٦ — ١٠٩ ، ١١٢ — ١١٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٧ — ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٣٣٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١٣
القاسم بن حمود المستعلى ؛ ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ١٣١ ، ١٨٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
القاسم بن محمد بن خزرون ؛ ١٥٥ ، ١٥٦
كارل مارتل ؛ ٣٣٠
كباب بن تميت ؛ ١٤٥
كوديرا ، المستشرق ؛ ٣٣٠
الكورتيس ؛ ٤٠٣ ، ٤٠٤
كونزالز بن سانشو ؛ ٣٧٨
كونستانس ، الملكة ؛ ٣٣١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

ل — م

لافونتى ، المؤرخ ؛ ٣٧٩
لب بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
لبيب العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣
لذريق الكنبيطور ؛ أنظر السيد الكمبيادور
لقوط بن يوسف المغراوى ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
ماريانا ، المؤرخ ؛ ١١٣
ماكسن بن باديس ؛ ١٣٨ ، ١٤٢
ماكسن بن زيرى بن مناد ؛ ١٢٢
ماكسن بن ماكسن ؛ ١٢٢
المأمون بن ذى النون ، يحيى ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٧ — ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ — ٣٩٥ ،
المأمون البطائحى ؛ ٢٩٥
مالك بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦
مالك بن جابر بن لبيد ؛ ١٧٤
مالوتو ، قائد السرادنة ؛ ١٩١
مبارك العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٣٧٣ ، ٤٣١
مبشر بن سليمان ، ناصر الدولة ؛ ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٢٧
المتنبى ، أبو الطيب ؛ ٨٧ ، ٤٢٥ ، ٤٣١
المتوكل بن الأفطس ، عمر ؛ ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٧١ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٨ — ٣٧١ ، ٣٨٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤
مجاهد العامرى ؛ ٢٤ ، ٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٨٨ — ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٤١١ ، ٤٣١ ، ٤٣٤
المجوسية ؛ ٣٠٠
محمد ، النبى العربى ؛ ٩١ ، ٢٠٨
محمدبن الأحمر ، الفقيه ؛ ٧٩
محمد بن إدريس المستعلى ؛ ١٣١
محمد بن إدريس المهدى ؛ ٣٨ ، ١٣١
محمد بن إسماعيل بن عباد ، أبو القاسم ؛ ٣٢ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٢ — ٨٤ ، ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٣٨٥
محمد بن الأفطس ؛ ٨٢ ، ٨٣

محمد بن تاشفين ؛ ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٦٨
محمد بن تميم الكدالي ؛ ٢٠٩
محمد بن تيفاوت اللمتونى ؛ ٣٠٠
محمد بن جهور بن عبد الله ؛ ٢١
محمد بن خزرون ؛ ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦
محمد بن خلف الصدفى ، أنظر ابن علقمة
محمد بن سعيد بن هارون ؛ ٤٣
محمد بن سليمان ؛ ٣٧ ، ٥٢
محمد بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٩٥ ، ٩٦
محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، الأنقر ؛ ٢٦٥
محمد بن عبد الله البرزالى ؛ ٣٦ ، ٤٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٣٠ ، ١٤٨ — ١٥١
محمد بن عبد الله بن قاسم ، يمن الدولة ؛ ٢٦١
محمد بن عبد الملك بن المنصور ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
محمد بن عيسى ، عميد الدولة ؛ ٤٤
محمد بن عيسى بن مزين ، الناصر ؛ ٤٤
محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٣٨
محمد بن معاذ بن اليسع ؛ ٣٠٦
محمد بن نوح الدمرى ؛ ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥
محمد بن هشام المهدى ؛ ١٣ ، ٥٢ ، ١٢٣ ، ١٥٨ — ١٦٠ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧
محمد بن هشام التجيبى ؛ ٢٦٥
محمد بن يحيى اليحصبى ، عز الدولة ؛ ٤١ — ٤٣
محمد بن يوسف التميمى ؛ ٧١
مخلوف بن ملول ؛ ١٣٢
مدرك التلكاتى ؛ ٣٠٩
مروان بن جهور بن عبد الملك ؛ ٢١
المستظهر بالله ، الأموى ؛ ١٣ ، ٤٣١
المستظهر بالله العباسى ؛ ٣١٤
المستعين بالله بن هود ، سليمان بن محمد ؛ ٩٨ — ١٠٠ ، ١٠٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧٢
المستعين بن هود الأصغر ، أحمد ؛ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ — ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨
المستعين بن المؤتمن بن هود ؛ ٢٩٤
المستكفى بالله ، الأموى ؛ ١٣
المستنصر بالله الفاطمى ؛ ٢٠٢
مسعود بن وانودين ؛ ٣٠٤
مسكن بن حبوس ؛ ١٣٨
المسيح ؛ ٢٨٢
مطرف بن إسماعيل بن ذى النون ؛ ٩٦
مظفر العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٤٣١
المظفر بن الأفطس ، محمد بن عبد الله ؛ ٢٩ ، ٤٢ ، ٨٤ — ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤
المظفر بن هود ، يوسف ؛ ٢٣٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
المعتد بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٥٦
المعتصم بن صمادح ، أبو يحيى ؛ ٤٨ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٦٧ — ١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
المعتضد بن عباد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٠ — ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٤ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ — ١٥٦ ، ٢٠٠ ، ٣٨٣ — ٣٨٥ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦
المعتضد بالله العباسى ؛ ٥٣ ، ٥٤
المعتمد بن عباد ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ — ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ — ٧٩ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ — ٣٤٨ ، ٣٥٠ — ٣٥٣ ، ٣٥٥ — ٣٦٠ ، ٣٦٣ — ٣٦٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٤ — ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١

المعرى ، أبو العلاء ؛ ٨٧

المعز لدين الله الفاطمى ؛ ١٢١

المعز بن ابن إسحق البرزالى ؛ ٨٤

المعز بن باديس ؛ ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

المعز بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣١٥ ، ٣١٦

معز الدولة بن صمادح ؛ ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ٣٢١ ،

معن بن صمادح ، أبو الاحوص ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٢٢

معنصر المغراوى ؛ ٣١١

مقاتل العامرى ؛ ٢٧٣

المقتدر بن هود ؛ ٦٦ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦

المقرى ، شهاب الدين ؛ ٣٦٤

مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ، ١٥٥

المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١

المقرى شهاب الدين ؛ ٣٦٤

مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ، ١٥٥

المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١

المنذر بن هود ؛ ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ — ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٧٩ ، ٤٣١

المنذر بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢

منذر بن يحيى التجيبى ؛ ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ — ٢٦٨ ؛ ٢٧١ ، ٢٧٣

المنذر بن يحيى ، معز الدولة ؛ ٢٦٨ ، ٢٦٩

المنصور بن أبى عامر ؛ ١١ ، ١٢ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٤٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨

المنصور بن الأفطس ، عبد الله بن مسلمة ؛ ٨٢ — ٨٤ ، ٣٨٥

المنصور بن الأفطس ، ولد عمر المتوكل ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٦٩

المنصور بن بلكين ؛ ١٢١

منديث كونثالث ، الكونت ؛ ٣٧٧

المؤتمن بن هود ؛ ٦٦ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٤٣٦

موجيتوس (موسيتو) اسم مجاهد ؛ ١٩٤

موسى بن ذى النون ؛ ٩٥

موسى بن نصير ؛ ١٩١

مؤمل ، مولى باديس ؛ ٣٤١

ن — ى

النابة ، وزير باديس ؛ ١٣٤ ، ١٣٩

نبيل العامرى ؛ ١٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

النصرانية ؛ ١١٥ ، ١٩٥ ، ٢٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤٢٢

النعمان بن المنذر ؛ ٣٣

نكل ، الأستاذ ؛ ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧

نوح بن تزيرى الدمرى ؛ ١٥٤

هذيل الصقلبى ؛ ١٢٩

هذيل بن عبد الملك ؛ أنظر ابن رزين

هشام بن ذى النون ؛ ١٠٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥

هشام بن عبد الرحمن ؛ ٢١

هشام المعتد بالله ؛ ٢٠، ١٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

هشام المؤيد بالله ؛ ١٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦
هشام الوقشى ؛ ٤٣٥
واجاج بن زلوا المعطى ؛ ٣٠١
واضح الفتى العامرى ؛ ٩٦ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٣٠٦ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧
وانور بن أبى بكر المتوفى ؛ ٢١٣
ولادة بنت المستكفى ؛ ٢٥ ، ٧١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
الونشريشى ، أحمد بن يحيى ؛ ٣٤٨
يحيى التجيبى الكبير ؛ ٢٦٩
يحيى بن إبراهيم الجدالى ؛ ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣
يحيى بن الأفطس ، المنصور ؛ ٨٧ ، ٨٨
يحيى بن المنذر التجيبى ، المظفر ؛ ٢٦٨ ، ٢٧٠
يحيى بن سكوت ؛ ٣١٢ ، ٣٦٦
يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ٢٦٦
يحيى بن عبد الملك بن رزين ؛ ٢٥٩
يحيى بن على بن حمود ، المعتلى ؛ ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٢٥
يحيى بن على بن خدون الأندلسى ؛ ١٤٨
يحيى بن عمر بن تلاكاكين ؛ ٣٠٢ — ٣٠٥
يحيى بن المنذر بن هود ؛ ٤٣١
يدير بن حباسة بن ماكسن ؛ ١٢٧
يدو بن يعلى ؛ ١٥٢
يزيد الراضى ؛ ٦٦ ، ٧٩ ، ٣١٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦
يعلى العامرى ؛ ٢٧٣
يوسف بن بخت بن أبى عبده ؛ ٢١
يوسف بن تاشفين ؛ ٧٤ ، ٧٧ — ٨٠ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ — ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ — ٣٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ — ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٩٨ — ٤٠١ ، ٤٢٨
يوسف بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
يوسف بن محمد البلوى ؛ ٢٠٧ ، ٣١٩

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٩/٥٢٩٤